

لیرمونتوف

بطل من زماننا



روایات الهلال

روايات الهلال

Kowayat Al-Hilal

صدر من مؤسسة « دار الهلال »
العدد ٢٥٢ - ديسمبر ١٩٦٩ - شوال ١٣٨٩
No, 252 - Décembre 1969

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين
رئيس التحرير : رجاء النعش

بيانات ادارية

من العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ جنيه - من الكميات المرسلة
إلى سورية وليبيا ١٢٥ قرشاً ، في الأردن والمغرب ١٣٠ فلساً
قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عدداً » في الجمهورية العربية المتحدة
وبلغ اتحاد البريد العربي والأفريقي ١٠٠ قرش صاع - في سائر أنحاء
العالم ٥ ونصف دولار أو ٤٠ شلناً والقيمة تعد مقبلاً لقسم الاشتراكات
بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . في
الخارج بتحويل أو شيك مصرفي قابل الصرف في « ج.ع.م » - والاسعار
الموضحة أعلاه بالبريد المسببى - وتضاف رسوم البريد الجوي والنقل
على الاسعار المحددة عند الطلب
الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد مر العرب - القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

المشارف والرسوم الداخلية بريشة الفنان : جمال قطب



زوايا الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د/ محمد سعيد الفارسي
المملكة العربية السعودية

بطلے .. من زمانتا

بقام

لیرمونٹوف

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي



دار الهلال

مقدمة بقلم المؤلف

المقدمة في كل كتاب ، هي أول شيء وآخر شيء ، تهدف اما الى شرح غاية الكتاب ، واما الى تبريره والرد على ما عسى ان يوجه اليه من نقد . ولكن القارئ لا يعنى ، عادة ، لا بالهدف الاخلاقى ، ولا بهجمات المجلات ، وهو لذلك لا يقرأ المقدمات . ومن المؤسف ان يكون الامر كذلك ، ولا سيما في بلادنا التى لا يزال جمهورها جديدا بسيطا لا يفهم الحكايات ، ما لم يجد فيها ، آخر الامر ، عظة اخلاقية . فهو لا يكشف المزاح ، ولا يدرك السخرية . حتى يمكن ان نقول عنه ببساطة : انه قليل الثقافة . انه لا يعرف بعد ، ان التسم ليس مقبولا في مجتمع راق وكتاب جيد ، وان المدنية الحديثة قد ابتدعت سلاحا امضى ، ولكنه قاتل ، يسدد تحت ستار من التملق ، ضربات صائبة لا سبيل الى تفاديها . ان جمهورنا أشبه يرفى سمع حديث رجلين من رجال الدبلوماسية يمثلان بلاطين متعادين ، فاعتقد ان كلا منهما يخون حكومته ، ما دامت تقوم بينهما الى الآن صداقة رقيقة .

لقد شقى هذا الكتاب ، مؤخرا بذلك النوع من التصديق الساذج لدى بعض القراء ، بل ولدى المجلات التى تفهم الامور فهما حرقيا . فاستاء بعضهم استياء فظيما لا مزيد بعده لمستزيد ، من تصويرنا نموذجاً يبلغ من الابتعاد عن الاخلاق ما بلغه « بطل من هذا الزمان » وقال آخرون ، فى كثير من الرقة والرهافة : لا شك ان المؤلف قد رسم صورة نفسه ، وصورة من يعرف من الناس . . يا له من اتهام قديم تافه ! ان كل شيء ليتجدد فى روسيا ، الا هذه البلاهات . وما أعسر أن تنجو حكاية من الحكايات ، مهما تفرق فى الخيال ، من اتهامها بأنها أرادت أن تسيء الى شخص بعينه .

أيها القراء الاعزاء : ان « بطل من هذا الزمان » لهو صورة حقا ، ولكنه ليس صورة رجل واحد . انه صورة تضم رذائل جيلنا كله ، وقد بلغت كمال التفتح . قد تقولون لى مرة أخرى : ما من انسان يمكن أن يبلغ هذا المبلغ من الفساد . وجوابى : ترى لماذا تصدقون وجود جميع فجرة المأسى والروايات الرومنسية ، ثم لا تصدقون

بأن شخصا مثل بتشورين يمكن أن يكون مستمدا من الواقع ؟ وكيفه تطيب لكم أخيلة أقطع وأرهب ، ثم لا تلقى منكم صورة هذا الشخص ، حتى ولو كانت خيالا ، قبولاً ورضاً ؟ ترى ألا يرجع ذلك الى أن هذه الصورة أصدق مما تحبون ؟ ..

ورب قائل منكم يقول : ان الأخلاق لا تجنى من ذلك خيراً ، فعلى رسلكم . لقد طالما غذى الناس بالعلوى حتى فسدت معدهم . وينبغي أن يتناولوا الآن عقاقير مرة وحقائق لاذعة . ولا تظنوا مع ذلك ان مؤلف هذا الكتاب قد دار في خطئه يوماً ذلك الحلم الدعى ، وهو أن يقيم نفسه وصياً على الناس يصلح ما قسد من أخلاقهم . وقانا الله شر الادعاء العريض . وانما أحببت على سبيل التفكه أن أصور انسان هذا العصر ، كما فهمته ، وكما اتفق لى أن لقيته في كثير جداً من الأحيان ، لسوء طالعى ولسوء طالعكم . وحسبى أن أشير الى الداء .. أما وسائل البرء فاعلمها عند الله .

الفصل الأول

بيلا



بيلا

غادرت فليس على عربة من عربات البريد . وكان متاعى كله حقيبة صغيرة تحتل مذكراتى عن رحلتى فى جورجيا نصفها . ومن حسن حظك أبها القارئ الصديق ان معظم تلك المذكرات قد ضاع ، ولكن من حسن حظى اننى احتفظت بالحقيبة مع اشياى الأخرى . كانت الشمس قد بدأت تغيب وراء سلسلة من الذرى التى يكسوها الثلج ، حين دخلت وادى كويشاءورى . وكان سائق العربة ، وهو رجل أوسينى ، يستحث الخيل فى كل لحظة ، رجاء أن يصل الى قمة جبل كويشاءورى قبل الليل وكان يغنى ملء حنجرتة . ان هذا الوادى لمكان رائع حقاً : فأيما تتجه ببصرك ترى جبلا منيعة ، والصخور الضاربة الى الحمرة يتشبث بها اللبلاب وتتوجها مجموعات من اشجار الدلب ، ومنحدرات وعرة صفراء تخذدها مجارى السيول . فاذا نظرت الى أعلى رأيت أهداب الثلوج تسطع بلون الذهب . واذا نقلت بصرك الى تحت رأيت نهر آراغا ، اتحدت أمواهه بأمواه نهر آخر لا اسم له ، يتدفق صاحباً من مضيق اسود حافل بالضباب ، ثم يمتد كخيوط من الفضة طويل ، ويسطع كحبة فى الشمس .

فلما وصلنا الى سفح جبل كويشاءورى توقفنا على مقربة من دكان * ، وكان هنالك نحو عشرين جورجيا وجبليا فى جلبة ولفظ . وكان هنالك قافلة من الجمال وقفت غير بعيد من ذلك المكان لقضاء الليل . وكان على أن أكتري ابقارا تجر عربتى على هذا الجبل الخطر ، فلقد كان الوقت خريفاً والجبل يمشى الجبال . وكان على أن اجتاز ما يقرب من فرستين ** .

استأجرت ست بقرات ، وبضعة رجال من اهل البلد ، حمل أحدهم حقبتى على كتفيه ، وراح الآخرون يساعدون فى مسير العربة ، ولكن مساعدتهم هذه كادت تكون بالصراخ فى الدواب فحسب . ورأيت وراء عربتى أربع ابقار تجر عربة أخرى بلا جهد ظاهر ،

* دكان : فى القفقاس مطعم .
** الفرست يوبد قليلا عن الكيلومتر .

مع ان العربية تعج بأحمال كثيرة . فادهشنى ذلك . وكان يتبعها رجل يدخن غليوناً صغيراً من كابرادو مزينا بالفضة . كان الرجل يرتدى لباساً ضابط بلا شارات على الكتفين ، وعلى رأسه قلبى شركسى . وكان وجهه يدل على أنه فى نحو الخمسين من عمره . وكانت بشرته السمراء تدل على ان شمس القفقاس قد لفحته مدة طويلة ، وكان شارباه اللذان ابيضاً من الشيب قبل الاوان لايتناسبان مع خطواته القوية وملامحه الحازمة . فاقتربت منه وانحنيت له ، فرد على تحيتى صامتاً ، وسحب من غليونه نفساً كبيراً .

قلت له : اظن اننا نسير فى طريق واحدة ؟

فانحنى مرة ثانية ، صامتاً ايضاً .

فاستأنفت أسأله : لعلك ذاهب الى ستافروبول ؟

— هو كما تقول ... واحمل هذه الاشياء كلها الى الادارة .
— هل لك أن تفهمنى ، من فضلك ، كيف تستطيع هذه الأبقار الأربع أن تجر عربتك الثقيلة ، بمثل هذه السهولة ، ثم لا تكاد تقدر أبقارى الست التى يعاونها جميع هؤلاء الأوسيتيين أن تجر عربتى مع أنها فارغة ؟

فابتسم ابتسامة مأكرة وقال وهو ينظر الى نظرة معبرة :

— أراهن على أنك لا تقيم فى القفقاس الا منذ مدة قصيرة .

قلت : منذ سنة .

فابتسم مرة أخرى .

قلت : لماذا لا تجيب ؟

— اسمع .. ان هؤلاء الآسيويين خبيثاء ! انظن ان صراخهم هذا يفيد ؟ حاول ان تفهم هذا الكلام الذى يجارون به ! ان أبقارهم وحدها تستطيع ان تفهمه . لو كدنت عشرين بقرة ، فلن تتحرك الأبقار ، متى أخذوا يصيحون هذا الصباح الذى يعرفونه .. انهم مأكرون رهيييون ! وماذا يمكن أن تأمل منهم ؟ انهم يحبون ان يبتزوا من المسافرين مالا .. لقد أسرفنا فى تدليل هؤلاء اللصوص ! سترى انهم سيطلبون اليك فوق أجرتهم عطاء . ولكنى امرفهم ، ولا ادع لهم أن يخذعونى !

— أنت تخدم هنا منذ مدة طويلة ؟

فأجاب وهو ينتصب :

— نعم .. لقد خدمت منذ أيام الكسى بتروفتش . كنت ملازماً

* هو يرمولوف ، جنرال روسى ، كان قائداً عاماً فى القفقاس .

حين وصل الى الجبهة . وقد رقيت مرتين اثناء مقابلي سكان الجبال بقيادته .

- والآن ، أنت ؟ ..

- أنا الآن انتمى الى الكتيبة الثالثة من الجبهة . وأنت ؟ هل يحق ان أسالك من أنت ؟
فقلت له : من أنا .

ووقف الحديث عند هذا الحد ، وواصلنا السير صامتين جنباً الى جنب . وفي قمة الجبل وجدنا ثلوجا . كانت الشمس قد غابت ، وأعقب الليل النهار فوراً على ما هو مألوف في الجنوب . ولكن كان سهل علينا ، من التمتع الثلج ، ان نميز الطريق الصاعدة ، ولو ببطء .

وأمرت بوضع الحقيبة في العربة ، وأبدلت البقر خيلاً ، وغرق بصري مرة أخيرة في الوادي . إلا ان ضباباً كثيفاً كان يتصاعد من قجاج الجبل ، ويغطي الوادي بسحبه يتلو بعضها بعضاً ، وما كان يرقى إلينا أى صوت من تحت . وأحاط بي الأوسيتيون صاخبين يطلبون عطاء . ولكن الضابط أوما اليهم بقسوة ، فغابوا في لحظة عين .
قال صاحبي :

- يا لهؤلاء الناس ! انهم لا يعرفون كيف يسمون الخبز بالروسية ولكنهم تعلموا ان يسألوك : «سيدى الضابط ، هل لى منك بمطاء» .
انى لأوتر عليهم رجال التتر ، فالتتر لا يشربون الخمر ، في أقل تقدير ...

وكان علينا ان نقطع فرستا قبل ان نصل الى المحطة التالية . كان كل شيء من حولنا ساكناً هادئاً ، حتى ليستطيع المرء أن يتابع طيران اللبابة من سماع طنينها . وكان على شمالنا فج عميق بشكل ثغرة كبيرة سوداء ، وراءه وأمامنا ذرى الجبال ، وقد خددتها الغضون وغشيتها الثلوج ، تبدو بلون أزرق قائم ، وتنتصب في الأفق الشاحب الذى كان لا يزال يحتفظ بشيء من التماعات الشفق . وكانت النجوم تشتعل في السماء القاتمة نجمة نجمة ، ومن الغريب أنها لاحت لى أعلى مما نراها في بلادنا بالشمال . وعلى حافتي الطريق ، تقوم الصخور سوداء عارية . وهذى شجيرات تبرز هنا وهناك من تحت الثلج ، ولكن ما من ورقة جافة تتحرك ، كان يحلو لنا ، في صمت الموت هذا الذى يربن على الطبيعة ، أن نسمع شخير أفراسنا الثلاثة المكدودة ، ورنين الأجراس الروسية تجلجل على غير اطراد .

قلت : سيكون الجو جميلا في الغد !
فكان جواب الضابط أن أوماً بأصبعه الى جبل عال كان ينتصب
امامنا .

قلت : ما هذا الجبل ؟
- انه جبل الجود ..
- وماذا تريد أن تقول ؟ ..
- انظر كيف يتصاعد منه الدخان !
حقا لقد كانت تتصاعد من جنباته سحب خفيفة من البخار ،
وكانت تمتد على ذروته غيمة سوداء ، كأنها من سوادها بقعة في
السماء القائمة .

وامسينا نميز المحطة ، ونرى سقوف الاكواخ التي تحف بها ،
وتترأى لنا الأضواء المتراقصة ، حين أخذت تهب ريح رطبة باردة ،
وحين أخذ الفج يش ، وأخذ يهطل رذاذ من المطر . فما أن وضعت
معطفي على كتفي حتى طفق الثلج يهطل سبائخ كبيرة . ونظرت الى
الرئيس ممثلا ، فقال في مضض :

- سنضطر الى التلبث هنا طوال الليل ، فمن المستحيل أن
نجتاز الجبال في جو كهذا . ثم التفت الى السائق يسأله :

- قل لي أيها الصديق ، هل يتهافت الثلج من جبل كرسوقايا ؟
فأجابه الأوستيني بقوله :

- لم يتهافت بعد ناسيدي ، ولكنه يوشك ، يوشك .
ولما لم يكن في المحطة غرف للمسافرين ، اقتادونا الى كوخ مدخن
تقضى فيه الليل . ودعوت رفيق الطريق الى احتساء قدح من الشاي
معي ، فقد كنت أملك غلاية من المعدن ، وهي سلواى الوحيدة في
أسفارى عبر القفقاس .

كان الكوخ ملتصقا بالصخرة من أحد جوانبه ، وكان هناك ثلاث
درجات رطبة منزقة تؤدي الى الباب . فدخلت متلمسا ، واصطدمت
ببقرة « ان الزريبة تقوم لدى هؤلاء الناس مقام حجرة المدخل » .
ولم أعرف الى أية ناحية اتجه ، فها هنا خراف تنغو ، وها هنا كلب
ينخر . ومن حسن حظي أن ضوءا كائيا في ركن من الأركان اتاح لي
أن أكتشف فتحة أخرى تشبه أن تكون بابا ، فدخلت ، فإذا أنا أمام
لوحة شائعة : ان الكوخ الواسع الذي يسند سقفه عمودان اسودا
من الدخان ، كان يبعج بالناس . وفي وسطه تلتصع نار أوقدت على
الأرض ، والدخان الذي تصده ريح آتية من فتحة السقف ، ينتشر

كانه غطاء كثيف ، حتى لقد ظلت مدة طويلة لا أميز شيئا . كان هناك امرأتان عجوزتان ، وأطفال كثيرون ، وجورجى نحيل ، وكانت تغطيهما جميعا أسمال بالية ، وقد تحلقوا حول النار يستدفئون . ولم يبق علينا ، نحن أيضا ، إلا أن نجلس على مقربة من النار ، وأن نشعل غليونينا . وما هى إلا لحظة حتى أخذت الفلاية تغنى غناء حبيبا الى القلب .

قلت للرئيس ، وأنا أشر الى هذه المخلوقات القذرة التى كانت تنظر إلينا صامتة بنوع من الحيرة :

— مساكين هؤلاء الناس .
— أنهم أفياء . هل تصدق ذلك ؟ أنهم لا يجيدون أى عمل ، يعجزون عن تعلم أى شيء . ان جماعتنا الكابارديين والتشتشينيين ، على أنهم من الصعاليك وقطاع الطرق ، يمتازون بحرارة الدم فى أقل تقدير . أما هؤلاء فلا يعملون حتى الى السلاح أى ميل . وما من واحد منهم يملك خنجرا مناسبا ! أنهم أوسيتيون وكفى !

— وهل عشت فى تشتشينا مدة طويلة ؟
— نعم ، لقد ظلت مع سريتى عشر سنوات ، بقلعة كامنى برود . هل تعرفها ؟ ..
— سمعت عنها ..

ياولنا مما لقينا من هؤلاء الناس أيها السيد ! الحمد لله على أنهم هدعوا الآن بعض الهدوء . أما فى ذلك الوقت فكان يكفى أن تخرج عن المتاريس مسافة مائة خطوة حتى تكون على يقين من أن شيطاننا رجيعا يتربص بك ، فاذا ذهلت لحظة واحدة وجدت نفسك وقد تلقفك حبل ينزلق على عنقك أو تصيبك رصاصة فى رقبتك ! يا لخشوتهم وقوة بأسهم !

قلت له ، بدفعنى حب الاستطلاع :
— لا شك أن مغامرات كثيرة وقعت لك ؟
— مغامرات ؟ .. هه ! ..

قال هذا وأخذ يقتل شاربىه الأيسر ، مطرقا حالما . واستبدت بى رغبة جامحة فى استدراجه الى سرد قصة من القصص ، وهى رغبة طبيعية لدى جميع الذين يقومون برحلات ويسجلون ملاحظات . وقلى الماء أثناء ذلك ، فتناولت من حقيبتى قذحين مألئهما شاي ، ووضعت أحدهما أمام صاحبى . فجرع جرعة ، ثم قال كمن يحدث نفسه : طبعاً .. وقعت لى مغامرات ! ..

وملأتنى هذه الكلمات أملا . كنت أعرف ان القفقاسيين الاقدمين
يجبون أن يتكلموا وأن يقصوا ، فذلك لا يتاح لهم الا قليلا : حتى
لقد يقضى بعضهم مع سريته في ركن مجهول من الأرض خمس سنين
طوال ، ثم لا يسمع خلال هذه السنين الخمس كلمة « عم صباحا »
(لأن الصول لا يحبيهم الا بالصيغة الرسمية) . ومع ذلك فما أكثر
الاشياء التي يمكن أن يتحدثوا عنها : أنهم محاطون باناس همج
يحلو للمرء أن يدرسهم ، والخطر يحف بهم في كل يوم ، وقد تقع
أغرب الحالات ، ومن المؤسف حقا أنهم قلما يسجلون .

قلت لصاحبي :
— هل لك بقليل من خمر الروم تضيفها الى الشاي ؟ ان لدى
روما ابيض ، من تفليس .. وهذا مساء بارد .
— كلا ، فأنى لا أشرب .. شكرا .
— لماذا لا تشرب ؟ ..

— لاننى حلفت لن أشرب . ففى ذات مرة ، وقد شربنا قليلا —
كنت يومئذ ملازما ثانيا — انطلقت اشارة الخطر في الليل ، فمضينا
الى مقدمة جنودنا نترنج قليلا . آه ما كان أشد حنق الكسى
بتروفتش حين بلغه الأمر ! لقد غضب يومئذ غضبا هائلا ، وكاد
يقدمنا للمحاكمة أمام مجلس حربى . ثم انه ليتفق أن يبقى سنة
كاملة لا يرى خلالها أحدا من الناس ، فاذا أخذ يشرب فقد أضاع
نفسه .. هذا أمر لا مرأ فيه .

فلما نطق بهذه الكلمات أوشتكت أن أفقد كل أمل ، ولكنه استأنف
كلامه يقول :

— من ذلك أن الشراكسة اذا شربوا البوزا * في احتفال من احتفالات
الأعراس أو الدفن ، انتهى ذلك دائما بطعان . وفى ذات مرة ، لم
استطع أن انجو الا بكثير من العناء ، رغم اننى كنت فى ضيافة
أمير موال .

— قص على ما وقع .
— اليك ما وقع (وهنا حشا غليونه ونشق منه نفسا كبيرا وبدا
يتحدث) :

— منذ ما يقرب من خمس سنين ، كنت مع سريتى فى قلعة وراء
التيريك . وفى ذات يوم من أيام الخريف وصلت الينا شحنة من
الثونة مع ضابط فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، قدم الى

* البوزا : نوع من المشروبات الروحية القفقاسية .

نفسه يكامل ملابسه الرسمية ، وصرح انه ارسل الى هذه القلعة
ليعمل تحت امرتي . كان الرجل شديد النحول ، شديد الشحوب ، وكان
جاكيتة جديدا بحيث ادركت قورا انه حديث العهد بالقفقاس .
قلت له : « لعلك قادم من روسيا ؟ » قال : « نعم سيدي
الرئيس » . قلت وأنا اصفحه : « يسعدنا أن تكون بيننا .
وسينتابك الملل قليلا .. غير اننا سنكون اصدقاء ، ستري ذلك .
واذجوك ان تخاطبني باسمي على غير كلفة ، ان اسمي مكسيم
مكسيمتش ، ودع عنك هذا اللباس رقم ١ ، وتعال الى دأنا بقبة
عادية » . ثم أمرت له بيت ، واقام في القلعة .

— وماذا كان اسمه ؟ ..

— كان اسمه جريجورى الكسندروفتش بتشورين . أجرؤ ان
أقول انه فتى طيب ، ولكنه عجيب بعض الشيء . كان يتفق لنا ان
نتفق يوما بكامله في الصيد ، تحت وابل من المطر المنهمر في البرد
القارس ، فكان كل واحد يرتجف ، وقد هدنا التعب هذا ، الا
هو . وفي أحيان أخرى كان يشكو ، وهو في غرفته ، من قر الريح ،
ويؤكد انه أصيب منه بركام . اذا قرقع الباب ، ارتعش وامتقع
لونه من الخوف . وفي ذات مرة رايته بصطاد خنزيرا برياً وحده .
وكثيرا ما بصمت ساعات طوالا لا تستطيع خلالها أن تنتزع منه كلمة
واحدة ، حتى اذا أخذ يتحدث ، ضحكك ثم ضحكك حتى أغرقت
في الضحك . نعم ، لقد كان مليئا بالفرائب ، ولا شك انه كان
غنيا ، لانه كان يملك أشياء ثمينة كثيرة .

— وهل عاش بينكم مدة طويلة ؟ ..

— ستة كاملة . سنة سأذكرها ما حبيت . لشد ما أحدث لى من
قلقى ، عفا الله عنه . هناك أناس كتب عليهم أن تقع لهم مغامرات
خارقة ! ..

هتفت وقد ظهر على الاهتمام ، ورحت أملا قدح صاحبي :
— خارقة ؟ ..

— اسمع واحكم بنفسك . كان يقطن ، على بعد ستة فرسات
من القلعة ، أمير أنفقدت بيني وبينه أواصر الصداقة . وقد تعود
ابنه ، وهو صبي في الخامسة عشرة من عمره ، أن يأتي الى القلعة
يزورنا ، فكان يجيء كل يوم لأمر من الامور . وكنا في الحق ندله
كثيرا أنا وتشورين ، وكان هو عفرينا حقا . يا لحيوته ! كان
يستطيع من على صهوة جواده الذي يعدو عدوا سريعا أن يلتقط

قبة من الأرض ، وإن يصبوب بندقيته الى هدف فيصيبه . ولكن آفته الكبرى انه يحب المال كثيرا . حتى لقد وعده بتشورين ذات يوم بدينار اذا هو سرق له من قطع ابيه أحسن تيس ، فلما كان المساء من الغد دخل علينا يجز التيس من قرنيه . وكنا نحب في بعض الأحيان أن نناكده ، فاذا بعينه تحتقنان بالدم ، واذا هو يمد يده الى خنجره على الفور . فكنت أقول له : « يا عزم ، لن تحمل رأسك على كتفك طويلا !.. ولا بد أن تحل بك يوما كارثة ! »

وفي ذات يوم وصل إلينا أبوه الأمير بنفسه ، يدعونا الى حفلة زواج ابنته الكبرى . لقد كنا أصدقاء . فكان يستحيل أن نرفض الدعوة . . . وسرنا اليه ، فلما وصلنا ، استقبلتنا الكلاب بنباح قوى ، وأخذت النساء تخفى وجوهها اذ ترانا . واللاتى استطعن أن نرى وجوههن لم يكن لهن حظ من جمال . قال بتشورين : « كان ظني في الشركسيات انهن أجمل من ذلك » . فأجبت مبتسما : « انتظر ولسوف ترى » . كنت قد بيت أمرا .

كان بيت الأمير يعج بالناس . فالشرقيون ، كما تعلم ، يدعون الى حفلات الأعراس من هب ودب . واستقبلنا الناس في كثير من الاحترام ، وقادونا الى القاعة الكبرى . وحرصت على أن أعرف أين يضيئون خيلنا ، فليس بدرى أحد ما الذى يمكن أن يقع !

— وكيف يحتفل عندهم بالأعراس ؟ . .

— الامر بسيط !.. يقرأ « الملاء » آيات من القرآن قبل كل شيء . ثم تقدم الهدايا للموسين وأقربائهم جميعا . ثم يأكل الناس ويشربون البوزا . وبعد ذلك يبدأ استعراض العاب الفرسان . ولا بد أن يؤتى بشخص قذر ، يرتدى أسعالا ، فيمتطى حصانا أعرج ، ويقوم بحركات مضحكة ، يسلى بها الناس ! حتى اذا جاء المساء بدأ فى القاعة شيء يشبه أن يكون حفلة رقص . فيأخذ عجوز فقير بالضرب على الأوتار الثلاثة من آلة يسمونها . نسيت كيف يسمونها أنها تشبه عندنا البالايك * ، فينهض الشباب والصبايا يصفقون صفين متقابلين ، ويصفقون ويغنون ، ثم يتقدم الى وسطهم فتاة وفتى ، يتناشدان بصوت رتيب ما يخطر على بالهما من أبيات يرددها الناس بعدهما كأنهم « جوقة » . كنا جالسين أنا وتشورين فى صدر القاعة . وفجأة تقدمت نحوه صفرى بنات صاحب البيت (لا تكاد

* آلة موسيقية روسية ذات أوتار .

تبلغ السادسة عشرة من عمرها) ، وغنته - كيف أقول ؟ - نوعا من المدح .

- ماذا قالت له على وجه الضبط ؟ .. هل تتذكر ؟ ..
قالت له تقريبا :

فرسانا الشبان وسيمون
وأثوابهم مطرزة بالفضة
ولسكن الضابط الروسي الشاب
أجمل منهم وأبهى
بريمه من ذهب
كانه بينهم شجرة حور
لكنه لن يكبر في بستاننا ولن يزهر .

فنهض بتشورين ، وحياها برفع يده الى جبينه ثم الى قلبه ،
ورجاني أن أترجم لها جوابه ، لأنني أجيد لغتهم . فلما ابتعدت
همست في أذن بتشورين أسأله : كيف تراها ؟ ..
- فائنة .. ما اسمها ؟ ..

- اسمها بيلا ..

كانت حقا فائنة : فاعرة القوام ، دقيقة الخصر ، عيناها سوداوان
كانهما عينا غزال تنفذان الى صميم القلب . ورأيت بتشورين يحلم ،
ولا يفارقها ببصره ، وكانت هي أيضا تختلس النظر اليه كثيرا .
ولكنه لم يكن الشخص الوحيد المعجب بالأميرة الجميلة . فلقد كان
هنالك عينا آخران تسددان اليها من أحد أركان الغرفة نظرة ساكنة
حارة . أنه كازبتش ، أحد الذين أعرفهم منذ مدة طويلة . كان لا يمكن
أن نعرف أهو خاضع أم متمرد ؟ كانت تحوم حوله شبهاث كثيرة ،
ولكنه لم يفاجأ مرة واحدة متلبسا بالجرم . وكان يقود الى القلعة
في بعض الأحيان شيئا نشتريها منه بسعر غير باهظ . ولكن المساومة
معه كانت مستحيلة ، فهو لا يخفض السعر الذي يطلبه مثقال ذرة .
ولأن يموت خير عنده من النزول عن ذلك السعر . قالوا انه كثيرا
ما كان يمضي مع الابريكيين * الى ما وراء الكوبان . والحق أن
هينته هيئة رجل من رجال العصابات : كان قصيرا ، نحिला ،
معروق المنكبين . وكان كالشيطان خفة وسرعة حركة . وكنت لأرى

* أبريك : باللغة الأرمينية يعني قاطع الطرق ، وقد أصبح الناس يطلقون هذا
الاسم على سكان الجبال أبان الحرب القفقاسية ، أولئك الذين كانوا يقاومون
الجيش الروسي .

قميصه الا ممزقا مرقعا ، ولكن اسلحته كانت مرصعة بالفضة . وكانت السن جميع الناس في كاباردا تكيل المديح لحصانه . والحق ان من الصعب على المرء أن يتخيل حصانا أجود من ذلك الحصان . كان جميع الفرسان يحسدونه عليه . وقد حاول بعضهم غير مرة أن يسرقه ، دون أن يظفر بطائل . ما زلت أتخيل ذلك الحصان حتى لكاننى أراه . كان أسود فاحما ، وكانت عراقيبه دقيقة كأنها الحبال ، وكانت عيناه لا تفلان جمالا عن عيني بيلا . أما قوته فحدث عنها ولا حرج ! كان يستطيع أن يعدو مسافة خمسين فرستا بلا توقف . وكان مروضاً مطواعاً يتبع صاحبه كالكلب ، بل كان يعرف صاحبه من صوته . وكان كازبتش لا يربطه أبداً . كان الحصان يليق برجل من رجال العصابات . .

لم أر كازبتش مكفهر الوجه كما رأيته في ذلك المساء . ولاحظت انه يرتدى تحت قميصه زردا . قلت في نفسي : « لامر ما لبس كازبتش زردا ، فلا شك انه يبيت امرا . . »

كانت الحرارة خانقة في الكوخ . فخرجت اتنشق الهواء الرطب . وكان الليل قد خيم على الجبال ، وأخذ الضباب يغشى الفجاء .

وخطر ببالي أن أقرب من السقيفة ، حيث ربطت خيولنا ، لأطمئن الى أنها متملئ ، ثم ان الحيلة واجبة . . . كان لى حصان جميل ، رآه كثير من الكابارديين ، فهتفوا من العجب : ياكشى تخيه ، تشيك ياكشى ! *

وسرت أحاذى السياج ، فإذا انا أسمع صوتين على حين غرة . كنت أعرف أحد هذين الصوتين معرفة تامة ، انه صوت ذلك المتسكع عزمت ، ابن صاحب الدعوة ، وكان الصوت الآخر لا يتكلم الا قليلا ، وكان خافتا . تساءلت : « ترى فيم يتحدثان ؟ . . » أمن حصانى مثلاً ؟ ثم جثوث عند السياج ، وأصخت بسمعى ، أحاول الا تفوتنى كلمة مما يقولان . ولكن ما يصل الى من البيت من غناء وجلبة وصخب كان يصمنى في بعض اللحظات عن سماع هذا الحديث الذى أحرص على سماعه كل الحرص . قال عزمت :

— ما أجمل حصانك ! . . لو كنت الأمر الناهى في هذا البيت ، وكان لى ثلاثمائة فرس ، لأعطيتك نصفها ثمناً لحصانك ياكازبتش .

* حصان جميل ، جميل جداً .

« ها ... انه اذن كازيتش .. » وتذكرت الزرد الذي يرتديه تحت القميص .
قال كازيتش بعد لحظة من صمت :

— ليس له في كابرادا كلها نظير .. ذهبت ذات مرة مع الابريكيين ، وراء تيريك ، نفزو الروس ، ونسلب خيولهم ، ولكن الحظ لم يسعفنا ، فتفرق شملنا ، وراح يطاردني أربعة من القوزاق * كنت أسمع من ورائي صراخ الكفار وشتائمهم . وكانت أمامي غابة كثيفة . فانبطحت على سرجي ، اتكلت على الله .. ولأول مرة في حياتي أسأت الى حصاني اذ ضربته بالسوط .. فراح يشق طريقه بين أوراق الشجر كالطير . كان الشوك يمزق ثيابي ، وكانت أقصان الدردار اليابسة تضرب وجهي ضربا شديدا . وحصاني يقفز فوق ارومات الاشجار المقطوعة ، ويقتحم صدره الادغال اقتحاما . كان من الافضل ان ادعه عند طرف الغابة ، وان أمضي على قدمي أختسبى بين الاشجار ، ولكن قلبي لم يقبل ان انفصل عن الحصان ، وجزأني الله على ذلك خيرا ... وأزت رصاصات فوق رأسي ، وكنت اسمع وقع اقدام القوزاق وقد ترجلوا يعدون ورائي ... ثم اذا بأخدود عميق يظهر أمامي على حين غرة ، فتردد حصاني لحظة ثم وثب . ولكن رجله انزلت على الحافة الثانية من الاخدود ، فظل معلقا بيديه . فتركت الزمام ، وتدرجت في الاخدود . واستطاع حصاني أن ينقذ نفسه ، وأن يستأنف عدوه ... ورأى القوزاق كل ما وقع ، ولكن لم ينزل أحد منهم لبحث عني ، ولعلمهم اعتقدوا أنني مت . وسمعتهم ينطلقون في ملاحقة كاراخيز . كان قلبي يدمي . وأخذت ازحف على الاعشاب الكثيفة في الاخدود . ثم نظرت فإذا هي نهاية الغابة . لقد انطلق عدد من القوزاق في السهل . وكان حصاني يعدو أمامهم ، وهم يلاحقونه صارخين . وظلوا يطاردونه مدة طويلة ، حتى أوشك أحدهم أن يقبض عليه بالجبل مرتين . كنت ارتعد فخفضت عيني ، وأخذت أدعو . ثم نظرت بعد لحظة فإذا كاراخيز ينطلق سريعا حرا كالريح ، ناشرا ذيله ، والكفرة يتقاطرون في السهب على جيادهم التي انهكها التعب فعجزت عن مواصلة العدو . أقسم لك بالله أنني أقول الحقيقة ، الحقيقة صرفة بلا زليدة ولا نقصان ! لقد بقيت في الاخدود حتى ساعة متأخرة من الليل . وفجأة — هل تصدق ذلك يا عزمت ؟ — سمعت في الظلام

* القوزاق قبل ثورة أكتوبر ، ففصكريه كانت في خدمة الحكومة القيصرية .

وقع حوافر حصان يعدو على حافة الاخسود ... انه ينخف ،
ويصهل ، ويضرب الأرض بسنابه : عرفت صوت حصاني كاراخيز
انه هو ، رفيقي الامين ! .. ومنذ ذلك الحين لم نفترق قط يوما .
وسمعت كازيتش يربت على عنق حصانه الدقيق ، ويناديه بأرق
الاسماء . قال عزمت :

— لو كنت أملك ألف فرس لبادلتك بها على كاراخيز .

فأجابه كازيتش بعدم أكثراث :

— وما كنت لأقبل ، بوك * .

قال عزمت وقد رق صوته :

— اسمع يا كازيتش ، أنت رجل شهيم ، وفارس شجاع ، في
حين أن أبى يخاف من الروس ، بمنعني من المضي الى الجبال ،
أعطني حصانك أفل لك ما تريد : أسرق لك من أبى بندقيته ،
وسيفه ، وكل ما تشتهي ... وأنت تعلم أن سيف أبى دمشقي
أصلي : يكفي أن تلمس شفرته الجسم حتى تنفذ في اللحم من تلقاء
نفسها ، لا تبالي زردا كزردك !

وصمت كازيتش ، فأردف عزمت يقول : حين رأيتك على صهوة
حصانك أول مرة ، كان يتثنى ويتوثب ويرتعش منخراه ، وتخرج
حوافره من الصخر شررا . لا أستطيع أن أصف لك شعوري
يومئذ . أصبح كل شيء بعد ذلك اليوم يثير في نفسي الاشمئزاز .
أحتقرت أجود خيول أبى ، وأصبحت أستحي أن امتطيها ، ويعرقني
الشوق الى حصانك كاراخيز . أصبحت أقبع أياها بكاملها على
صخرة ، أستعرض بخيالي حصانك الأسود ، وأنصور شموخه ،
وظهره اللين ، المستقيم كالسهم . وأراه يفرق في عيني نظرة عينيه
الحادتين ، كأنه يهم أن يكلمني . يا كازيتش ، ساموت أن لم تبغني
هذا الحصان ...

قال عزمت ذلك بصوت مرتعش وبدا لي انه يبكي . يجب أن
أذكر لك انه كان غنيذا لا يشبهه في عناده أحد ، يستحيل أن تنهطل
دمومه لأي سبب من الاسباب ، حتى منذ كان أصغر سنا ، والين
عودا .

وسمعت شيئا يشبه أن يكون ضحكة برد بها كازيتش على بكاء
صاحبه . وأردف عزمت يقول بصوت حازم :

— اننى مستعد لكل شيء . هل تريد ؟ سأسرق لك أختي . آه

✱ ✱

ما أجمل رقصها ، ما أجمل غناها ! وانها لتطرز بالذهب تطريزاً
يخطف العقول . ان سلطان الترك نفسه لا يملك مثلها .. هل تريد ؟
أنتظرنى غدا فى الفج عند مجرى السيل . فستمر من هناك بحجة
الذهاب الى القرية المجاورة ، فتأخذها .. الا تساوى بيلاحصانك ؟
ولزم كازيتش الصبغت طويلا ، وكان جوابه فى آخر الامر
انه اخذ ينشد أغنية من الأغاني القديمة ، بصوت خافت :

فى قرانا كثير من حسان الصبايا .

تلمع عيونهن فى الظلام كالنجوم .

ما أجمل أن نهواهن !

ولكن الحرية العارمة أجمل ...

بالذهب يمكن أن يشتري المرء أربع نساء .

ولكن الحصان الجواد لا ثمن له :

فهو يسابق الرياح فى السهوب ،

لا يخون ،

ولا يخيب الظن ! ..

وعيشا كان عزمت يضرع اليه ، ويتملقه ، ويبكى ، ويقسم الايمان

وضاق كازيتش ذرعا به فى آخر الامر ، فقاطعه قائلا :

- اذهب أيها الغلام ، فأنت مجنون ؟ انت تستطيع أن تترك

حصانى ؟ يمينا لو ركبته لرماك على الارض ودق عنقك قبل أن

تمضى به ثلاث خطوات .

فنهتف عزمت وقد ثارت ثائره ، وبلغ منه الغضب كل مبلغ .

- انا ؟ ..

وسمعت شفرة خنجره ، خنجر الطفل ، تصل على زرد كازيتش .

فدفعه كازيتش بيده القوية ، فاصطدم بالسياج اصطداما عنيفا

اهتز منه السياج . قلت فى نفسى : « ستبدأ المعركة ! » وهرمت

الى الاسطبل ، فلجمت الحصانين ، وأخرجتهما من الردهة الخلفية .

وما انقضى على ذلك دقيقتان حتى كان البيت قد انقلب مالياه سافله ،

ذلك ان عزمت سارع ، فمزق الجلباب ، يعلن ان كازيتش اراد أن

يقتله .

لقد وثب جميع الناس الى بندقياتهم ، واستعرت نار المعركة .

وأصبحت لا تسمع الا صراخا وضجيجا وطلقات الرصاص : ولكن

كازيتش كان قد وثب الى حصانه ، ومرتق بين الناس كالسهم وهو

يهز بسيفه . قلت لبشورين وأنا أجره من ذراعه : « اعتقد انه

من الافضل ان نبارح هذا المكان حالا : الهزيمة ثلثا الفنيعة .
- انتظر ، اريد ان ارى كيف ينتهى هذا كله !
- تستطيع ان تكون على يقين من ان النهاية سيئة ! ان الامر
يجرى دائما هكذا عند هؤلاء الشرقيين : يسكرون بالبوزا ، ثم
تبدأ المذبحة .

ووثب كل منا الى حصانه ، ومضينا نعدو .
قلت للرئيس وقد نفذ صبرى :
- وماذا وقع لكازبتش ؟ ..
- وما عسى ان يقع لهؤلاء الناس ؟ ان كازبتش قد لاذ بالفرار !
قال ذلك وهو يفرغ قدحه .
- ولم يجرح ؟

- الحق انتى لا ادرى . ولكن هؤلاء الناس يتحملون ويكابرون .
رايت منهم من ثقت اجسامهم اسنة الحراب حتى صاروا كالغزال ،
ثم ظلوا يهزون أسيافهم .
وبعد لحظة من صمت استأنف الرئيس كلامه ، وهو يضرب
الارض بقدمه ، قائلا :

- لن اغفر لنفسى مدى الحياة تلك الخطيئة التى ارتكبتها حين
عدنا الى القلعة . لقد قصصت على بتشورين كل ما سمعته من
وراء السياج . فآخذ يضحك - هذا الماكر - ولكنه كان قد
بيت أمرا ..
- ماذا بيت من أمر ؟ .. أرجوك أن تقص على ذلك !

- ما دمت قد بدأت ، فيجب ان أستمر . وصل الينا عزم
بعد انقضاء أربعة أيام على ذلك الحادث . وعلى عادته ، دخل الى
بتشورين الذى كان يهدى اليه شيئا من الحلوى دائما ، وكنت
سامتئذ هناك ، فدار الحديث عن الخيل . وأخذ بتشورين يكيل
المديح لحصان كازبتش ، قائلا انه نشيط وشيق كالغزال ، وليس
فى الدنيا كلها حصان يدانيه .

كانت عينا الفتى التترى تلتمع . ولكن لم يبد على بتشورين انه
كان يلاحظ ذلك . وحاولت عينا ان اصرف الحديث الى شيء آخر ،
فكان بتشورين يرده دائما الى الكلام عن حصان كازبتش . واستمر
الحال على هذا المنوال ، فكلما جاء عزم الى القلعة دار الحديث عن
حصان كازبتش . ولاحظت بعد ثلاثة أسابيع ان الفتى صار ممتقع
اللون ، هزيل الجسم ، كالعشاق الذين تحدثنا عنهم الروايات . ولم

افهم من ذلك كله شيئا .. لأننى لم أدرك سر الأمر الا فيما بعد .
لقد أهاج بتشورين رغبة الفتى فى الحصان ، حتى أصبح الفتى
قادرا على أن يقذف بنفسه الى الماء .. وقال له بتشورين يوما :
— انتى ارى ، يا عزمت ، ان هذا الحصان يعجبك كثيرا ..
والحق انك ان تراه أكثر مما تستطيع ان ترى عنقك! ولكن قل لى ،
ماذا تعطى لمن يهدى اليك هذا الحصان ؟ ..

قال عزمت : كل ما يريد ..
— سوف اعطيك هذا الحصان اذن . ولكن على شرط : ان تحلف
انك ستحقق هذا الشرط ..
— حلفت ... احلف انت أيضا .

— ليكن ما تريد . احلف ان الحصان سيكون لك .. اذا سلمتنى
أختك بيلا : ان كاراخيز هو مهرها . هل تعجبك الصفقة ؟ ..
وصمت عزمت ..

— الا تريد ؟ لك ما تشاء . كنت احسبك رجلا ، ولكننى ارى
الآن انك ما زلت طفلا . انت اصغر سنا من ان تمتطى صهوة جواد.
واحمر عزمت ، ثم قال : وائى ؟ ..
— الا يقيب عن البيت ابدا ؟ ..

— يقيب ...
— هل توافق ؟ ..

فقال عزمت ، وقد امتقع لونه حتى صار كالليت :

— اوافق ، ومتى تريد ذلك ؟ ..
— متى سيגיע كازيتش . لقد وعدنا ان ياتينا بعشرة خراف .
الباقى على . ولكن لا تنس وعدك يا عزمت !
وهكذا تمت الصفقة ... يا لها من صفقة وضيعة ذميعة .
صارحت بتشورين بذلك فيما بعد ، ولكنه اكتفى بأن قال : ينبغي
لهذه الشركسية المتوحشة الصغيرة ان تعد نفسها سعيدة بالزواج
من رجل مهذب مثلى . (لاحظ ان بتشورين سعيد زوجها رغم
كل شيء) . ثم ان كازيتش لص تجب معاقبته بما يستحق أن
يعاقب به . قل لى بريك : كيف يمكننى ان اجيب عن هذا الكلام ؟
فقد كنت فى ذلك الحين اجهل كل شيء عن المؤامرة التى بيتها .
وفى ذات يوم جاء كازيتش يسألنى : هل بنسا حاجة الى خراف
وعسل ؟ .. فأمرته ان ياتينا بالخراف والعسل غدا .

وبادر بتشورين فأبلغ عزمت النبأ . قال له :

— سيكون كاراخيز غدا في حوزتى . فاذا لم تجئنى بأختك هذا
المساء ، فلن ترى الحصان ...

فاجابه عزمته بقوله : نعم ...
ومضى الى القرية عدوا .

وفي المساء تناول بثشورين أسلحته وخرج من القلعة . اما كيف
اثيرا على هذا كله ، فذلك ما اجهله . المهم انهما عادا الى القلعة
فى الليل معا ورأى الخفير على سرج عزمته امرأة شدد ذراعاها
وساقاها بوثاق ، واسدل على وجهها حجاب .
فسالت الرئيس قائلا : والحصان ؟ ..

— انتظر لحظة ، فقد وصلنا الى الحديث عن الحصان . فى
البكرة من صباح الغد وصل كازيتش يسوق امامه عشرة خراف
يريد أن يبيعها ، فربط حصانه عند السياج ودخل على . فقدمت
له قدحا من الشاي ، فهو — على انه من قطاع الطريق — صديقى .
وتجاذبنا أطراف الحديث فى أمور شتى ... وفجأة رأيت برتقفيه
وتبدل وجهه . ويقفز الى النافذة . كانت النافذة لسوء الحظ ،
تطل على الباحة الخلفية .
قلت له : ما بك ؟ ..

قال وهو يرتعد : حصانى ! .. حصانى ! ..
وسمعت وقع الحوافر حقا .

— لاشك ان أحد القوزاق يصل الى القلعة .

فزار يقول : لا ! .. « أوريوس يامان ، يامان ! » * .

ثم وثب الى خارج الغرفة كالفهد ، وبقتزين صار بالباحة .
وسد الخفير عليه باب القلعة ببندقيته ، ولكنه قفز فوقها وأخذ
يركض فى الطريق ، فرأى عزمته يعدو بالحصان القوى الجبار
كاراخيز وسط عاصفة من العجاج ، وقد ابتعد كثيرا . فلم يتمهل ،
بل صوب ببندقيته وأطلق النار . وتوقف لحظة فعرف أن رصاصته
أخطأت الهدف ، فأطلق صرخة حادة وحطم ببندقيته على صخرة ،
والقى بنفسه على الأرض ينتحب كالطفل .. وهرع رجال القلعة ،
وتحلقوا حوله ، ولكنه لم ير أحدا . وأخذوا يعلقون على الحادث ،
ثم قفلوا راجعين . وأمرت بأن يوضع ثمن الخراف لكازيتش الى
جانبه . قلم يمه ! كان مستلقيا على الأرض كالميت ، وقد تمرغ
وجهه بالتراب . وصدقنى اذا قلت لك : انه ظل على هذا الحال

* روسى ، حقير ، حقير !

طوال الليل ، حتى اذا طلع الصباح ، عاد الى القلعة يسأل ان يسمى له الشخص الذى خطف الحصان . وكان الخفير قد رأى عزمت يترك وثاق الحصان ثم يمضى به عدوا ، فلم يجد من الضروري أن يخفى عنه اسمه . فلما سمع كازبتش اسم عزمت ، طار الشر من عينيه ، واتجه نحو القرية التى يعيش فيها أبو عزمت .

— ثم ماذا ؟ ..
— انه لم يجد الأب فى البيت ، فلقد سافر الأب ، وسيغيب ستة أيام والأفهل كان يتاح لعزمت أن يقتاد اخته ؟ ..
ولما عاد الأب من رحلته لم يجد ابنته ولا ابنه . كان عزمت يقدر عاقبة عمله ، ويعرف ان ما فعله يمكن أن يكون جزاؤه الموت . ولم ير أحد عزمت بعد ذلك . لعله التحق بعصابة من الإبريك ، ثم هلك فى مكان ما وراء التريك أو الكويان ... نهاية يستحقها ...
اعترف ان ذلك كله أزعجني كثيرا . وحين علمت أن الشركسية عند بتشورين ، وضعت شارة رتبتي العسكرية على كتفي ، وتناولت سيفي ، وذهبت اليه .

كان مستلقيا على سريريه فى الغرفة الاولى ، وقد وضع احدي يديه تحت عنقه ، وامسك بالآخرى غليونه النطفي . وكان باب الحجرة الثانية مفلقا ، والمفتاح ليس على القفل . رايت هذا كله بلمحة واحدة .. واخذت أسعل وأضرب نعلي بالأرض ، ولكنه تظاهر بأنه لا يسمع . فقلت بلهجة صارمة :

— أيها السيد الملازم الثانى ، ألا ترى اننى هنا ؟ ..
— ها .. أهلا وسهلا مكسيم مكسيمتش ! .. هل تريد غليوننا ؟
قال ذلك دون أن ينهض .
— عفوا .. لست مكسيم مكسيمتش ، أنا رئيسك !

— سيان .. هل تريد قدحا من الشاي ؟ ليتك تعرف الامر الذى يعذبني ويرهقني .

قلت وأنا اقترب من السرير : أعرف كل شيء .
— حسن انك تعرف كل شيء ، ذلك ان مزاجي لايساعدني الآن على الكلام .

— أيها السيد الملازم الثانى ، لقد اقترفت عملا ربما سئلت عنه أنا أيضا ..

— دعك من هذا الكلام ! ألم نتعود ان نتقاسم كل شيء ؟

— كفالك مزاحا ، سلمني سيفك من فضلك ! ..

- ميتكا ، هات السيف ! ..
 وجاءني ميتكا بالسيف . فلما فرغت من واجبي على هذه الصورة
 جلست على السرير وقلت :
 - اسمع يا جريجورى الكسندروفتش ، اعترف بأن ما فعلته
 اساءة ! ..
 - أى اساءة تعنى ؟ ..
 - انك خطفت بيلا ! لاشك أنه ذلك الوغد عزمت ! هيا ، اعترف .
 - ولكنها تمجبنى ! ..
 ماعسى أن أجيب عن هذا الكلام ؟ لقد صمت ، ولكننى قلت
 بعد لحظة : اذا طلبها أبوها فيجب أن تردها اليه .
 - لا ! لا يجب .
 - لكنه سيعرف أخيرا أنها هنا ؟ ..
 - وكيف يمكن أن يعرف ذلك ؟ ..
 ومرة أخرى ، لم أجد ما أجيب به على كلامه . فقال بتشورين
 وهو ينتصب قائما :
 - اسمع يامكسيم مكسيمتش ، انت رجل شهم ، واذا نحن
 رددنا الفتاة الى ذلك المتوحش فسيقتلها أو يبيعها . ما وقع قد
 وقع . وانما ينبغي الآن الا نفسد كل شيء سدى . دمها عندى ،
 واحتفظ بسيفي .
 - أرنيها على الأقل .
 - انها وراء هذا الباب . ولكننى عشنا حاولت أن أراها اليوم .
 انها قابعة فى ركن من أركان الحجرة . وقد أسدلت عليها حجابها .
 انها لا تتكلم ، ولا تنظر الى احد . انها كثيرة الخوف كالفرال .
 لقد دعوت صاحبة الدكان الى خدمتى اليوم ، فهى تعرف اللغة
 التترية ، وسوف تعنى بالفتاة ، وتعودها على فكرة انها لى . ذلك
 انها لن تكون لأحد غيرى .
 قال تلك الجملة الاخيرة وهو يضرب المنضدة بقبضة يده .
 وافقت على كل شيء ، وهل يمكن أن أفعل غير ذلك ؟ .. ان
 هناك اشخاصا يضطر المرء دائما الى الموافقة على ما يريدون .
 قلت لمكسيم مكسيمتش :
 - وبعد ذلك ؟ .. هل استطاع أن يروضها وأن يجعلها انيسة
 او انها ضوت فى سجنها حينئذ ؟ ..
 - حينئذ ؟ دعك من هذا الكلام ! لقد كانت ترى ، وهى فى قلعتنا ،

الجبال التي كانت تراها وهي في قريتها . وهل يحتاج هؤلاء المتوحشون الى أكثر من ذلك ؟ وكان بتشورين يقدم إليها في كل يوم هدية جديدة . فكانت في أول الامر ترفض الهدايا صامتة متكبرة . واستفادت من ذلك كله المرأة التي عهد إليها بخدمتها ، فازدادت من ذلك فصاحة وبلاغة . آه من الهدايا كم تفعل في النساء ! أي شيء ترفض المرأة أن تفعله من أجل خرقه ملونة ؟ ! .. ولكن دعنا من هذا الآن . لقد تعب بتشورين كثيرا . وكان يتعلم اللغة التترية أثناء ذلك ، وبدأت هي تفهم اللغة الروسية . وتعودت شيئا فشيئا أن تنظر اليه ، فكانت تنظر اليه في أول الامر من تحت ، ثم أصبحت تنظر اليه بعد ذلك من جانب . ولكنها ظلت حزينة كاسفة البال ، وكانت تضني بصوت خافت ، حتى أن السكابة كانت تتسرب الى نفسى انا أيضا ، حين أسمع غناءها من الغرفة المجاورة .. وشهدت ذات يوم منظرا لن انساها مدى الحياة : مرت قريبا من النافذة فالتقيت نظرة على الحجرة ، فرأيت بيلا جالسة على فراش ، وقد أطرقت برأسها ، ورأيت بتشورين واقفا أمامها يقول :

— اسمعى يا عزيزتى ! ألا تعرفين أنك ستكونين لى عاجلا أو آجلا ؟ فلماذا تعذبينى إذن ؟ أم أنك تحبين أحدا من التشتشينيين ؟ إذا كان الامر كذلك تركتك تذهبين الى بيتك قورا . (وهنا ارتعشت ارتعاشة لا تكاد ترى ، وهزت رأسها بالانكار) . أم تراك تكرهينى وتشمززين منى ؟ (وهنا تنهدت) . أم أن دينك يمنعك أن تجيبى ؟ (وهنا أصفر وجهها ، وظلت صامتة) . صدقى ما أقوله لك . أن الله هو رب جميع الشعوب ، وكيف يسمح لى أن أحبك ثم لا يسمح لك أن تبادلينى حبا بحب ؟

فنظرت اليه مليا ، كان هذه الفكرة قد أثرت فيها . وكانت عيناها تعبران فى آن واحد ، عن الشك قيما يقول ، والرغبة فى تصديق ما يقول ، يا لهاتين العينتين ؟ اتها قلتعمان كجمرتين . وأردف بتشورين يقول :

— اسمعى يا بيلا . أنك ترين كم أحبك . وانى قادر على أن افعل كل شيء من أجل أن تكونى سعيدة . أريد أن تكونى سعيدة . فان عاد اليك الحزن ، مت من ذلك فما . عدينى بأنك ستكونين مرحة كانت بيلا تفكر دون أن تنفصل عيناها السوداوان عن عيني بتشورين ، ثم أفتر ففرها عن ابتسامة رقيقة ، وهزت رأسها بنعم . فتناول بتشورين يدها وأراد أن يقنعها بتقبيلها ، فتمتمعت بضعف ،

واكتفت بأن تكرر قولها : « لا ، لا ، دعنى » . وألح بتشورين .
فأخذت ترتعش وتبكي ، ثم قالت : « اننى أسيرتك ، أنا عبدتك ،
وتستطيع أن تحملنى على ما تشاء » ، وأجهشت تبكى مرة أخرى .
فضرب بتشورين جبينه بيده ، ومضى الى الحجرة الأخرى . فدخلت
عليه ، فرايته يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد شسبك يديه ،
واكفهر وجهه .

— ما بك يا صديقى ؟ ..

— ان هذه المرأة لشیطان ، ولكنها ستكون لى ، أقسم على ذلك
فلما هزئت رأسى منكرا ، قال :

— هل تراهن ؟ .. ستكون لى بعد أسبوع !

— أراهن ..

وتراهنا ، ثم خرجت ..

وفى الغداة أسرع بتشورين ، فابتاع من كزليار أنواعا كثيرة من
النسيج الفارسى ، لا يستطيع أن أحصى عددها ..

وقال لى ، وهو يعرض على هذه الأشياء كلها :

— هل تستطيع هذه الحسناء الشرقية أن تقاوم اغراء كهذا ؟ ..
أجبت قائلا :

— أنك لا تعرف الشركسيات . شتان بينهما وبين الجرجيات ،

أو تتربات القفقاس ، شتان . ان لهن لقواعد فى السلوك أخرى ،

وقد نشأن على تربية أخرى .

فابتسم بتشورين ، وأخذ بصفر معزوفة عسكرية .

كنت على حق : ان الهدايا لم تؤثر فيها الا نصف تأثير : لقد

غدت أرق حاشية ، وأكثر ثقة .. هذا كل شيء . فعزم بتشورين

على اللجوء الى وسيلة أخيرة . ففى ذات صباح ، أخرج حصانه ،

وارتدى لباسا شركسيا ، وحمل أسلحته ، وجاء اليها يقول :

— بيلا ، أنك لترين كم أحبك . ولقد اختطفتك لامتقادى بأنك

ستحبيننى متى عرفتنى . والآن أدرك اننى أخطأت التقدير ،

فوداعا . كل ما أملك فهو لك . وتستطيعين أن تعودى الى أبيك ،

إذا أحببت ذلك : أنت طليقة . لقد أسأت اليك ، وأريد الآن أن

أعاقب نفسى ، وداعا . اننى ذاهب . الى أين ؟ لا أدرى ! وقد لا

انتظر طويلا الرصاصة أو الطعنة التى تحيلنى جيئة هائدة .

اذكرينى ، واغفرى لى .

قال هذا ، ثم استدار ومد اليها يده مودعا . فلم تتناول بيلا

يده ، ولزمت الصمت . كنت وراء الباب ، وكنت أنظر من أحد شقوقه فأرى وجهها . لقد أشققت عليها ، ورثيت لحالها . كان وجهها اللطيف شاحبا شحوب الموتى . فلما رأى بتشورين انها لا تجيبه ، اتجه نحو الباب بضع خطوات . كان يرتجف . وأؤكد لك أنه كان قادرا على أن يفعل حقا ما قد زعمه مازحا : انه كذلك ولكن ما كاد يلامس الباب حتى وثبت اليه بيلا وارتمت على عنقه ، تجهش بالبكاء . هل تصدق ذلك ؟ .. وبكيت أنا أيضا وراء الباب ... ما كان أغباني !

وصمت الرئيس ، ثم أردف يقول وهو يقتل شاربه :
- يجب أن أعترف لك اننى حزنت على نفسى أشد الحزن ، اذ رأيت اننى ما احتننى امرأة فى حياتى مثل هذا الحب .
قلت : وهل دامت سعادتهما مدة طويلة ؟ ..

- نعم ، لقد اعترفت لنا بأنها منذ رات بتشورين اول مرة أصبحت تراه فى أحلامها ، وانها ما من رجل اثر فى نفسها مثلما اثر فيها بتشورين . نعم .. لقد سعد كل منهما بصاحبه ! ..
قلت على غير ارادة منى : يا لها من خاتمة باهتة ! كنت اتوقع أن تنحل العقدة بفاجعة ، وها قدخاب ظنى . ولكننى أردفت أقول :
- وهل يعقل أن أباه لم يشتبه فى أن ابنته عندكم بالقلعة ؟ ..
- أعتقد أن هذه الظنون قد راودته . ولكننا علمنا بعد الاختطاف ببضعة أيام انه قتل . واليك ظروف قتله ..
وعاد اهتمامى بالقصة فانتعش .. قال الرئيس :

- يجب أن أذكر لك ان كازيتش اعتقد أن عزمت سرق الحصان بموافقة أبيه . هذا ما أقدره أنا على الاقل . وفى ذات يوم تربص بالآب فى الطريق ، على مسافة ثلاثة فرسات من القرية . وكان الآب عائدا الى قريته بعد أن ظل يبحث عن ابنته فى كل مكان دون أن يظفر ببائل . وكان رجاله بعيدين وراءه . وكان حصانه يسير الهوينى ، وقد استغرق الرجل فى التفكير . فخرج كازيتش من أحد الأدغال ، ووثب الى ردف الحصان كالحمر ، ورمى المعجوز على الارض بطمعته من خنجره ، واستلم ازمة الحصان ، وولى هاربا . ولقد رأى بعض رجال الأمير ما وقع ، فاندفعوا فى اثر القاتل يطاردونه ولكنهم لم يستطيعوا أن يدركوه .

قلت محاولا أن أعرف رأى الرئيس :
- وهكذا عوض خسارته ، وانتقم لنفسه ، أليس كذلك ؟

— كان سلوكه من وجهة نظرهم سليما لا غبار عليه .
ولم يسعنى الا أن ادهش للروس كيف يتلاءمون بسرعة مع عادات
الشعوب التى يضطرون الى الحياة بينها . ولست أدري أهذا جدير
بالدم أم بالمذبح . ولكننى لا أشك فى انه يدل على مرونة نفسية
عظيمة ، ويكشف من حسن سليم يغفر الشر متى رأى ضرورة لذلك ،
أو متى رأى ان تحطيمه مستحيل .

وكنا قد شربنا الشاي اثناء ذلك . وكانت خيولنا التى ربطناها
منذ مدة طويلة فى الثلج ترتعد فرائصها . وكان القمر يشحب فى
جهة الغرب من السماء ، ويهم أن يدخل فى الغيوم السوداء المعلقة
على الذرى البعيدة كأنها مزق من ستارة مشققة . وخرجنا . فاذا
الجو مشرق رغم تنبؤات رقيقى ، وكل شيء يبشر بصباح جميل .
كانت النجوم التى تطوف فى الافق البعيد ، تنتشر كأنها زخارف
رائعة ، ولكنها كانت تنطفئ واحدة بعد أخرى على قدر ما كان
الضوء الشاحب الأنى من الشرق يحتاج السماء ، يصبغها بلون
بنفسجى قائم ، وينير منحدرات الجبال الوعرة المغطاة بالثلج البكر ،
شيئا فشيئا . وكانت تلوح ذات اليمين وذات الشمال مهاو حزينة
خفية ، كأنها بقع سوداء ، وكان الضباب الذى يتلف ثم ينتشر كأنه
الافاقى ، يزحف نحوها فى الاخاديد الكبيرة بين الصخور المتجاورة ،
كانه يشعر باقتراب النهار ويخشاه .

كان كل ما فى السماء وما فى الأرض هادئا كقلب الانسان ساعة
الصلاة فى الصباح . غير أن ريحا باردة متقطعة كانت تهب من الشرق
تنقش أعراف خيولنا المغطاة بالصقيع . وسرنا . كانت الخيول
الخمسة الضعيفة الهزيلة تجد كثيرا من العناء فى جر عربتنا على
هذا الطريق المتعرج الذى يؤدى الى جبل الجود . فكنا نسير على
الاقدام ، ونسند العجلات بالحجارة حين تعجز الخيل عن مواصلة
السير . لكان هذا الطريق يؤدى الى السماء ، فلقد كانت صاعدة
على مدى البصر كله الى أن تقيب فى السحاب الذى امتد على جبل
الجود منذ مساء أمس ، كأنه حداة تتربص بغريستها . كان الثلج
يصر تحت أقدامنا . وكان الهواء من الخفة بحيث يصعب التنفس .
فكان الدم يصعد الى رءوسنا فى كل لحظة . غير أن شيئا من
الارتياح كان يسرى فى عروقى ، وكنت أشعر بشيء من الفرح لأننى
بلغت هذا المبلغ من العلو فوق العالم . وانى لأعترف بأن هذا الشعور
شعور طفل ولكن الانسان حين يبتعد عن المواضع الاجتماعية

ويقترّب من الطبيعة يغدو طفلا رغم انّفه . فالتنفس تتحرّر من المعاني
التي اكتسبتها ، وتعود الى ما كانت عليه سابقا ، وما قد تصير
اليه يوما ما . ان من سيتاح له ، كما أتيج لى أن يجتاز الجبال
المنعزلة ، وأن يتأمل مناظرها الساحرة طويلا ، وأن يتنشّق
هواء الفجاج المنعش في نهم ، سيفهم من غير شك رغبتى هذه في
الحديث من تلك المشاهد الخلابة وفي وصفها والكلام عليها .

ووصلنا أخيرا الى قمة جبل الجود ، فتوقفتنا نسرّح أبصارنا
حولنا . ان سحابة رمادية تحلق في الجو ، وتذر أنسامها بان
عاصفة ستهب بعد قليل . غير ان ما يسطع به المشرق من ذهب
وضياء أنسانا كلينا وجود السحابة ، نعم .. حتى الرئيس نسي
وجود السحابة . ان القلوب البسيطة تحس بعظمة الطبيعة احساسا
اقوى واعنف مائة مرة من احساسنا بها نحن الذين نتحمس كثيرا
في الكلام وعلى الورق .

قلت لصاحبي : لاشك انك معتاد على هذه المناظر الرائعة ؟
— نعم ، ان المرء ليتعود حتى على أزيز الرصاص ، او قل على
اخفاء ضربات قلبه الذي يدق على غير ارادة منه .
— ولكنني سمعت من بعض قدماء الجنود ان لهذه الموسيقى فنتتها .
— نعم .. انها ممتعة ، بمعنى واحد من المعاني ، وهو ان ضربات
القلب تزداد قوة .

ثم أشار الى المشرق وأضاف يقول :
— انظر ما أجمل هذا البلد !

حقا انه لمنظر رائع ، ما أظن اننى ستتاح لى رؤية مثله . كان
تحتنا وادى كويشاعورى ، يمر به كخيطين من الفضّة ، نهر
أرغافا ونهر آخر ، ويزحف فوقه بخار أزرق يتجه نحو الفجاج
الجاورة كأنه يريد أن يحتّمى بها من أشعة الصباح الدافئة . وذات
اليمين وذات الشمال ذرى ما تنفك في صعود ، تتصالب وتتطاوّل
ويضمّرها الثلج ، ويغطيها النبات . وفي البعد تبدو الجبال هي
نفسها ، بيد أنه ما من صخرة فيها تشبه الأخرى . وهذه الثلوج
كلها تلتصق بضياء كأنه الغضة المذهبة ، ضياء فوح نير تراه العين
فيحب المرء أن يقضى في هذا المكان حياته كلها . وكانت الشمس
تهم ان تشرق من وراء جبل أزرق قائم لا تفرقه عن السحابة الا
عين بصيرة متمرسة . ولكن خطا داميا كان يعتد فوق الشمس ،
رآه صاحبي فقال :

— لقد كنت على حق . سيكون الجو ردينا هذا اليوم . يجب أن نفلد السير ، والا فوجئنا بالعاصفة على كرستوفايا ... قال ذلك ثم هتف بالسائقين : هلموا ! ..

ووضعت السلاسل على العجلات لتكون مكبحا يمنعها من الانزلاق السريع ، وامسك السائقان بأزمة الخيل ، وبدأ الانحدار . كان على يميننا صخرة وعلى شمالنا فج تبدو لنا منه القرية الاوسيتية التي تقع في آخره ، كأنها عش من أعشاش السنونو . وارتعدت حين تصورت أن هذا الطريق الذي لا يمكن أن تتلاقى فيه عربتان يمر فيه البريد تحت جناح الليل ، عشر مرات في السنة ، حتى دون أن ينزل من عربته المرتجة . كان أحد سائقينا روسيا ، فلاحا من ياروسلاف ، والآخر اوسيتيا . وكان الاوسيتي يقود حصان مجر العجلة بالزمام ، ويحترز ويحتاط كثيرا ، بعد أن حل أحصنة العارض . أما صاحبنا الروسي فكان لا يبالي ، حتى أنه لم يفادر مقعده في العربة ! حتى إذا نهته الى أنه يستطيع في أقل تقدير ، أن يهتم بحقيبتي التي لا أريد أبدا أن أمضى الى قساع الهوة لالتقاطها متى سقطت ، أجابني بقوله : « هون عليك ياسيدي ، سنصل باذن الله سالمين ! ولنسنا نقوم بهذه الرحلة أول مرة ! » . لقد كان على حق : كان يمكن الانصل ، ولكننا وصلنا مع ذلك . ألايت الناس يبذلون مزيدا من الجهد في التفكير ، إذن لأدركوا أن الحياة لا تستحق أن نفنى بها كل هذه العناية ...

لعلكم تريدون أن تعرفوا خاتمة قصة بيلا ! ولكنني لا أكتب الآن قصة ، وإنما أسجل مذكرات رحلة ، ولا أستطيع أن أحمل الرئيس على متابعة قصته قبل أن يريد هو ذلك . فتحملوا إذن بالصبر ، أو فاقبلوا بضع صفحات اذا شئتم . ولكنني لا أنصح لكم بهذا ، لأن قصة مروونا بكرستوفايا (أو جبل سان كرستوف ، كما أسماها الحكيم جامبا) جذيرة باهتمامكم ..

لقد هبطنا إذن من جبل الجود الى وادي تشرتوفا .. ان الاسم لرومانسى ! لاشك انكم تتصورون مقارة روح الشر بين هذه الصخور التي لا يمكن الوصول اليها ! ولكنكم مخطئون . ان كلمة تشرتوفا مشتقة من « تشرتا » (بمعنى خط) لا من « تشورت » (بمعنى شيطان) ، فما هنا كانت حدود جورجيا في القديم . ان الوادي مليء بالثلج ، حتى ليذكر كثيرا بسلاتفوف ، وقامبوف وغيرهما من الامكنة الفاتنة في وطننا .

حين وصلنا الى وادى تشرتوقا ، قال الرئيس وهو يشير الى ذروة يغطيها الثلج : هذه كوستوفايا .

ان صليبا من الحجر يلوح اسود في ذروتها التي يؤدي اليها طريق لا يكاد يرى ولا يسير فيه السائرون ؛ لا حين يتكاثر الثلج ، فيتعذر السير في الطريق الجانبي . وقال السائقان ان الثلوج لم يبدأ تهافتها من الجبل بعد ، ودار بنا حول كوستوفايا ، مراعاة للخيل ، فما ان سرنا في الطريق قليلا حتى التقينا بخمسة اوسيتيين عرضوا علينا خدماتهم وتعلقوا بالمجلات ، وراحوا يجرون عرباتنا ويقومونها ، وهم يصرخون . لاشك ان الطريق لم تكن خالية من الخطر . كنا نرى على يميننا اكوما من الثلج منتصبة فوق رءوسنا ، تهم ان تهافت في الفج عند اول نسمة تهب . وكان الثلج يغطي بعض اجزاء الطريق الضيق ، يتهاوى تحت اقدامنا في بعض المواضع ، وقد اذابته اشعة الشمس في مواضع اخرى فاستحال الى جليد في ليالى الصقيع . فكنا لا نتقدم نحن ايضا الا في كثير من العناء . والخيل

تقع من حين الى حين . وكان الى شمالنا صدع عميق فافر يجري فيه سيل يختبئ تحت قشرة من الثلج تارة ، ويتوالت مزبدا على الصخور السوداء تارة اخرى . انفقنا ساعتين حتى درنا حول كوستوفايا ساعتين من اجل فرستين . وفي اثناء ذلك هبطت السحب واخذت البرد والثلج يهطلان واخذت الريح تفور في الفجاج وتزار وتصفر كأنها سولوفى رازبوينك * ، وسرعان ما غاب الصليب الحجري في الضباب الذى تتلاحق امواجه من الشرق ، وما تنفك تزداد كثافة وسرعة . . يجب ان اذكر عابرا ان هناك رابا تتناقله الاجيال بصدد هذا الصليب ، وهو ان الامبراطور بطرس الاول هو الذى نصبه في هذا المكان ابان رحلة قام بها الى القفقاس . ولكننا نعلم ان بطرس لم يذهب ابدا الى غير داغستان ، س لقد كتب على الصليب باحرف كبيرة انه نصب بامر الجنرال بيرمولوف عام ١٨٢٤ . ولكن هذا الراى كان راسخا في عقول الناس ، حتى ليحتمل المرء ماذا يصدق وماذا يكذب ، لاسيما واننا لم نتعود الركون الى صدق ما يكتب ..

بقى علينا ان نهبط ستة فرستات بين الصخور التى يغطيها الجليد وفي الثلج الموحد حتى نصل الى محطة كوبي . لقد أصبحت الخيل عاجزة عن مواصلة السير ، وكانت فرائصنا ترتعد وازدادت زمجرة

* «قاطع الطرق - ابليل» في الاساطير الروسية قائد مصابة قطاع الطرق الذى روع الركاب المارة بصفره

الامصار . ان هذه العاصفة تشبه عواصف الشمال ، ولكن نبراتها المتوحشة كانت اشد تاوها واعمق حزنا . خاطبتها بيني وبين نفسي : « وانت ايضا ايتها المنفية تبكين السهوب الواسعة ، السهوب التي لا يحدها حد ، حيث تستطيع اجنحتك الباردة ان تنتشر ما شاء لها الانتشار ! اما هنا فانت في مكان ضيق ، تختنقين كنسر سجين يلطم قضبان الحديد من قفصه صارخا » .
قال الرئيس :

— ان الجو رديء . انظر من حولك . اننا لا نرى الا ضبابا وثلجا ، وقد نهوى في منحدر أو أن نخسف في حفرة . ولاشك أن نهر بايدارا ، تحت ، يطفح بماء الفيضان ، حتى ليستحيل أن نجتازه . آه من هذه الأسيا التي لا يمكن أن يطمان فيها الى شيء ولا الى أحد !

وكان السائقان يضربان الخيل بالسياط صارخين شائمين ، والخيل تنخف وتحزن كأنها لا تريد أن تخطو خطوة واحدة بحال من الأحوال، رغم بلاغة ضربات الأسواط كلها. وقال أحد السائقين أخيرا :

— باصاحب النبالة لن نستطيع الوصول الى كوبي هذا المساء فهلا انعطفنا شمالا ما دام في الوقت متسع الى الآن ؟ هل ترى هناك على ذلك السفح شيئا أسود ؟ تلك بيوت يتوقف فيها المسافرون متى فاجأهم جو رديء . يقول هؤلاء الأوسيتيون أنهم يقودونكم الى ذلك المكان اذا منحتموهم معطاء .

قال الرئيس :

— أعرف ذلك يا عزيزي ، أعرفه بدون أن تقوله . انه ليسعد هؤلاء الخبثاء أن يبتزوا منا المعطاء تلو المعطاء .

فندخلت قائلا : يجب الاعتراف بأن حالتنا تسوء كثيرا لولاهم .
قدم الرئيس يقول :

— نعم ، نعم ، ان هؤلاء الناس يشمون ، نعم ، يشمون كل فرصة تسنح للاستفادة منا . كأننا لا نستطيع أن نهتدي الى الطريق بدونهم وانعطفنا شمالا ، فوصلنا الى الملجأ البائس في غير قليل من العناء ، هو بيتان بنيا بالبلاط والحصى ، واحيطا بجدار من هذه المواد نفسها .. وفيهما أناس يرتدون أسمالا بالية ، أستقبلونا بغير قليل من الترحيب والود . وقد عرفت فيما بعد أن الحكومة تاجرهم وتطعمهم على شرط أن يستقبلوا المسافرين الذين تباغتهم العاصفة . قلت وأنا اجلس امام النار :

— لابد لكل ما يحدث من نتيجة طيبة .. تستطيع هنا أن تكمل سرد قصة بيلا . فاني على يقين من أن القصة ما انتهت .

— ومن أين أتاك هذا اليقين ؟
قال الرئيس ذلك وهو يطرف عينه ويتسم ابتسامة متخابثة :
فاجبته : لأن هذا ليس من طبيعة الامور ، فالقصة التي تبدأ تلك البداية العجيبة لابد أن تنتهي بنهاية عجيبة كذلك .

— يمينًا لقد حُزرت .

— يسعدني أن أحزر .

— أما أنا فان ابقاظ هذه الذكريات يحزنني . كانت فتاة رائعة ، بيلا تلك . لقد ألفتها في نهاية الأمر ، فكنت أشعر نحوها شعور الأب نحو ابنته ، وكانت تحبني هي أيضا ! يجب أن أذكر لك أن ليس لي أسرة . فانا منذ اثنتي عشرة سنة لا أعرف شيئا عن أمي ولا عن أبي . ولم يخطر ببالي أن أتزوج حين كنت شابا ، وأحسب أن الاوان قد فات الآن . فأسعدني أن أجد شخصا أدله . كانت بيلا تغنينا وترقص لنا رقصة الليزغينكا . آه ماكان أجمل رقصها ! لقد سبق لي أن رأيت صبيانا في الأرياف ، بل لقد كنت ذات يوم في موسكو في حفل يضم التبلات منذ عشرين سنة ، ولكن ما شاهدته هناك من رقص لا يعد شيئا إذا قيس برقصها . وكان بتشورين يكسوها أجمل اللباس كأنها دمية من الدمي ، وكان يحيطها بالوان من الرعابة ، وبدللها ، وكانت تزداد رونقا وسناء . ما كان أروعها ! لقد زالت سبعة وجوها ويديها ، وتورد خداه .. وما أكثر ما كانت تضحك ! كانت لا تكف عن السخر مني ، تلك الشيطانة الصغيرة ، غفر الله لها ! ..

— ومتى أنباتموها بموت أبيها ؟

— كنمنا ذلك عنهما مدة طويلة الى أن تحسنت حالها . فلما صارحناها بالامر بكت يومين ثم نسيت .

انقضى على ذلك اربعة اشهر كانت تجري الامور خلالها على احسن حال . وكان بتشورين يحب الصيد (أظن انني ذكرت لك ذلك) . بكثير ما كانت تستبد به الرغبة في المضي الى القابة لمطاردة اليحمور والخنزير البري . ثم أصبح الآن يقضي وقته كله في القلعة لا يبارحها . ولكن هائلا أفاجه ذات يوم حللا مستغرقا في التفكير ، يلدغ غرفته جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه وراء ظهره . وفي يوم آخر مضى الى الصيد دون أن يغبر بذلك أحدا ، وظل غائبا من القلعة طوال

الضحى . وفعل ذلك مرة ثانية ، فثالثة ، ثم ما انفكت روحاته الى
الصيد تزداد . قلت فى نفسى : هذا نذير سوء فلا بد ان شيئاً
وقع بينهما .

ودخلت الى بيتهما ذات صباح . كانت بيلا جالسة على سريرها
يطلب من الحرير الأسود ، وقد بدا على وجهها من علامات الشحوب
والحزن ما أخافنى .. اننى لأتصورها الآن كأننى رأيتها أمس .
- أين يتشورين ؟ ..

- فى الصيد .

- ذهب هذا الصباح ؟

صمت كأنه يشق عليها كثيراً ان تجيب ، وقالت اخيراً وهى تزفر
زفرة طويلة : بل ذهب أمس .
- لعل شيئاً قد وقع له ؟

قالت وقد تفرقت فى عينيها الدموع :

- لازمتنى هذه الفكرة أمس ، النهار كله كنت أتصوره وقد
جرحه الخنزير البرى أو اختطفه الى الجبل أحد التشتشينيين ..
كنت أتخيل جميع المصائب . أما اليوم فأنا أعتقد انه أصبح لايجبى
- دعى عنك هذه الوسواس يا صغيرتى ، ما هذه الافكار ! وأخذت
تبكي . ثم ما لبثت ان رفعت رأسها بكبرياء ، وجففت دموعها ،
وأردفت تقول :

- اذا كان لايجبى فمن ذا الذى يمنعه من ردى الى بيتى ؟ هل
أكرهته على الاحتفاظ بى هنا ؟ .. اذا استمر الحال هكذا فساذهب
.. انا لست أمة له ، انا ابنة امير ! ..
وأجيب ان اهدئها فقلت :

- اسمعى يا بيلا ، انه لا يستطيع ان يبتى دائماً بين يديك . انه
شاب ، وهو يجب الصيد . ذهب وسيعود . واذا رآك دائماً
حزينة ، فلا شك ان هذا لن يلبث ان يضجره .

- نعم ، نعم ، أريد ان أكون مريحة !

قالت ذلك ، ثم ضحكت وتناولت طلبها ، وأخذت تفنى وترقص ،
وتثب حولى . ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فسرعان ما عادت فتهاوت
على سريرها وأخفت وجهها بيديها .

شعرت بارتباك شديد . اننى لم أكن قبل ذلك بامرأة ! وتساءلت
كيف أواسيها ، فلم يفتح الله على شىء . ودام ذلك لحظة طويلة .
صمتنا نحن الاثنين .. انه لموقف مزعج . وقلت لها اخيراً :

— هل تريد أن تقوم بجولة على السور ؟ ان الجو جميل جدا !
كان ذلك اليوم من أروع أيام سبتمبر (أيلول) ، فالسما صافية ،
والحرارة معتدلة . وكنا نستطيع أن نميز كل جبل من الجبال
بوضوح . ظللنا نتجول على السور جيئة وذهابا ، دون أن ينس
أحدنا بحرف . وأخيرا جلست هي على العشب ، فجلست إلى
جانبا . انى لأضحك كلما تذكرت ذلك الموقف : كنت لها كالوصيفة
كانت قلعتنا تقوم على قمة ، وكان المنظر الذي يرى من على
السور رائعا حقا ، فمن جهة نرى أرضا فسيحة طليقة يحددها
بعض الوديان ، ثم الغابة تمتد حتى ذروة الجبال ، ودخاننا يصعد
من القرية هنا وهناك ، وخيلا ترتدى . ومن جهة أخرى نرى نهرا
غير عميق تبدأ عنده أذغال مكتظة تغطي الاعالي الحجرية التي تمضي
إلى لقاء سلسلة القفقاس الكبرى . لقد جلسنا على الزاوية من نتوء
في الحصن بارز فكان ذلك يتيح لنا أن نرى كل ما قد يقع في
الجهتين . وأنا لفي ذلك ، إذ الملح رجلا يمتطي جوادا أشهب ،
يخرج من الغابة ويقترب حتى يصبح على مسافة من القلعة لا تتجاوز
مائة ذراع ، ثم يتوقف وراء النهر ، يلفت حصانه بحركة فيما يشبه
الجنون . ما معنى هذا ؟

— انظري يا بيلا بعينيك الفتيتين إلى هذا الفارس ترى ما جاء
يصنع هنا ؟ ..

فنظرت بيلا حيث أنظر ، وهفت : هذا كازيتش !

— آه من هذا اللص ، أهو يسخر منا ؟
وامعنت النظر ، فعرفت فيه حقا كازيتش ، بسحته الغبراء ،
ورأيت قلدا كما كان ، ورأيت ثيابه رثة خلقة كما كانت أيضا .

وصرخت بيلا وهي تمسك يدي : هذا حصان أبي .
وأخذت ترتعد ارتعاد ورقة من أوراق الشجر والتمعت حينها
بشر . قلت في نفسي : « ها ها .. أفانت أيضا أيتها الصغيرة
تجري في عروقتك دماء قطاع الطرق ! .. »
وناديت الخفير ، وقلت له :

— صوب بندقيتك واقتل لي ذلك الرجل الباسل هناك ، 131
أردت أن تبيع روبلا من فضة !

— أمرك مطاع يا صاحب النبالة ، ولكن الرجل لا يستقر في مكان
— قل له إذن أن يبدأ .
قلت ذلك ضاحكا .

وصاح الخفير وهو يحرك يده :

— أبها الصديق قف قليلا ، مالك تدور كما تدور الدوامة ؟
ووقف كازيتش ليصيح بسمعه . كان يحسب ان الخفير يريد
أن يحادثه طبعاً ! وسدد الجندي الممتاز بندقيته وأطلق النار .
طاشت الرصاصات . فما كاد يشتعل البارود حتى كان كازيتش قد
دفع حصانه وجعله يشب من جانب ، ثم اعتلى ركابه وصرخ ببعض
الكلام ورفع سوطه بحركة من يهدد ومضى لا يلوى على شيء .
قلت للخفير : ألا تخجل ؟ ..

فأجابني مبرراً فسله بقوله :

— لقد أقصدته ولكنه لم يسقط هنا وانما ذهب ليلقى مصرعه
في مكان آخر يا صاحب النبالة ، اذ لا سبيل الى قتل هؤلاء
الشياطين بضربة واحدة .

وعاد بتشورين من صيده بعد ربع ساعة . فوثبت بيلا الى عنقه
بلا شكوى ولا عتاب لفيابه الطويل .. أما أنا فكنت ساخطا عليه .

قلت : هل تعرف ان كازيتش كان هنا وراء النهر منذ بضع
دقائق ، واننا اطلقنا عليه النار ؟ كان يمكن ان يلقاك منذ برهة ،
وهؤلاء الجيليون لا ينقضي حقدهم . هل تظن انه لم يقدر انك
ساعدت عزمت ؟ وانى لأراهن على انه عرف اليوم بيلا . أنا أعرف
انها كانت تعجبه كثيرا منذ سنة . فلقد صارحنى هو نفسه بهذا
ولو كان يأمل بجمع مهر كاف ، اذن لطلب يدها ما في ذلك شك .

واستغرق بتشورين في التفكير ، ثم أجاب :

— نعم .. يجب ان تكون أشد حذرا يا بيلا ، لا تصعدى الى
السور بعد اليوم !

وفي تلك الليلة قام بينى وبينه حديث طويل . كان يؤلنى أن أرى
شعوره نحو هذه الفتاة البائسة قد تغير . لقد صار ينفق نصف
وقته في الصيد ، وفترت عاطفته وأصبح لا يحبها كما كان يحبها
من قبل . وكانت تهزل هزالا واضحا ، وشحب وجهها الصغير
كثيرا ، وفقدت عيناها ما فيهما من بريق .

فكنت أسألها في بعض الاحيان :

— لماذا تتنهدين يا بيلا .. أنت حزينة ؟ ..

— لا ...

— هل ترغبين في شيء ؟ ..

— لا ...

— هل بك حنين الى اهلك ؟ ..

— لم يبق لى اهل .

وكان يتفق أن ينقضى النهار بكامله لا يستطيع أن انتزع منها غير

« نعم » و « لا » .

وتحدثت فى هذا الى بتشورين فاجابنى بقوله :

— اسمع يامكسيم مكسيمتش : أن لى طبعاً وديناً لا ادرى هل

يعود ذلك الى تربيتى أو الى ان الله خلقنى هكذا . ولكننى أعرف

أننى ان كنت اسبب شقاء لغيرى ، فلست من ذلك فى سعادة وليس

فى هذا كبير عزاء لهم ، ولكن الامر هو ذاك . فى شبابى منذ تحررت

من وصاية أبوى أخذت أتمتع فى كثير من اللجاجة الصارمة بجميع

ما يمكن الوصول اليه بالمال من اللذات . وانهيت بطبيعة الحال

الى الاشتزاز من جميع تلك اللذات . ثم دخلت مجتمع الطبقة

الراقية ، ولكننى سرعان ما سئمت منه ووقعت فى فراق عدد من

حسناوات ذلك المجتمع ، ووقعن هن فى غرامى . ولكن هذا الفراق

ما كان يزيد على أن يذكى خيالى وحبى لنفسى ، أما قلبى فظل

خاوياً .. ومندئذ أخذت أقرأ وأتثقف . ولكننى نفرت من العلوم

أيضاً ، فقد رأيت أن المجد والسعادة لا يتوقفان عليها ، لأن أسعد

الناس جهلاء ، ولأن المجد رهن بالحظ ، ولا حاجة للمرء الا الى

البراعة اذا شاء الوصول اليه .. وغدوت ضجراً . ثم ما لبثت أن

أمرت بالرحيل الى القفقاس — تلك أسعد لحظة فى حياتى كنت أظن

أن الضجر لاسبيل له الى النفس تحت رصاص التششينيين :

ولكن ظنى أخطأ ، فما كاد ينقضى شهر واحد حتى ألفت أزيق

الرصاص ومجاورة الموت ، وصرت أهتم بذلك كله أقل مما أهتم

بطنين الذباب .. وغدوت أشد ضجراً مما كنت فى أى عهد مضى ،

لأننى فقدت هناك آخر أمل . وحين رأيت بيلاً فى غرفتى حين

وضعتها على ركبتى أول مرة وقبلت صفائرها السود ، شعرت —

ويالها من غباوة — أن القدر قد رحمنى ، فأرسل الى هذا الملاك ،

بنتشلىنى مما أنا فيه . لقد أخطأت الظن هذه المرة أيضاً : أن حب

هذه الصغيرة المتوحشة لا يفضل كثيراً حب سيدة كبيرة . فهذه

تزعجنى ببساطتها وسذاجتها مثلما تزعجنى تلك بتكلفها وتفندرها .

أننى لا أزال أحب بيلاً ، أن شئت . ولن أنسى لها لحظات كانت

عذبة حقاً ، وإنى قادر على أن أضحي بحياتى من أجلها . ولكن

البقاء الى جانبها يضجرنى . لا ادرى أنا أحقق أم أنا وغد . ولكن

هناك شيئاً لا مرأ فيه ، وهو أننى جدير بالشفقة ، ولعلنى أجدر

بها منها . ان لى نفسا افسدتها حياة المجتمع الراقى وخيالا قلقا ،
وقلبا لا يشبع من جوع . لا شوء يروينى . فسرعان ما آلف الالم
واللذة كليهما . وان وجودى ليزداد فراغا يوما بعد يوم . ولم يبق
لى الا مخرج واحد : السفر . وساسافر متى استطعت ذلك .
غير اننى لن اسافر الى اوربا ، وقانى الله شر ذلك . لن اسافر الى
امريكا ، الى جزيرة العرب ، الى الهند . وقد اقضى نحبى فى
الطريق ! ولكننى احسب ، على الأقل ، ان هذه السلوى الاخيرة
لا تنفد سريعا ، بفضل المواسف والطرق الوعرة .

واسترسل فى مثل هذا الكلام مدة طويلة ، ولقد رسمت اقواله
فى ذاكرتى ، لأننى ما سمعت قبل ذلك كلاما مثل هذا الكلام من
فتى فى سنه ، وارجو الله الا اسمع مثله طوال حياتى . . أمر لا يصدق
ولكن قل لى : انت الذى كنت فى العاصمة منذ مدة غير طويلة فيما
اظن ، هل كل الشباب هناك يشبهون هذا الشاب ؟

فأجبت بآن كثيرين يقولون ما يقول ، وربما كان بينهم من يقوله
صادقا ، وان زوال الافتتان هذا قد نشأ كسائر المودات فى أعلى
طبقات المجتمع ، ثم هبط الى ادناها حتى صار مبتدلا ، وان الذين
يشعرون اليوم بالضجر حقا أكثر من غيرهم يحاولون اخفاء هذا
الداء على أنه آفة وعيب .

ولم يفهم الرئيس هذه الامور المرهفة ، فhez رأسه وابتسم ابتسامة
متخابثة وهو يقول :

— لعل الفرنسيين هم الذين جملوا الضجر مودة ؟

— بل هم الانجليز .

— ها . . حقا لقد كان الانجليز دائما سكيرين مريدين ! . .

ولم استطع ان امتنع عن التفكير فى تلك السيدة الموسكوية التى
كانت تؤكد ان بايرون لم يكن الا سكيرا . ان الرئيس يعلم أكثر مما
تعلم تلك السيدة : فهو يريد ان يمتنع عن الشراب ، فلا عجب
ان أحاول ان يقنع نفسه بأن كل ما فى الدنيا من شرور مرده الى
السكر . واردف الرئيس يكمل سرد قصته بقوله :

— ولم يظهر كازيتش بعد ذلك . غير اننى (لا ادرى لماذا) ماكنت
استطيع ان اطرد من ذهنى هذه الفكرة ، وهى انه لم يجرى الى القلعة
عبثا ، وانه يدبر أمرا .

وفى ذات يوم أمر بتشورين على ان اصعبه الى صيد الخنزير
البرى . فرفضت فى أول الامر . . ألم أر فى حياتى خنزيرا برياً ؟

ولكنه استطاع أخيرا أن يجزئني الى ما أراد . فمضينا في الصباح بصحبنا خمسة جنود . وظللنا حتى الساعة العاشرة نجوس القصب والغابة دون أن نمثر على شيء . قلت له : « ألا نعود ؟ لماذا العناد ؟ لقد كتب علينا ألا يسعفنا اليوم حظ ! » ولكنه كان لا يريد أن يعود خاوى الوفاض ، رغم الحرارة والتعب .. هكذا خلق : إذا عزم على شيء ، لا يرجع عنه قيد أنملة . لاشك أن أمه قد أفسدته بالدلال في صغره .. وفي نحو الظهر ، وقفنا أخيرا على واحد من هذه الخزائير البرية اللعينة . وأطلقنا النار .. ولكن الخنزير كان قد ولى الادبار ، واعتصم بين أشجار القصب . كان الحظ يصر على ألا يواتينا في ذلك اليوم .. وبعدما استرحنا قليلا ، قفلنا راجعين . كنا نسير جنبا الى جنب صامتين ، وقد أرخينا الاعنة . وفيما نحن على وشك الوصول (غير أن بعض الأشجار كانت تخفى القلعة هنا) اذ نحن نسمع صوت رصاص ينطلق .. فتبادلنا النظر ، وراودتنا شبهة واحدة ، فعدونا نحو الجهة التي جاء منها الصوت . فرأينا الجنود يهرعون على السور جماعة ، ويشيرون الى شيء في السهل : أنه فارس يهرب سريعا ، ويحمل على سرجه شيئا أبيض ، فصرخ بتشورين صرخة حادة يحسده عليها أى تشتشينى ، وأستل بندقيته من جرابها ، وأندفع وراء الفارس ، وتبعته .

ومن حسن الحظ أن خيلنا لم تكن مكدودة من الصيد ، فكانت تنهب الارض نهبا ، فاذا المسافة بيننا وبين الفارس الهارب ما تنفك تتناقص .. وأخيرا عرفت أن الفارس هو كازيتش ، ولكننى لم أستطع أن أميز ما يحمل . فاندفعت بحصاننى حتى حاذيت يتشورين ، وصحت به : « هذا كازيتش » ، فنظر بتشورين الى ، وهز رأسه ، وجلد حصانه .

وأصبحنا من كازيتش على مرمى البندقية . عبثا يحاول أن يسرع . كان حصانه لا يتقدم الا في مشقة ، أما لأنه متعب ، وأما لأنه دون خيلنا . لاشك أنه تذكر في تلك اللحظة حصانه كاراخي .

ورأيت بتشورين يسدد اليه وهو يعدو .. فصحت به : « لا تطلق النار ، احتفظ بطلقتك ، فسندركه آ » آه من هؤلاء الشباب الذين يتحمسون حين لا تجب الحماسة ! .. وانطلقت الرصاصة ، فحطمت إحدى قدمي الحصان ، فما سار بضع قفزات بقوة اندفاعه ، حتى كبا ثم خر على ركبتيه . ووثب كازيتش على الارض ، فرأينا أنه يحمل بين ذراعيه امرأة يغطيها حجاب أبيض . انها بيلا . مسكينة

بيلا ! وصاح كازيتش يقول لنا بلغته كلاما لم نفهمه ، ثم أشهر على بيلا خنجره .. لم يبق من الوقت لحظة نضيها ، فاطلقت أنا النار تقديرا . اعتقد أن الرصاصة أصابته في كتفه ، لأن ذراعه ما لبثت أن سقطت .. فلما تبدد الدخان ، رأينا الحصان الجريح مجنحلا على الأرض ، ورأينا بيلا الى جانبه . أما كازيتش فكان قد ترك بندقيته ، وراح يتسلق إحدى الصخور متسللا بين الشوك كالهر . كنت أربغ في أن أسقطه ، ولكن وقتي لا يتسع لشحن بندقيتي . فوثبنا الى الأرض ، وهرعنا نحو بيلا . كانت المسكينة بلا حراك ، وكان الدم ينزف من جرحها غزيرا .. كان في وسع هذا الوغد أن يطمعنا في قلبها ، فينتهي كل شيء فورا .. ولكنه طمعنا في ظهرها ! أنها لطعنة لص من قطاع الطرق حقا !

كانت قد غابت عن وعينا ، فمزقنا حجابها ، وعصبنا جرحها بقوة . عبثا أغرق بتشورين شفتيها البادتين بقبلاته ، فما من شيء كان يمكن أن ينعشها .

وماد بتشورين الى سرجه ، فحملت اليه بيلا ووضعتها بين فؤاميه ، وقفلنا راجعين الى القلعة . وبعد بضع دقائق من صمت ، قال لي بتشورين : « اسمع يا مكسيم مكسيمتش ، اذا نحن سرنا بهذه الخطا البطيئة ، فلن نصل بها حية » ، فأجبته قائلا : « هذا صحيح » ، وأخذنا نعدو . كان ينتظرنا عند أبواب القلعة جمهور فقير . فحملنا بيلا في كثير من الاحتراز ، الى بيت بتشورين ، وأرسلنا نستدعي الطبيب . كان الطبيب سكران ، ولكنه جاء ، فأعلن بعد أن فحصها أنها لن تعيش أكثر من يوم واحد . كان مخطئا ...

قلت للرئيس وأنا اتناول يده بفرح لم استطع أن اكبحه :

— وهل شفيت ؟ ..

فأجابني قائلا :

— لا .. ولكن الطبيب كان مخطئا ، لأنها عاشت يومين لا يوما

واحدا ..

— ولكن كيف استطاع كازيتش أن يخطفها ؟ ..

— الامر بسيط : لقد تركت القلعة وذهبت الى النهر ، رغم أن

بتشورين منعها من ذلك . وكان الجو حارا . فجلست على صخرة ، وأغطست قدميها في الماء . فاقترب منها كازيتش خلسة ، فامسك بها ، وكمم فمها ، وحملها الى القابة ، فوثب بها الى حصانه ، ثم

ولى هاربيا . واخذت تصرخ ، فأطلق الخفراء صفارة الانذار ، وأطلقوا عليه الرصاص ، ولكنهم أخطأوه ، وفى أثناء ذلك وصلنا نحن ولكن لماذا أراد كازيتش أن يختطفها ؟

— لماذا ؟ ان هؤلاء الشراكسة رجال نهب وسلب ، لا يستطيعون أن يمتنعوا عن مد أيديهم الى أى شيء ، ولو كان غير ذى فائدة .. هذى طباعهم ، ولا يمكن تقويمها ! ثم ان بيلا تعجبه منذ مدة طويلة . — وماتت بيلا ؟ ..

— نعم بعد ان تأملت كثيرا ، وبعد ان أكلتنا كثيرا . ففى نحو الساعة العاشرة من المساء ، عاد اليها وعيها ، وكنا جالسين على حافة سريرها ، فما أن فتحت عينيها حتى نادى بتشورين . فأجابها وهو يمسك بيدها : « أنا هنا — جانيتشكا ! » (هذا بلغتهم كقولنا بلفتنا : « يا حبيبتى ») .

— ساموت ..
وحاولنا أن نهديء روعها ، فأكدنا ان الطبيب أقسم ان يعالجها . فهزت رأسها ، واستدارت الى جهة الجدار : كانت لا تريد أن تموت ! ..

وفى الليل اخذت تهذى . كان رأسها يحترق . وكانت تتناهبها أحيانا قشعريرة من الحمى ، تهز جسمها هزا قويا . وراحت تقول كلاما مضطربا عن أبيها وأخيها .. تريد أن ترى جبالها ، وأن تعود الى بيتها .. ثم تكلمت من بتشورين ، فكانت تناديه بارق الأسماء أو تعاتبه على أنه أصبح لا يحبها كما كان يحبها من قبل ..

وكان بتشورين يصفى اليها صامتا ، وقد وضع رأسه بين يديه . ولكن ما من دمة تفرقت فى عينيها خلال ذلك كله . لأنه كان عاجزا من البكاء ؟ لأنه كان يسيطر على نفسه ؟ لا أدرى . أما أنا فلم أر فى حياتى شيئا أجدر من هذا المشهد بالراء .

فلما طلع الصبح كانت لا تهذى . وظلت خلال ما يقرب من ساعة ، ساكنة ، شاحبة ، ضعيفة لا يكاد يرى المرء أنها تنففس . ثم شعرت انها أحسن حالا ، فأخذت تتكلم . ولكن هل تدري ماذا قالت ؟ ان فكرة كهذه لا يمكن أن تراود إلا شخصا يحتضر .. قالت انها تأسف على انها ليست مسيحية ، ذلك لان روحها وروح بتشورين لن تلتقيا فى العالم الآخر ، وان امرأة أخرى ستكون خليلته فى الجنة . فبدأ لى أن أنصرها قبل أن تموت ، فافترحت عليها

ذلك ، فنظرت الى مدة طويلة ، مترددة لا تستطيع أن تقول كلمة ..
ثم أجابت بقولها : « بل أموت على ديني الذي ولدت عليه . وانقضى
على هذا النحو نهار بكامله . ما أشد ما تغيرت في هذه الساعات
القليلة ؟ لقد تجوف خذاها الشاحبان ، واتسعت عيناها ، وجفت
شفثاتها .. كان ثمة ما يحرق جوفها ، كان في صدرها نارا حامية .

ثم جاء الليل . لم يغمض لنا جفن ، ولم نتركها لحظة واحدة .
كانت تتألم ألما هائلا ، وتئن ، وكانت متى هدا ألما قليلا ، تحاول
أن تقنع بتشورين بأنها أحسن حالا ، وتتوسل اليه أن يعضى الى
فراشه وينام . وكانت تلثم يده وتظل ممسكة بها . وفي الصباح
استبد بها الخوف من الموت ، فأخذت تضطرب ، وانتزعت ضمادها
فعاد الدم ينزف من جرحها ، فأعدنا تضعيد الجرح . فهدأت قليلا ،
وطلبت الى بتشورين أن يقبلها . فركع بتشورين الى جانب السرير ،
وانهض رأس المحتضرة ، والصق فمه بشفثتها اللتين أخذ البرد
يدب فيهما ، فأحاطت عنقه بذراعيها المرتجفتين ، كأنها تريد في
هذه القبلة أن تسلمه روحها .. لقد أحسنت بموتها صنما ! والا
كيف كانت تصبح لو هجرها بتشورين ، وهذا ما كان لابد أن يقع
في يوم من الايام ! ..

وفي صباح الغد ظلت هادئة ، صامئة ، طيبة ، رغم جميع لوزقات
طبيبنا ، وجميع جرعاته . قلت للطبيب : « ألم تقل أنها لن تعيش ؟
فما فائدة جميع هذه الادوية اذن ؟ » فأجابني بقوله : « لراحة
الضمير يا مكسيم مكسيمتش » ، نعم الضمير !
وبعد الظهر أخذت تتألم من العطش . ففتحنا النافذة ، ولكن
الجو كان في خارج الغرفة أشد حرارة . فوضعنا الى جانب سريرها
ثلجا ، فلم يجدوها ذلك شيئا . كنت أعلم ان هذا الظمأ الشديد
دليل على أن النهاية قد شارفت ، ونهيت بتشورين الى ذلك .
- أعطوني ماء .. أعطوني ماء ..

هذا ما كانت تقوله بصوت أجش وهي تنهض قليلا .
فتناول بتشورين من على المنضدة كأسا ملاء بالماء ،
وناولها إياه . فقطعت عيني يدي ، وأخذت أتلو دعاء لا أذكر الآن
ما هو .. نعم ، أيها السيد الطيب ، لقد رأيت قبل ذلك أناسا
يموتون في مستشفيات عسكرية أو في ساحة القتال . ولكن شتان .
ويجب أن اعترف لك أن مما زاد ألى أنها قبل موتها لم تذكر اسمي
مرة واحدة .. وكنت مع ذلك أحبها حب الأب لابنته ! .. ولكن

سامحها الله .. فما كان لها أن تذكرنى ساعة الموت ! ..
وشعرت براحة بعد أن شربت الماء . وما هى الا دقائق ثلاث حتى
كانت تلفظ أنفاسها الاخيرة .. وقربت من شفيتها مرآة فظلت المرأة
صافية .. فأخرجت بتشورين وذهبت به الى السور .. وظللنا
نمشى مدة طويلة جنباً الى جنب دون أن ينبس أحدا بكلمة . كان
وجهه لا يعبر عن شيء خاص . وشعرت من ذلك بشيء من الاسف
فلو كنت مكانه اذن لمت حسرة ! وجلس أخيراً على الأرض فى الظلام
وأخذ يخط شيئاً على الرمل بقطعة من الخشب . وأردت أنا -
على سبيل اللياقة فى حقيقة الامر - أن أواسيه ، فإذا هو يرفع
رأسه وينفجر ضاحكاً .. شعرت بقشعريرة فى ظهري ، ومضيت
أوصى بالتأبوت .

اعترف لك بأننى ما توليت الاهتمام بهذا الامر ، الا لاسلو وكان
هندي حرير ، فقطيت به التأبوت ، ثم زينته بشرائط كان بتشورين
أشترأها لها .

وفى الصباح من الغد دفناها عند ضفة الساقية وراء القلعة ،
قبر بعيد من المكان الذى جلست اليه آخر مرة . كانت أشجار
الأكاسيا والبيلسان تحيط بالقبر . وددت لو أغرس على قبرها
صليباً ، ولكننى لم أجروء أن أفعل لأنها ليست مسيحية على كل
حال ..

- وبتشورين ؟

- بتشورين ظل مريضاً مدة طويلة ، وهزل كثيراً ، هذا الفتى
المسكين . ولكننا لم نتحدث بعد ذلك من بيلا . كنت أعلم أن ذلك
يحز فى نفسه ، فعلام أتحدث أذن منها ؟ وبعد ثلاثة أشهر نقل الى
فوجى .. فسافر الى جورجيا ، ولم أره بعد ذلك .. وقيل لى
أخيراً أنه عاد الى روسيا ، ولكن لم يذكر فى البلاغات . ثم ان الأخبار
تصلنا متأخرة جداً .

وهنا اندفع فى كلام طويل لاينتهى عن انزعاجه من ان الانباء لا
تصل الا بعد سنة كاملة . لعله كان يريد أن يخنق ذكرياته الحزينة .
فتركته يتكلم دون أن أصفى اليه .

واستطعنا بعد ساعة أن نستأنف سيرنا ، فقد هدأت الزوينة ،
وصفا أديم السماء . وفى الطريق أدت الحديث مرة أخرى الى
بيلا وبتشورين .

قلت : ولا تعرف ماذا حل بكازيتش ؟

فقال : لا أعرف ماذا حل به . ولكننى سمعت أخيراً من يقول
ان هناك على طرفنا الايمن ، لدى شابوسغ * ، رجلاً مشهوراً اسمه
كازبتش يرتدى جلباباً احمر ويذهب ويحيى تحت وابل رصاصنا
دون ان يستحث خطاه ، حتى اذا مرت رصاصة على مقربة منه ،
حيهاها فى أدب . ولكننى لا أظن انه هو نفسه .

وافترقنا فى كوبي . فلقد ركبت عربة البريد ، ولم يستطع هو
أن يتبعنى لكثرة أعماله . وما كنا نظن اننا سنلتقى بعد ذلك .
ولكننا التقينا . فان شئتم قصصت عليكم ذلك . انها لحكاية طويلة
ولكن اعترفوا ان لكسيم مكسيمتش حقاً فى تقديركم واحترامكم ،
فعندئذ اكافأ كل المكافأة على قصتى التى قد تكون طويلة بعض الطول

مكسيم مكسيمتش

بعد أن استأذنت مكسيم مكسيمتش في السفر ، اجتزت مضيق تيريك وداربال عدوا ، افطرت في كازيك ، ثم تناولت الشاي في لارس ووصلت الى فلاديفقاس في وقت العشاء . سأعفيكم من وصف الجبال ، ومن عبارات الدهشة ، ومن رسم اللوحات ، فهي جميعا لا تمثل شيئا (ولاسيما لمن لم يكن يوما في تلك المناطق) وسأعفيكم من الملاحظات التي لن يقرأها أحد .

لقد نزلت الفندق الذي ينزله جميع المسافرين ، والذي ليس فيه أحد تأمره بدراج أو بحساء . فان المجزة الثلاثة الذين عهد اليهم بالبيت كانوا أكثر غباء أو أكثر سكرًا من أن نستطيع الحصول منهم على شيء .

وقال لي هؤلاء ان على أن امكث هناك ثلاثة أيام ، لأن «الفرصة» لم تصل بعد من ييكاتيرينوجراد فلا يمكن أن تعود اليها . يا لها من فرصة !.. والروسي لا تسليه نكتة باردة . لذلك عمدت ، على سبيل التسلية أن أبسط على الورق قصة ييلا التي رواها لي مكسيم مكسيمتش ، دون أن بدور بخلدني انها ستكون بداية سلسلة طويلة من القصص : فانظروا كيف يمكن أن يكون لظرف طارئ تافه من سوء العواقب ..

ولكن لعلكم تجهلون ما هي « الفرصة ؟ » انها عدد من الخفراء هو نصف سرية من المشاة وقطعة من المدفعية تصاحب النقلات عبر كاباردا ، من فلاديفقاس الى ييكاتيرينوجراد .

وضجرت في اليوم الاول كثيرا . حتى اذا جاء الصباح من القد ، رابت عربية تدخل ساحة النزول .. ها انه مكسيم مكسيمتش !.. وتلاقينا كما يتلاقى صديقان قديمان . واقترحت عليه أن يشاركني عرقتي ، فقبل بلا كلفة حتى ربت على كتفي وتجمعد وجهه بابتسامة . ما أكثر ما كان مضحكا ! ..

وكان لمكسيم مكسيمتش معرفة عميقة بفن الطهو : فشوى دراجا ، وبدا له ان يرشها بماء الخيار المملح ، فكانت فكرة موفقة يجب ان اعترف انني لولاه ما أكلت شيئا سخا . وساعدتنا

زجاجة من خمر كاخيتيا على أن ننسى أن ليس تعة الا طبق واحد .
ثم أشعل كل منا غليونه وجلسنا ، أنا بالعرب من النافذة ، وهو
بالقرب من الموقد الذي أشعلناه لأن النهار كان باردا ورطيبا .
وصمتنا . وما عسى أن نقول ؟ لقد قصص على كل ما قد وقع له من
حوادث شائقة ولم يكن لدى أنا ما أقصه عليه . ونظرت من النافذة
هذه الى بيوت صغيرة واطئة كثيرة تتناثر وراء الأشجار على طول تيريك
الذي أخذ يزداد في هذا المكان عرضا ، وهذا خط الجبال المسنن
يبدو من بعيد أزرق اللون ، ووراءه يظهر كازيك بقبعته البيضاء
كقبة الكاردينال . وأخذت أودع هذه الامكنة بينى وبين نفسى ،
وكنت أشعر منذئذ بالأسف لفراقها ..

وظللنا على هذا الحال مدة طويلة كانت الشمس نختبئ وراء
الدرى المتجلدة ، وكان ضباب بلون اللبن ينتشر فوق الوديان ،
حين سمعنا جرس مركبة برن في الشارع ، وسمعنا صرخات السائقين
ودخلت ساحة النزول عدة مركبات تصحبها جماعة من الارمن
قدرة ، وتبعها عربة ذات مظلة خفيفة ، رشيقة ، أنيقة ، يبدو أنها
صنعت في الخارج وكان يمشى وراءها رجل ذو شاربين طويلين ،
يرتدى سترة من الطراز المجرى ، وتبدو عليه امائر الخادم الرأقى .
يستحيل أن يخطئ المرء في رتبته متى رأى طلاقته في هز رماد غليونه
وصراخه وراء السائق : لاشك انه خادم مدلل لسيد كسول ولاشك
انه نوع من فيفارو روسي .
فهمت به من النافذة :

— ايه أيها الصديق ، أهذه هي « الفرصة » تصل ؟
فنظر الى في شيء من المعجزة ، وأصلح ربطة عنقه ، وأشاح
بوجهه عنى . وكان يسير الى جانبه رجل من الارمن ، فاجابنى وهو
يتسم بأنها هي « الفرصة » حقا ، وأنها ستسافر في صباح الغد .
قال مكسيم مكسيمتش ، وهو يقترب من النافذة : هذا حسن .
ثم أضاف :

— ما أجمل هذه العربة ؟ لاشك ان صاحبها موظف كبير ذاهب
الى تفليس للتفتيش . وواضح انه لايعرف جبالنا . اؤكد لك ، غير
مازح ، ان هذه العربة لن تمضي بعيدا ، حتى ولو كانت صنعت في
انجلترا ... دعنا نعرف من هو ...
وخرجنا من الدهليز . كان في آخر الدهليز باب ينفتح على غرفة
جانبية رأينا الخادم والسائق يحملان اليها الحقائب .

صاح الرئيس : قل لى ايها الصديق : ان هذه العربة الجميلة ؟
 هه ، انها لرائعة حقا !
 قدمدم الخادم يضع كلمات لم نفهمها ، دون ان يلتفت الينا ،
 وهو يحل احدى الحساب . فغضب مكسيم مكسيمتش ، فامسك
 بالرجل غير المؤدب من كتفه وقال :
 - اسمع يا صاحب ، اليك أوجه الكلام ..
 - هذه العربة ؟ انها لسيدى ...
 - من هو سيدك ؟
 - بتشورين ...
 - بتشورين ؟ هل قلت بتشورين ؟ آه يا الهى ؟ هل خدم سيدك
 فى القفقاش ؟
 هتف مكسيم مكسيمتش بذلك ، وهو يشهدنى من كمى ،
 وأشرقت عيناه ببريق من الفرح .
 فأجابه الخادم بقوله :
 - اظن انه كان فى القفقاش ... لست فى خدمته الا منذ مدة
 قصيرة .
 - حسن . واسمه جريجورى الكسندروفتش ، اليس كذلك ؟
 ان سيدك صديقى !
 قال ذلك ثم هوى على كتف الخادم بضربة ودية جعلته يترنح .
 فقطب الخادم ما بين حاجبيه ، وقال :
 - من فضلك ياسيد انك تزعجنى .
 - هون عليك ايها الصاحب ! هل تعلم اننا كنا صديقين حميمين ،
 انا وسيدك ، بصيفة المفرد ؟ واننا كنا فى الخدمة معا ؟ ولكن هو ،
 اين هو ؟
 فأجاب الخادم بان بتشورين نزل فى بيت الكولونيل ن .. للعشاء
 وقضاء الليلة .
 - الا بائى الى هنا هذا المساء ؟ الا تذهب انت الى هناك لامر من
 الامور ؟ قل له ، اذا ذهبت ، ان مكسيم مكسيمتش هنا ، نعم ، قل
 له ذلك فحسب .. وسيعرف هو كل شيء وسيكون اجرك على
 هناك ثمانين كويكا .
 فمط الخادم شفته شزرا يحتقر هذا الوعد الطفيف ، ولكنه رغم
 ذلك اكد لمكسيم مكسيمتش انه سيبلغ سيده الرسالة .
 قال لى مكسيم مكسيمتش وقد أشرق وجهه :

- سيأتي مهرولا : ستري . انا ذاهب الى الشارع انتظر .
خسارة اننى لا اعرف ن ... !

ومضى فجلس على مقعد في خارج البيت . وعدت انا الى غرفتي
لا بد أن اعترف باننى كنت ، انا ايضا ، انتظر مجيء بتشورين بفارغ
صبر فلئن كانت الصورة التى ارسمت في ذهنى عن شخصيته
من حديث الرئيس ليست بالصورة المشرفة كثيرا ، فلقد كنت ارى
في بعض ملامح طبعه امارات بارزة تلفت النظر . وبعد ساعة من
الزمان جاء أحد العجزة يحمل السماور يقلى وابريق الشاي .
فصحت بمكسيم مكسيمتش من النافذة أقول :

- مكسيم مكسيمتش ، هل تريد شاي ؟
- لا ، شكرا ، ليس بى ظمأ ...
- قدح واحد على الأقل ، لقد تأخر الوقت . والجو بارد .
- لا ، لا ، شكرا ..
- لك ما تريد !

وتناولت الشاي وحدى . وبعد عشر دقائق عاد الرئيس العجوز
وهو يقول :

- أنك على حق ، فمن الافضل أن احتسى قدحا من الشاي
الساخن . ولكننى خفت أن افوته .. لقد ذهب الخادم منذ مدة
طويلة .. لاشك انه حبس عن المجيء .
وابتلع مكسيم مكسيمتش قدحا من الشاي بسرعة عظيمة ،
ورفض أن يتناول قدحا آخر ، وعاد الى مقعده ، وقد بدت عليه
علائم العصبية قليلا . كان واضحا ان عدم اهتمام بتشورين بالرئيس
العجوز يحزنه أشد الحزن .. لاسيما انه كان يحذرنى عن صداقتهما
منذ قليل ، وانه كان قبل ساعة واحدة ، على يقين من أن بتشورين
سيهرع اليه متى سمع اسمه .

انقضى وقت طويل ، وجاء الليل ، ففتحت النافذة مرة أخرى ،
وناديت مكسيم مكسيمتش قائلا ان ساعة النوم قد حانت. فقدم
ببعض الكلام ، فكررت قولى ادعوه الى النوم ، فلم يجب بشيء .
تمددت على الاريقة ، وغطيت جسمى بمعطى ، وتركت الشمعة
مشتعلة . وسرعان ما غفوت كان يمكن أن انام نوما هادئا لولا أن
مكسيم مكسيمتش ايقظنى حين عاد في ساعة متأخرة من الليل . لقد
رمى غليونه على المنضدة ، وأخذ يلدغ الغرفة ذهابا وإيابا ، ثم
حرك النار في الموقد واستلقى أخيرا لينام . غير اننى ظللت أسمعه
خلال مدة طويلة ، يسعل ، ويبصق ، ويتقلب .

قلت له : هل يمنعك البقي من النوم ؟
فقال وهو يطلق زفرة حرى : ها ! نعم ، هو البقي .
واستيقظت في صباح القد مبكرا ، ولكن مكسيم مكسيمتش كان
قد سبقنى ، ووجدته في خارج البيت جالسا على مقعده .. قال :
- يجب ان اذهب الى المقدم (الكومندان) . فارجوك اذا جاء
يتشورين أن ترسل الى من يستدعنى .
فوعده بذلك . فمضى يركض ركضا ، كأن أعضائه قد استردت
فجأة قوة الصبا ومرونة الشباب .

كان الصباح منعشا جميلا بين الاصباح . السحب المذهبة تبدو
فوق الجبال كأنها سلسلة أخرى من الدرى الساحرة . وعلى الجهة
الأخرى من الساحة الواسعة التى تمتد أمام البيت ، يعج السوق
بالناس ، لأن اليوم أحد . وأخذ يدور حولى صبية اوسيتيون حفاة
يحملون على ظهورهم سلالا ممتلئة بأقراص العسل ، فطردتهم شر
طردة . كان في رأسى شيء آخر . لقد بدأت أقاسم رفيقى الرئيس
الطيب قلقه .

وما انقضى على ذلك عشر دقائق حتى ظهر في الطرف الآخر من
الساحة الشخص الذى كنا ننتظره . كان معه الكولونيل ن ...
صحبته حتى النزول ، ثم استأذنه ، وعاد الى القلعة . فأرسلت أحد
العجزة فورا ، ينبئ مكسيم مكسيمتش بذلك .
وخرج الخادم الى لقاء بتشورين ، وأبلغه انهم سيكدنون الخيل ،
ثم مد اليه علبة السيجار ، وتلقى أوامره ، ومضى . فاشعل السيد
سيجارا ، ثم تناهب مرتين ، وجلس على المقعد أمام البيت . ينبئ
لى الآن أن أصوره لكم :

انه متوسط الطول ، وبدل قده الدقيق وكتفاه العريضان
على بنية قوية تستطيع أن تتحمل جميع متاعب الحياة المترحلة ،
وجميع تبدلات الجو ، لم ينتصر عليها الاقراط في حياة المجون
بالعاصفة ، ولا العواصف النفسية الداخلية . وكان يرتدى ودنجوتا
من المخمل علاه شيء من الفبار ، ولم يربط من أزواره الا الزربن
الأخريين ، فكان يكشف عن قميص ناصع البياض ، يدل على أن
الرجل من وجوه القوم .. وكان فغازيه قد صنعا خصيصا ليده
الصفيرتين الأرستقراطيتين ، فلما خلع أحدهما عجبت من نحول
أصابعه الشاحبة . وكان يمشى بغير مبالاة . ولكننى لاحظت انه لا
يهز يديه وهذه امارة من أمارات الطبع الكئوم ، ذلك رأى أقيمه على

ملاحظاتي الشخصية ، ولست اطمع في أن تقبلوه قبولاً أعمى .
وحين جلس رأيت قامته المنتصبة المستقيمة تثني كأن ليس له
عمود فقري . وكان وضع جسمه كله يكشف عن شيء من الضعف
العصبى ، ويذكر بترك المرأة الفندورة ذات الثلاثين عاماً التي وصفها
لنا بلزك جالسة على مقعدها المزين بالمخدرات ، بعد حفلة راقصة
منهكة . إذا ألقيت عليه نظرة أولى لم تغفل أنه تجاوز الثالثة
والعشرين من عمره . ولكنك بعد أن تمنع فيه النظر تقدر عمره
بثلاثين عاماً . وكان في ابتسامته شيء من معاني الطفولة وكان جلده
ناعماً رقيقاً كأنه جلد امرأة . وكان شعره الأشقر المتجمد يحيط
أحاطة جميلة بجبينه الشاحب الذي يفيض نبلاً والذي لا ترى فيه
إلا العين المنتبهة آثار غشون متصالية لا شك أنها تغشوا أظفر
وأوضح في ساعات الغضب والاضطراب وكان شارباً وحاجياً
سوداً ، رغم أن شعره أشقر ، وهذا يدل على نبل المختد ، كما
يدل سواد اللبدة والذنب في الحصان الأصهب على أنه كريم العرق .
ويجب أن أذكر ، أتماماً للصورة ، أن أنفه مقع قليلاً . وأن أسنانه
فاصعة . وأن عينيه كستناويتان . ولكنني أحب أن أقول بصدد
عينيه بضع كلمات .

— أولاً كانت عيناه لا تضحكان ، حتى حين يضحك . هل أتبع
لكم أن تروا هذا الأمر العجيب ؟ . أن هذا يدل أما على طبع رديء ،
وأما على حزن عميق دائم . كانت عيناه تلتصمان من خلال أهدابه
المفضية قليلاً ، بهريق متوهج كتوهج الفوسفور ، أن صبح التعبير .
وليس هذا البريق انعكاساً لروح حارة أو خيال ملتهب ، وإنما هو
بريق الفولاذ المصقول ، يهر ولكنه بارد . وكانت نظراته متحركة ،
ولكنها نافذة ثقيلة ، تخلف فيك شعوراً مزعجاً بأنها نظرات تساؤل
خفى ، وكان يمكن أن تحص فيها الوقاحة ، لولا أنها هادئة لاتبالي .
هذه ملاحظاتي ، ولعلها ما كانت لتدور في خلدي لولا أنني كنت أعرف
عن حياته بعض التفاصيل ، ورب شخص آخر يشعر شعوراً مختلفاً
عن شعوري كل الاختلاف . ولكن أحداً لم يحدثكم عنه غري ، فلا
بد لكم من الاكتفاء بهذا الوصف الذي سقته . ويتبقى أن أقول لكم
في الختام ، أن له شخصية جميلة ، وأن وجهه لهو من الوجوه
الفريدة التي تعجب نساء المجتمع الراقى بوجه خاص .

وقرنت الخيول ، وأخذ الجرس يرن في رقابها ، واقترب الخادم
من بتشوردين مرتين ليقول له أن كل شيء مهياً ولم يصل مكسيم

مكسيمتش بعد . ومن حسن الحظ أن بتشورين الذي تعلقت نظرائه
بأسنان القفقاسي الزرقاء كان مستغرقا في تفكيره ولا يلوح عليه أنه
يتعجل المسير . فاقتربت منه وقلت له :

— إذا تفضلت بالانتظار قليلا ، فلسوف يسرك أن ترى صديقا
قديما .

فقال بسرعة :

— ها ، نعم لقد قالوا لى ذلك أمس . ولكن أين هو ؟ فالتفت
نحو الساحة ، فادا أنا أرى مكسيم مكسيمتش يركض بأقصى سرعة
يستطيعها ... وما هى الا دقائق قليلة حتى كان الى جانبنا . كان
يلهث ، وكان العرق يتصبب منه قطرات كبيرة ، وكانت خصلات
من شعره الرمادى قد أفلتت من تحت قبعته والتصقت بجبينه ،
وكانت ركبته تصطكان ... أراد أن يرمى على عنق بتشورين ،
ولكن بتشورين مد اليه يده فى غير قليل من البرود ، وإن لم يكن قد
ابتسم له أيضا ابتسامة لطيفة . فتجمد الرئيس لحظة ، ثم شد
على اليد الممدودة بكلتا يديه : لم يكن قادرا بعد على الكلام .

قال بتشورين : ما أشد سرورى برؤيتكم يامكسيم مكسيمتش !
ولكن كيف صحنكم ؟

فقدم العجوز يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— وانت ؟ .. وانت ؟ .. كم من السنين .. كم من الايام مضت

ولم ير احدا الاخر ! .. ولكن الى أين أنتم ذاهبون ؟ ..

— أنا ذاهب الى فارس .. والى ابعد من ذلك أيضا .

— ولكن لا تذهبوا فورا ؟ انتظروا قليلا ياعزيزى ! ليس يعقل

أن نفترق بمثل هذه السرعة بعد سنين كثيرة ..

فكان كل جواب بتشورين أن قال :

— أن أوان ذهابى ، يا مكسيم مكسيمتش .

— يا الهى ، يا الهى ! أين تسرعون هكذا ؟ ان فى نفسى امورا

كثيرة يجب أن أقولها لكم ، وأسئلة كثيرة يجب أن أطرحها عليكم !

اذن ، لقد قدمتم استقالتكم ؟ وماذا كنتم تفعلون خلال ذلك الوقت

كله ؟ .. فأجاب بتشورين مبتسما : كنت أضجر .

— وهل تتذكرون حياتنا فى القلعة ؟ ما كان أجمل تلك البلاد ،

للصيد ، هه ؟ لأنكم كنتم تحبون الصيد ، انتم ! وببلا ؟

فأصفر بتشورين قليلا ، وأدار وجهه ، ثم قال :

— نعم انذكروها .

ثم لم يلبث أن تشاءب ثناؤيا حمل عليه نفسه حملا . أراد مكسيم مكسيمتش أن يقنعه بالبقاء معه ولو ساعتين . قال : سنتناول غداء ممتازا .. عندي دراجان وخمر طيب من كاخيتيا .. طيبا ، هو لا يعدل خمر جورجيا .. ولكن هذا لا يمنع أنه مشهور .. وستحدث وستقصون على أخبار حياتكم في بطرسبرج اليس كذلك ؟
- أؤكد لكم ياعزيزي مكسيم مكسيمتش أنه ليس لدى ما أفصه عليكم . وداعا .. أن لي أن أسافر .. اننى مستعجل .. ثم أضاف الى ذلك ، وهو يتناول يده :

- شكرا على انكم ما نسيتموني .
تقطب المعجوز حاجبيه .. كان حزينا غاضبا في آن واحد ، وان حاول الا يظهر من ذلك شيئا . ودمدم متدمرا يقول :
- انسى ؟ ! انا لم انس شيئا ، انا ... اذن لن أجسكم عن الذهب ... ما هكذا كنت أتصور أن القاكم ...
فقال بتشورين وهو يعاقله في مودة وصدافة :

- هيا ، هيا .. انا لم أزل على ما كنت عليه .. ماذا تريدون ؟ ان على كل امرئ أن يسير في طريقه .. الله يعلم هل نلتقى بعد اليوم قط ! ..
قال ذلك وهو يصعد عربته ، وكان السائق قد جمع الأئنة وهم بالمسير . فصرخ مكسيم مكسيمتش فجأة وهو يمسك بقبضة باب العربى ، يقول : انتظر .. انتظر .. لقد نسيت .. أوراقك التى بقيت عندي .. ما زلت احتفظ بها .. كنت أظن اننى سألقاك في جورجيا .. أما وانا التقينا هنا .. فعاذا أصنع بها ؟
- أصنع بها ما تشاء ... وداعا ! ..
فصاح مكسيم مكسيمتش مرة أخرى :

- انت ذاهب اذن الى فارس ؟ .. ومتى تعود ؟ ..
ولكن العربى كانت قد ابتعدت ، فلوح بتشورين بيده كأنه يقول :
- قد لا نلتقى قط ، وعلام نلتقى ؟ ..
وانقضى وقت طويل .. وأصبحنا لا نسمع رنين الجرس ولا قرقرة العجلات على ارض الطريق الحجري ، ولكن المعجوز المسكين ظل واقفا في مكانه ، غارقا في تفكيره . وقال أخيرا :
- نعم .. كان يحاول أن يظهر بمظهر من لايبالى ، ولكنى رأيت دموع الحسرة تلمع في أهدابه . لاشك أننا كنا صديقين .. ولكن هلبقى في أماننا هذه اصدقاء ؟ .. ما انا عنده ؟ اننى لا أملك ثروة

طائلة ، ولا رتبة عالية . ثم اتنا متفاوتان كثيرا في السن ! .. ها قد رابته ، لقد أصبح على المودة منذ زيارته مرة أخرى لبطرسبرج .. يا لها من عربة ! يا له من متاع ! وهذا الخادم المتعجرف ! .. قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة . ثم التفت الى يسألني :

— ولكن قل لى انت . ما رايك في كل ذلك ؟ .. ما ذهابه الى فارس ؟ اما انا فهذا يضحكني ! .. كنت اعرف انه رجل طائش لا يمكن الاعتماد عليه .. ولكن يؤسفني مع ذلك أن ينتهى الى أسوأ المواقب .. لابد مما ليس منه بد .. لطالما قلت له : ماذا تنتظر من أولئك الذين ينسون أصدقاءهم ؟ ..

ابتعد مكسيم مكسيمتش ، ليخفى عنى انفعاله ، ومضى الى الباحة يدور حول عربته ، ويتظاهر بأنه يفحص عجلاتها ، ولكن عينيه كانتا تمثلان بالدموع في كل لحظة . قلت له وأنا أقترب منه :

— مكسيم مكسيمتش ، ما هي تلك الاوراق التى تركها لك بتشورين ؟ ..

— والله لا اعرف شيئا .. لعلها مذكرات ..

— وما عسى أن تصنع بها ؟ ..

— ما أصنع بها ؟ اتخذها فشكا !

— بل اعطني اياها .

فنظر الى دهشا ، ثم دمدم بين أسنانه بعض الكلام ، واخذ يبحث في طوايا حقيبه ، ثم أخرج منها دفترًا وورماه على الأرض في ازدراء ، ثم أخرج دفترًا ثانيًا فثالثًا فعاشرًا صنع بها كلها مثلما صنع بالاول . كان في غضبه شيء من غضب الاطفال .. فكنت اشعر بالحاجة الى الضحك واشفق عليه ، في آن واحد .

قال : هي لك . اهتئك على هذه اللقطة ...

— وهل أستطيع أن اصنع بها ما أشاء ؟ ..

— اطبعها في الجرائد اذا أحببت .. اما انا فأسخر من ذلك كله .

كنت صديقه ولا قريبه .. صحيح اننا عشنا مدة طويلة تحت سقف

واحد .. ولكنه ، على كل حال ، ليس الوحيد بين الناس ...

فتناولت الاوراق ، وذهبت بها بسرعة ، خشية أن يعدل الرئيس عن رايه . وجاء بعد قليل من يقول لنا ان « الفرصة » تسافر بعد ساعة فامرت بكدن الخيل . ودخل على الرئيس وأنا أضع قبعتى على رأسى تهيؤًا للرحيل فلم يبد لى انه يتهيأ للسفر . كان وجهه

عابسا باردا .

— وأنت يا مكسيم مكسيمتش ، ألا تسافر ؟

— لا .. لماذا ؟ ..

— لم أر المقدم بعد وهناك أشياء يجب أن أنقلها إليه ...

— ولكنك ذهبت إليه ؟ .. فقال مريبكا :

— نعم ذهبت إليه ، ولكنني لم أجده فلم أنتظره . فهمت كلمة

شيء : لعلها أول مرة في حياة العجوز يؤثر فيها « أمرا شخصيا » ،

كما يقال بلغة القراطيس ، على أمور الخدمة .. وانظر كيف كوفي

على ذلك ! قلت له :

— انه ليؤسفني كثيرا يا مكسيم مكسيمتش أن نفترق بمثل هذه

السرعة .

— نحن لسنا الا شيوخا جهالا .. أما انتم فشبّاب من الطبقة

الراقية . انتم اناس متكبرون . ترضون أن تعاشرونا تحت رصاص

الشراسة ، ولكنكم بعد ذلك تستحون أن تمدوا أيديكم إلينا .

— لا استحق هذا التقريع يا مكسيم مكسيمتش ؟

— آ .. ما قلت هذا من أجلك ثم انني أتمنى لك كل أنواع

السعادة ، وسفرا ميمونا !

كان فراقنا جانا بعض الجفاف . لقد غدا مكسيم مكسيمتش

رئيسا عجوزا متدمرا لا أكثر . لماذا ؟ لأن بتشورين مد إليه يده ،

عن غفلة أو لأي سبب آخر ، في حين أن مكسيم مكسيمتش كان

يريد أن يثب إلى عنقه . انه ليحزن المرء أن يرى شسابا في ريعان

صباه يفقد أجمل آماله وإحلامه حين ترفع عن بصره الفشاوة الوردية

التي كان ينظر من خلالها إلى أفعال الناس وعواطفهم . ولكن

الشباب يمكن أن يستبدل بأوهامه القديمة أوهاما جديدة ، تنقضي

كالاولي ، ولكنها عذبة كالاولي . اما في سن مكسيم مكسيمتش فماذا

يستبدل الانسان بأوهامه القديمة ؟ .. لابد أن يقسو القلب ، وأن

تنفلق النفس ..

وسافرت وحدي .



پوڄياٽ بليشورين

مقدمة

علمت منذ مدة قصيرة ان بتشورين مات بعد عودته من فارس .
ولقد سرنى هذا النبأ كثيرا ، فهو يهب لى حق نشر هذه المذكرات .
لقد استفدت منها فمهرت باسمى أثرا ليس لى أرجو الا يؤاخذنى
القارىء على هذه السرقة البرئة .

ويجب الآن ان أشرح قليلا الاسباب التى حفزتنى الى ان أنشر
على الناس اسرار شخصية لرجل لم أعرفه أبدا . لو كنت صديق
ذلك الرجل ، لفهم كل انسان ما يتصف به الصديق الحقيقى من
اقتناء للأسرار خبيث . ولكننى لم أر الرجل الا مرة واحدة فى
حياتى ، حتى لقد رأيت على قارعة الطريق . فانا اذن لايمكن ان
اكن له ذلك الكره الذى لايفسر ، ذلك الكره الذى يتقنع بقناع
الصداقة ، ولا ينتظر الا ان يموت الشخص المحبوب أو ان يفجع
حتى يصب على رأسه ألوان التقرع والنصح والسخر والأسف .
حين اعدت قراءة هذه المذكرات ، اقتنعت بصدق هذا الرجل
الذى كشف عن ضعفه وعن نقائصه بلا رحمة . ورب قصة نفس من
النفوس مهما تكن صغيرة تكون أشيق وانفع من قصة شعب بأسره ،
ولاسيما حين تكون ثمرة ملاحظات أجراها على نفسه فكر ناضج ،
ثم كتبها لا تدفعه الى كتابتها رغبة عابثة فى إثارة الدهشة والشوق
فى نفوس القراء . ان مما يعيب « اعترافات » روسو انه كان يقرؤها
لأصدقائه .

فالرغبة فى نفع الناس هى وحدها التى دفعتنى اذن الى نشر هذه
الاجزاء من يوميات ألقت بها الصدفة بين يدى . ولقد غيرت جميع
الاسماء ، غير أن الاشخاص الذين يدور الكلام عليهم سيمعرفون
انفسهم من غير شك ، وقد يجدون فى هذه المذكرات تبريرا لأفعال
كانوا الى هذا اليوم يأخذونها على شخص فارق هذا العالم . اننا
نفقر ما نفهمه ، نفقره دائما تقريبا .

لم أضمن هذا الكتاب الا ما له صلة باقامة بتشورين فى
القفقاس . وقد بقى عندى دفتر كبير يروى قصة حياته كلها .
وسأنشر هذا الدفتر ايضا ذات يوم ، ليرى الناس فيه رأبهم .

ولكننى لا أجرؤ أن اتحمل هذه التبعة بعد ، وذلك لأسباب كثيرة هامة .

ولعل بعض القراء يريدون أن يعرفوا رأى فى خلق بتشورين .
ان عنوان الكتاب يتضمن الجواب . ورب قائل يقول :
« ولكن فى هذا سخريه قاسية » . من يدري ؟

تامان

لاشك أن تامان هي أسوأ مدينة صغيرة بين جميع المدن البحرية في روسيا . لقد كدت أموت فيها جوعا ، وأكثر من ذلك أنهم أرادوا اغراقى في تلك المدينة . وصلت مع البريد في ساعة متأخرة من الليل وأوقف السائق أحصنته المكدودة الثلاثة أمام البيت الحجري الوحيد الذي كان يقوم عند مدخل المدينة . كان الخفير ، وهو قوزاقى من البحر الأسود ، نائما نصف نوم ، فلما سمع رنين جرسنا ، استيقظ وصاح بصوت أجش : « من هذا ؟ » ، وهرع نحونا وكيل ضابط وديسياتنيك * فشرحت لهما أننى ضابط ، وأننى أسافر الى الجيشى العامل . وطلبت منهما أن يجدا لى مكانا أبيت فيه . فقادنى الديسياتنيك ، وطاف بى المدينة كلها ، ولكننا لم نستطع أن نجد عربة واحدة خالية . وكان الجو باردا ، وكنت لم أصف النوم منذ ثلاث ليال، كنت مرهقا حقا ، فغضبت وصرخت : — أيها اللص ، خذنى الى حيث تريد ، خذنى الى الشيطان ان شئت ، على شرط أن تجد مكانا !

فأجابنى وهو يحك نقرته :
— بقى بيت واحد حقير ، لن يمجبك يا صاحب النبالة . انه مكان سيىء .

فأمرته بأن يقودنى اليه ، دون أن أفهم معنى قوله على وجه الدقة . فأخذ يطوف بى مدة طويلة فى أزقة صغيرة قلدة لا أرى فيها على يعينى وعلى شمالى إلا جدراناً متهدمة حتى وصلنا الى بيت صغير على شاطئ البحر .

كان القمر بدرًا ، بضئء سقف مسكنى الجديد ، وهو سقف من قصب ، وبضئء جدراناه البيضاء . وفى الباحة التى يحيط بها جدار من أحجار ، كان يقوم بيت حقير مائل ، وهو أصغر وأقدم من البيت الأول ، ويقع تقريبا على حافة منحدر وعمر ، ومن تحته الأمواج الزرقاء القاتمة ، تتلاطم فتحدث هديرا لا يتقطع . كان القمر الهادئ يتأمل البحر الهائج الذى يطبعه . واستطعت أن أرى على ضوء

* حريف عشرة من القوزاق .

القرع ، بعيداً من الشاطئ سفينتين تنتصب أحدهما السوداء ساكنة على خط الأفق الشاحب ، كأنها نسيج العنكبوت . قلت في نفسي : « ان في الرفا سفنا ، وساسافر غداً الى غيلينديك » . وكان ناصفي * قوزاقيا من جنود الجبهة ، فأمرته بأن يأخذ حقيبتي وأن يصرف العربة . ثم ناديت صاحب البيت : فلم أسمع جواباً . وقرعت الباب فلم أسمع جواباً أيضاً . ما معنى هذا ؟ وأخيراً خرج الى من الظلام صبي في نحو الرابعة عشرة من عمره . قلت له : أين صاحب البيت ؟ ..

فاجاب بروسية ركيكة : ليس له صاحب ..

— كيف ؟ ليس له صاحب ؟ ..

— نعم ، ليس له ..

— وصاحبة البيت ؟ ..

— ذهبت الى الطرف الآخر من المدينة .

— ومن يفتح لي الباب ؟

قلت ذلك وأنا أضرب الباب بقدمي ، فانفتح الباب من تلقاء نفسه . كانت تفوح من البيت رائحة الرطوبة . فأشعلت عود ثقاب ، وقربته من وجه الصبي ، فاذا أنا أرى عينين بيضاوين . كان الصبي أعمى ، أعمى تماماً منذ الولادة . كان واقفاً أمامي بلا حراك . فأخذت أتفرس فيه .

يجب أن أعترف أنني أنظر من جميع العمى ، والعمور ، والصم ، والبكم والمقعدين ، ومن قطعت أيديهم ، ومن تحدثت ظهورهم ، الى آخر ما هنالك . فلقد لاحظت أن ثمة علاقة بين ظاهر الإنسان ونفسه ، كان فقد المرء عضواً من أعضائه يؤدي الى فقدان ملكة من ملكاته .

أخذت أذن أتفرس في وجه الأعمى . ولكن ما عسى أن يقرأ المرء في وجهه بلا عينين ؟ وكنت قد أطلت النظر اليه ، مشفقاً على غير إرادة مني ، حين لاحظت ابتسامة خفيفة لا تكاد تری ، تطوف بشفتيه الدقيقتين ، فأحدثت في نفسي تأثيراً مزعجاً الى أبعد حدود الإزعاج : اهو يتظاهر بالأعمى ؟ وقلت لنفسي أن المرء يستحيل عليه أن يصطنع غشاً على عينيته (وما عسى أن يقصد من ذلك ؟) ، ولكن الشك في ذلك ظل يراودني ! وكثيراً ما تستبد بي ظنون كهذه ... سألته أخيراً : أنت ابن صاحب البيت ؟ ..

* الناصف هو الجندي التابع لفاطمة .

- لا . . .
 - فمن انت اذن ؟ ..
 - يتيم فقير ..
 - هل لصاحبة البيت اولاد ؟ ..
 - لا ، كانت لها بنت ، ولكنها مضت الى الطرف الثانى من
 البحر مع تترى .
 - أى تترى ؟ ..
 - لا اعرف أنا . هو تترى من القرم ، ربان زورق من كرتش .

ودخلت الكوخ . كان كل اثاث البيت مقعدين ومنضدة ، وصندوقا
 كبيرا بالقرب من الموقد ولا أبقونة على الجدار : هذا نذير سوء !
 وكانت ريح البحر تقتحم الغرفة من النافذة التى كسر لوح من
 زجاجها . فاخرجت من حقيبتي شمعة اشعلتها ، ثم أخذت أرتب
 أشيائي ، ووضعت سيفي وبندقيتي في ركن من أركان الغرفة ،
 ووضعت مسدساتي على منضدة ، وفرشت أحد المقعدين بمعطفي
 وفرش القوزاقى بمعطفه المقعد الآخر وبعد عشر دقائق كان يغط في
 نوم عميق ويشخر . أما أنا فلم أستطع أن أنام . كنت لا أنفك
 أتصور في الظلام ، الصبي ذا العينين البضاوين .

وانقضى على ذلك ما يقرب من ساعة . كنت أرى القمر من النافذة
 يتلألا وكانت أشعته تدخل الى البيت ، وتسقط على أرضه الترابية .
 وفجأة رأيت على الجانب المضيء من الأرض خيال شخص يمر .
 فرفعت رأسي ونظرت من النافذة فرأيت شخصا يمر بسرعة ويختفي .
 كنت لا أستطيع أن أصدق أن الشخص نزل منحدر الشاطئ ولكنه
 لا يستطيع أن يمضي الى مكان آخر . فتهضت واندست في جلبابي ،
 ووضعت خنجري في زناري ، وخرجت اسير بخطا محترسة فرأيت
 الأعمى مقبلا ، فالتصقت بالجدار ، فمر على مقربة مني بخطا وثقة
 ولكنها محاذرة . كان يحمل تحت أبطه رزمة . فلما انعطفت نحو
 المرفأ أخذ يهبط ممرا ضيقا وعرا . فتبعته على مسافة منه ، بحيث
 اظل أراه فلا يفيب عني ، وقلت لنفسى : « اليوم يتكلم الخرمس
 ويبصر العمى » .

وأخذت السحب تفضي القمر اثناء ذلك ، وكان الضباب يصعد
 من البحر ، فلا يكاد يرى المراء ، من خلاله ، الا التمايع فانوس على
 مؤخرة السفينة القرية ، وعلى الشاطئ يلتمع زبد الأمواج التى
 تلوح كأنها تمم بابتلاعه في كل لحظة . وبينما كنت اهبط المنحدر

الوعر في كثير من العناء ، رأيت الأعمى يتوقف لحظة ، ثم ينعطف يمينا . كان يسير قريبا جدا من الماء حتى كان يتراعى لى في كل لحظة أن الأمواج ستلتفنه وتمضى به . لاشك أنها ليست نزهته الأولى ، لقد كان بعضى في سيره على تقّة واطمئنان ، يتنقل من صخرة الى صخرة ، ويتحاشى الفجوات . ووقف أخيرا ، ورايته كأنه يصيح بسمعه الى صوت لا اعرف أى صوت هو ، ثم جلس على الأرض ، ووضع الرزمة التى كان يحملها . فاختبات أنا وراء نتوء من الصخر ، وكنت أرى حركاته جميعها . وما هى الا دقائق معدودة حتى لاح على الطرف الآخر شكل أبيض ، اقترب من الأعمى ثم جلس الى جانبه . فكانت الريح تنقل الى من حين الى حين بعض ما دار بينهما من كلام . قال صوت امرأة :

— أيها الأعمى ، ان الجو ردىء ولن يصل يانكو .

— يانكو لا يخشى العاصفة .

— الضباب في تكاثف متزايد .

وكان في صوت المرأة رنة من حزن .

— المروء بين حرس السواحل في الضباب اسهل .

— واذا غرق ؟

— عندئذ تذهبين الى الكنيسة يوم الأحد بلا شريط حريرى جديد .

وكان صمت . ثمة شيء لفت نظرى : ان الأعمى الذى لم يكلمنى

الا بلهجة روسية ركيكة ، قد انطلق لسانه الآن بكلام روسى فصيح .

قال وهو يصفق بيديه :

— هل ترين ؟ لقد كنت على حق . ان يانكو لا يخشى البحر ، ولا

الريح ، ولا الضباب ، ولا حرس الجمرك . اسمعى ! ليس هذا

صوت اصطخاب الماء ، بل صوت مجدافيه الطويلين أنا واثق من ذلك .

فوثبت المرأة واقفة ، وأخذت تتفحص الأفق قلقة .

قالت : أنت تخرف . لا أرى شيئا .

واعترف اننى أعمت النظر أيضا فلم أر شيئا يشبه أن يكون

قاربا . وانقضت عشر دقائق ، فإذا أنا الملح نقطة سوداء بين جبلين

من الأمواج . كانت النقطة تكبر تارة وتصغر تارة أخرى . أنها قارب

يرتفع بطيئا على اللرى المتحركة ، ثم يهبط سريعا وما ينفك يقترب

من الشاطئ . لاشك انه جرى جدا ذلك الشخص الذى تجاسر

في ليلة كهذه أن يشرع في قطع مضيق طوله عشرون فرسا ، ولاشك

ان الدافع الذى حفزه الى ذلك خطير . وكنت ، وأنا أحدث نفسى

بذلك ، أراقب القارب المسكين واحف القلب على غير ارادة منى .
كان يطفس كالطة ، ثم يتحرك مقدافاه بسرعة كأنهما جناحان ،
فيخرج من الهوة وسط سائح الزيد . ولحظة لاح لى انه من اندفاعه
سيرطم بالشاطئ . ويتمزق اربا اربا ، رايته يستدير للموجة
برشاقة . ويدخل فى خليج صغير ، سليما لم يمسسه اذى . وخرج
منه رجل متوسط طول القامة ، يضع على رأسه قلبا قتريا من فرو
الخرورف . ولوح بيده ، فأخذوا يخرجون من القارب اشياء كثيرة ،
بلغت من الكثرة اننى ما زلت الى اليوم اتساءل كيف لم يفرق بها
القارب . وحمل كل منهم على كتفه حزمة كبيرة ، وابتعدوا على
محاذاة الشاطئ ، وسرعان ما غابوا عنى . كان على ان أعود الى
البيت . ويجب ان اعترف ان هذه الحوادث قد أحدثت فى نفسى
شيئا من الاضطراب ، فكننت انتظر الصباح بصبر فارغ .

ودهش القوزاقى كثيرا حين استيقظ فرأى بشابى ، ولكننى لم
أشرح له سبب ذلك . وظللت امتع طرفى ، من النافذة ، بجمال
السماء الزرقاء تطوف فيها مزق من الفيوم ، وبشاطيء القرم ،
يلوح من بعيد خطا بلون البنفسج ، وعلوه برج منارة أبيض فوق
صخرة مرتفعة . ثم ذهبت الى قلعة فاناجوريا لاسال قائدها متى
استطيع أن أركب السفينة الى غيلينديك .

ولكن القائد لم يستطع أن يجزم لى بشيء وا اسفاه ! فالسفن
التي رأيتها فى الميناء ، بعضها لخفر السواحل ، وبعضها الآخر مراكب
تجارية لم تشحن بأى بضاعة بعد . وقال القائد :
- قد تصل سفينة البريد بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، وعندئذ نرى
ما يكون .

فرجعت مكدر المزاج ، فرايت القوزاقى ينتظرنى على عتبة الباب ،
وقد ظهرت على وجهه علامات الاضطراب .
قال : الحالة سيئة يا صاحب النبالة .

- نعم يا صديقى ، ويعلم الله متى نساfer من هنا .
فزادت هذه الكلمات قلقه ، وانحنى على يقول بصوت خافت :
- هذا مكان مريب . لقد التقيت اليوم بوكيل ضابط أعرفه ،
وهو قوزاقى من البحر الأسود ، كان من مفرزتى فى العام الماضى ،
فلما ذكرت له أين نسكن ، أجابنى بقوله : « هذا ، يا صاحبنى ،
مكان مريب .. هؤلاء أناس مشبهون ... » وهذا صحيح . فلما
هذا الأعمى الذى يذهب وحده الى السوق ، والى البئر ، والى

الخباز ؟ .. يظهر أنهم معتادون هنا على هذا ...
 - وهل رأيت صاحبة البيت اليوم ؟
 - نعم .. لقد جاءت أثناء غيابك عجوز وابنتها .
 - ابنتها ؟ ولكن ليس لها ابنه .
 - ان لم تكن ابنتها ، فلست ادري من تكون ! اسمع ، ان
 العجوز في البيت .
 ودخلت الكوخ فرأيت في الموقد نارا كثيرة ، يطبخ عليها غداء فاخر
 لا يتناول مثله اناس في مثل فقرهم المدقع . ولم تجب على جميع
 اسئلتى الا بانها صماء لا تسمع . ماذا اعمل ؟ التفت نحو الاعمى ،
 وقد جلس امام الموقد يغذى النار بأغصان يليسة ، وقلت له وانا
 امسك بإذنه : « وانت يا اعمى النحس ، ألا قلت لى ابن ذهبت
 البارحة تحمل رزمتك ؟ »

فاخذ الاعمى يتأوه ويبكي ويصرخ :
 - اين ذهبت ؟ لم اذهب الى أى مكان ؟ رزمة ؟ أى رزمة ؟
 وسمعت العجوز في هذه المرة ، فقدمت تقول :
 - لا يعرف الناس الا ان يلقوا ! ماذا تريد من هذا الصبي
 البائس ؟ ماذا صنع ؟
 فازمجنى هذا كله أخيرا ، فخرجت وقد صممت على أن أجد
 مفتاح السر .

وتلفعت بمعطفى اللبادى ، وجلست على حجر مسندا ظهري الى
 جدار السياج . كان البحر يمتد أمامي ، وكان لايزال يضطرب
 بعاصفة الليلة البارحة ، وكان هديره الرتيب الذي يشبه جلبة مدينة
 تهم بالنوم يذكرني بالسنين الخوالي ، فانتقل بفكرى الى الشمال ،
 الى عاصمتنا الباردة . وغرقت في ذكرياتي ، فذهلت عن كل ما
 حولى ... وانقضت على ذلك ساعة كاملة أو يزيد ، ولاح لى فجأة
 اننى أسمع غناء . نعم انه غناء ... هي امرأة تغنى بصوت نضير .
 ولكن من أين يأتي هذا الغناء ؟ وأرهفت سمعى . انه غناء غريب ،
 بطيء حزين تارة ، سريع نشط تارة أخرى . ونظرت حولى فلم
 ار أحدا . وعدت أرهف السمع . لكان هذه النبرات تهبط من
 السماء ؟ ورفعت بصرى الى فوق ، فلمحت على سقف البيت فتاة
 ترتدى ثوبا مخططا ، يتموج شعرها في الهواء : انها لحورية من
 حوريات البحر حقا . وكانت تحمي عينيها من أشعة الشمس بيدها ،
 وتفرس في الأفق البعيد ، ضاحكة مخاطبة نفسها تارة ، ومستأنفة

غناءها نارة اخرى . واتى لاتذكر اغنيتهما كلمة كلمة :

في البحر الجميل
تسير السفن
السفن ذات الاشرعة البيض ،
طليقة كالرياح .
بين هذه السفن
يسير قاربى
قاربى الذى ليس له جهاز ،
وليس له الا مقدا فان
حين تهب الزوبعة
تطوى جميع السفن القديمة
اجنحتها
وتتفوق فوق الامواج .
اما انا فأنحنى للبحر
قائلة :

« حذار أيها البحر الخبيث
ان تقلب قاربى ،
قاربى الملىء
بالف شيء ثمين
يدير دفته فى الظلام الدامس
وجل مخنك » .

ودار فى خلدى فورا ان هذا الصوت هو الصوت الذى سمعته فى
الليلة البارحة . فاذهلنى ذلك قليلا ، حتى اذا نظرت بعد لحظة الى
السطح ، كانت الفتاة قد بارحته ... وفجأة رأيتها تمر امامى
واكضة . كانت تغنى اغنية اخرى ، وهى تصفق بأصابعها ، ودخلت
على المعجوز بسرعة كأنها الريح . وسمعتها تتشاجران . كانت هى
تضحك فى فهقة عالية ، وكانت المعجوز تصرخ غاضبة . وفجأة
رأيت حوريتى تستأنف ركضها المتوالب ، حتى اذا اقتربت منى ،
توقفت ، ونظرت فى عينى كأن وجردى يدهشها ، ثم تحولت هنى فى
غير احتفال ، وابتعدت نحو الشاطئ بخطا بطيئة . ولكنها لم
تستقر هناك ، بل ظلت تحوم حول البيت طوال النهار ، تثب
وتغنى بلا هوادة . ما أغربها من فتاة ! لم يكن فى وجهها أى اماراة
من امارات الجتون . بالعكس ، كان فيما ترشقنى به عيشاها

النافلتان من نظرة متحدية ، قوة مغناطيسية لا أستطيع وصفها . .
وكان يتراءى لى أن عينها تنتظران فى كل لحظة سؤالا ، ولكننى ما
أكاد أفتح فمى حتى تولى هاربة ، وهى تبسم ابتسامة متخابئة .

ما رايت فى حياتى امرأة مثلها ، حتما . لم تكن جميلة ، ولكن لى
فى الجمال أرائى ، أنها أصيلة العرق . . . وأصالة العرق هذه هى
الشيء الهام فى النساء كما فى الخيول أيضا جميعا . تلك حقيقة
يرجع الفضل فى اكتشافها الى فرنسا الفتية . وهى تتجلى (أعنى
أصالة العرق لا فرنسا الفتية) فى المشية واليدين والساقين ، وفى
الأنف على وجه الخصوص . ان الأنف المستقيم أندر فى روسيا من
قدم صغيرة . ولاح لى أن مغنيتى لم تتجاوز الثامنة عشرة من
عمرها . ان مرونة قدها العجيبة ، وطريقتها الخاصة فى احناء
راسها ، وشعرها الكستنائى الطويل ، والتمايع جلدها الثلوج عند
الجيد والكتفين كبريق الذهب ، وأنفها المستقيم خاصة ، كل ذلك
قد سحرنى ومك على عقلى ورغم أننى قرأت فى نظراتها المراوغة
ملا اعرف من معانى الشراسة والشبهات ، ورغم أن فى ابتسامتها
شيئا لم أجد سبيلا الى فهمه ، فلقد أسرتنى أسرا قويا ، وأطاش
أنفها الجميل صوابى . وتخيلت كأننى وجدت مينيون التى تصورها
جوتة ، وابتدعها خياله الالماني الجامع . والحق ان بين الفئتين
وجوها كثيرة من الشبه : انتقال مفاجئ من الحركة الصاخبة الى
الهدوء الشامل ، كلام هو الالغاز ، سير متوائب ، غناء غريب . . .
فلما جاء المساء ، استوقفتها عند العتبة، وجرى بيننا هذا الحديث:

- قولى يا بنتى الجميلة ما كنت تصنعين اليوم على السطح ؟
- ذهبت أنظر من أين تهب الريح ؟
- ولماذا ؟ . .
- لأن الريح تأتى بالسعادة .
- وهل كانت أغنيتك تستدعى السعادة ؟ . .
- السعادة تأتىك حيث تغنى .
- وإذا أتتك أغنية بالشقاوة ؟ . .
- الشقاوة تنقص السعادة . وبين الخير والشر خطوة . .
- من علمك هذه الأغنية ؟ . .
- ما علمنيها أحد . ما يخطر ببالى ، أغنيه ، يسمعه من يجب
أن يسمعه ، ومن لا يجب أن يسمعه لا يفهمه .
- وما اسمك إيتها المغنية الجميلة ؟

— سل عن اسمى من سماني .

— ومن ذا الذي سماك ؟ ..

— كيف تريد أن أعرف ذلك ؟

ايتها الماكرة الصغيرة ! لا بأس ... اننى عرفت عنك بعض الامور
(لم يتغير وجهها ، ولم تمط شفتيها ، كأننى أقصد بكلامى غيرها) .
اعرف انك ذهبت فى الليلة البارحة الى الشاطيء .

ثم اصطنعت كل ما أستطيع من جد ، وقصصت عليها ما رأيته
بالأمس كاملا . كنت اظن انها ستضطرب . ابدا . لقد انفجرت
تضحك مقهقهة .

— رايت كثيرا ، ولكنك عرفت قليلا .. وما عرفته ، فاحتفظ به
لنفسك .

واذا قصصت على القائد كل شيء ؟

كنت قد اصطنعت هيئة جادة ، بل قاسية . فهرت فجأة وهى
تفنى ، كما يهرب العصفور من دغل حين يجفل . لقد جاءت كلمتى
الآخيرة فى غير محلها . ولم يدرك بخلدى ما عسى أن يكون لها من
عواقب ، وسأندم عليها فى القريب .

هبط الليل . قامت صاحبى القوزاقى ان يسخن غلايتى كما كان
يفعل فى المسكر ، واشعلت الشمعة ، وجلست قريبا من المنضدة
أدخن غليونى . كنت أفرغ من احتساء القدح الثانى من الشاي حين
سمعت فجأة صرير الباب ، وسمعت ورانى حفيف ثوب ، ووقع
أقدام خفيفة . فارتعشت والتفت ، فإذا هى حوريتى ! جلست
أمامى فى رفق ، دون أن تقول كلمة واحدة . ورفعت عينيها ، فرايت
نظرتها — لا أدري لماذا — تفيض عاطفة ورقة ، وذكرتنى بواحدة من
تلك النظرات التى سبق أن عبثت بحياتى فى كثير من الاستبداد
والظفیان . لاح لى أنها تنتظر أن أسألها ، ولكننى صمت وقد تملكنى
اضطراب لاسبيل الى وصفه . كان وجهها قد اكتسى شحوبا يضرب
الى الزرقة ، ويغضغ ما بنفسها من قلق واضطراب . وكانت يدها
تطوف على المنضدة بلا هدف ، ولاحظت انها ترتعش ارتعاشة خفيفة ..
وكان صدرها يعلو من حين الى حين ثم يتجمد . كأنها كانت تحبس
نفسها . وضقت ذمعا بهذه المهزلة فى آخر الامر ، وأوشكت أن أقطع
جبل الصمت بطريقة لا تخلو من غلظة ، اى بأن أقدم لها قدحا من
الشاي ، فإذا هى تنهض فجأة ، فتطبع على شفتى قبلة رطبة
محركة ، فراغ بصرى ، ودار راسى ، وعانقتها عناقا قويا ، عناق

فتى موله . ولكنها انسلت من بين يدي كالأفعى ، وهمست فى اذنى
«قول : » متى نام جميع الناس فى هذا المساء ، تعال الى شاطئ
البحر » . ثم خرجت مسرعة كالسهم ، فقلبت الغلاية والشمعة
التي كانت على الأرض .

صاح صاحبى القوزاقى الذى كان قد استقر على فراشه وأمل
ان يستدفئ معاً بقى من الشاي :
- ان بها جناً !
عندئذ فقط ، ثبت الى نفسى .

وبعد ساعتين على وجه التقريب ، حين صمت كل شيء فى المرفأ ،
أبقت القوزاقى وقت له :

- متى سمعت طلقة مسدس ، فأسرع الى الشاطئ . فحفظت
عيناه ، وقال لى دون وعى : نعم يا صاحب النبالة .

ووضعت مسدسى فى حزامى ، وخرجت . كانت تنط تنتظرنى
على حافة المنحدر ، وكانت ثيابها أخف من خفيفة . وكان شال
صغير يلف جسمها اللدن .

قالت وهى تمسك يدي :
- اتبعنى .

واخذنا نهبط . ما زلت أسألك الى الآن كيف صنعت يومئذ حتى
لم تدق منقى . فلما وصلنا الى تحت ، اتجهنا يمينا ، سائرين فى
الممر الذى تبعت فيه الأعمى الليلة البارحة . ما كان القمر قد طلع
بعد ، وليس فى قبة السماء الزرقاء القائمة الا نجمتان صغيرتان
تتالان كأنهما مناران يهديان سراً الليل . وكانت الأمواج ثقيلة
تتعاقب بحركة واحدة مطردة ، ولا تكاد تقوى على رفع القارب
المنعزل الذى شد الى الشاطئ . قالت :

- لنصعد الى القارب .

فترددت قليلا ، لأننى لا أحب النزوهات العاطفية فى الماء كثيرا ،
ولكن أوان التراجع كان قد فات ، فلقد وثبت الى القارب ، ففعلت
مثله ، ولم أشعر الا ونحن فى عرض البحر ، قبل أن أدرك ماذا
بحرى . قلت لها غاضبا :

- ما معنى هذا ؟

فأجاب ، وهى تجلسنى وتطوقنى بذراعيها :

— معناه اننى احبك .

وجعلت خدها على خدى ، فاحسست يزفرائها الحارة تلفح وجهى . وفجأة ، سمعت شيئا يسقط فى الماء . فمددت يدى الى حزامى فلم أجد شيئا ... المسدس ! ... لقد راودتنى شبهة رهيبية ، فصعد الدم الى راسى والتفت فرايت اننا بعدنا عن الشاطئ مسافة خمسين ساجين* على وجه التقريب ، وانا لا أعرف السباحة ! فأردت ان أدفعها عنى ، ولكنها تشبثت بشيأى كالهرة ، ثم أوشكت فجأة ان تلقى بى الى الماء بدفعة قوية . وترنح القارب . ولكننى صمدت . وكان بيننا عندئذ صراع بائس . لقد ضاعف الغضب قواى ، ولكننى سرعان ما لاحظت اننى دون خصمى خفة ، فقبضت على يديها الصغيرتين وضغطتهما ضغطا شديدا ، وانا أقول لها :

— ماذا تريدن ؟

فقبضت أصابعها ، ولكنها لم تصرخ . ان طبيعة الأفعى فيها ،
تتحمل وتتجلد .
قالت :

— لقد رأيت ، وستشئ بنا !

واستطاعت بجهد كبير ان تقبلى على حافة القارب ، فأصبح نصف جسمى ونصف جسمها يتدليان خارج القارب ، وأصبح شعرها يلامس صفحة الماء . فأشرفنا على الهلاك . فاستندت بركبتى الى قاع القارب ، وأمسكت قديرتها باحدى يدى ، وأمسكت خناقها باليد الأخرى ، فتركت ثيابى ، فالتقيتها الى البحر بمثل ملح البصر . كان الظلام مخيما ، ورأيت رأسها بين الزيد مرتين ، ثم لم أر شيئا .

ووجدت فى قاع القارب نصف مقدا فقديم ، فاستطعت بجهود طويلة أن أصل أخيرا الى الشاطئ . وفيما كنت أسير الى الضفة لأعود الى منزلى حانت منى التفاتة الى الجهة التى جاء اليها الأعمى أمس ينتظر بحار الليل . وكان القمر قد بدأ يزحف فى السماء ، فترأى لى شبح أبيض يجلس الى الشاطئ ، فاقتربت بخطا مختلسة يدفعنى حب الاطلاع ، وانبطحت على العشب ، عند ذروة المنحدر ، فكنت اذا مددت راسى أستطيع أن أرى كل ما يجرى تحت . ورأيت حوريتى ... لم يدهشنى ذلك كثيرا بل أسعدنى

* ساجين : وحدة لقياس الطول تساوى ٢,٥١٢ مترا

تقريبا . كانت تعقف شعرها الطويل الذى يتقاطر منه الزبد . وكان قميصها المبلل يرسم جسمها اللدن ، وصدرها الناهد . وما هى الا لحظة حتى ظهر فى الأفق البعيد زورق يقترب من الشاطئ سريعا . فلما وصل خرج منه ، كالأمس ، رجل يضع على رأسه قلبا تتريا ، ولكن شعره قد قص على طريقة القوزاق ، وفى حزامه مسكين كبيرة . قالت له :

- يانكو ، لقد ضاع كل شيء .

واستمر الحديث بينهما طويلا ، ولكن صوتهما كان خافتا جدا ، فلم استطع أن أسمع منه شيئا .

وقال يانكو أخيرا بصوت مرتفع :

- والأعمى .. أين هو ؟

قالت :

- لقد أرسلته ..

وبعد بضع دقائق ظهر الأعمى يحمل على ظهره كيسا وضعوه فى الزورق . وقال يانكو :

- والان أيها الأعمى ، اسمع جيدا ما أقوله لك . ستحرس المكان ... هل تفهم ماذا أعنى ؟ .. أن هناك بضائع ثمينة ... قل لـ ... (لم أسمع الاسم) ألا يعتمد على بعد الآن ، فالحالة هنا سيئة . لن يرانى أبدا . أصبح الأمر خطرا . سامضى أبحت من عمل فى غير هذا المكان . ولن يسهل عليه أن يجد رفيقا جسورا مثلى . قل له لو دفع مبلغا أكبر ، لما تركه يانكو . لن أعدم أن أجد عملا ، حيثما هبت ريح ، وهدر بحر .

ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

- انها لا تستطيع أن تبقى هنا ، فسوف آخذها معى . قل للمجوز انه آن لها أن تموت ... أن تذهب الى جهنم ! وهى لن ترانا على كل حال .

قال الأعمى بصوت متوسل :

- وأنا ؟

فكان جواب يانكو :

- وماذا تريد أن اصنع بك ؟

وفي أثناء ذلك كانت حوريتي قد وثبتت إلى الزورق وأخذت توميء لرقيقها أن يأتي ، فوضع يانكو شيئاً في يد الأعمى وهو يقول :

— اليك شيئاً تشتري به حلوى .

— هذا كل شيء ؟

— خذ أيضاً .

وسقطت قطعة من النقل على الصخرة ترون . فلم يتناولها الأعمى . ووثب يانكو إلى الزورق . وكانت الريح تهب من الشاطئ فنشرا شراعاً صغيراً ، ورأيتهما يتعدان بسرعة . وفي ضوء القمر رقص شراعهما الأبيض مدة طويلة بين الأمواج المظلمة . كان الأعمى لا يزال جالساً على الشاطئ ، وفجأة سمعته يجهش منتحباً ، وظل يبكي طويلاً ... أحزنني ذلك . لماذا رمانى القدر في هذه البيئة الهادئة ، بيئة هؤلاء المهرجين الشرفاء ؟ .. لقد كنت كالحصاة سقطت في نبع صاف فعكرته ... لقد عكرت عليهم هدوهم ... وكدت أهوى إلى القاع أيضاً كالحصاة .

عدت إلى مسكني . فرايت الشمعة تدوب عند المدخل ، في طاس من الخشب ، ورأيت القوزاقي يغط رغم أواصر في نوم عميق قابضاً على بندقيته بكلتا يديه . فتركته ينام ، وحملت الشمعة ودخلت إلى الغرفة . وأحسرتاه ! أن صندوقى الصغير ، وسيفي ذا الفمذ الفضي ، وخنجرى الداغستاني الذى أهدها إلى أحد الأصدقاء ، كل ذلك قد اختفى . عندئذ فقط عرفت ماذا كان يحمل ذلك الأعمى اللعين على ظهره . فأيقظت صاحبى القوزاقي بضربة خشنة ، وفضبت ، وزمجرت ، ولكن ما عساي أصنع ؟ ألا يكون من المضحك أن أشكو إلى السلطات صبياً أعمى سرقني ، وقتاة في الثامنة عشرة من عمرها كادت تفرقني ؟ من حسن حظي اننى أتيتحت لى في الغد فرصة السفر فتركت تامان . أما ماذا صار إليه الأعمى البائس والمعجوز ، فلا أدري .. ! ثم وفيم تعيننى أفرح الناس وآلامهم ، أنا الضابط المترحل ، المكلف فوق ذلك بمهمة ! ..

نهاية القسم الاول

الفصل الثاني

تمة يوميات بتشورين



الأميرة ماري

وصلت أمس الى بياتيجورسك ، واستأجرت بيتا يقع عند طرف المدينة ، على أعلى مكان ، بسفح جبل ماشوك ، حتى أن السحب تصل الى سقفى أيام العواصف . وحين فتحت نافذتى فى الساعة الخامسة من هذا الصباح امتلأت غرفتى برائحة الازهار النابتة فى الحديقة الصغيرة ، وكانت أغصان الشجر المزهرة تطل على من النافذة ، وتثر الریح على مكتبى فى بعض الأحيان شيئاً من أوراق زهرها الأبيض . انى لارى من الجهات الثلاث منظراً رائعاً . من الغرب أرى جبل يشنو ، برعوسه الخمسة الضاربة الى الزرقاء ، كأنه « آخر سحابة من سحب العاصفة المتبددة » * وفى الشمال ينتصب جبل ماشوك ، كأنه قبعة القرو على رأس رجل من بلاد فارس ، ويحجب عنى كل ذلك الجزء من الأفق . أما فى المشرق فالمنظر أبهى وأدنى الى الفرح : فى تحت ، تمتد أمامى زركشة المدينة الصغيرة ، الجميلة النظيفة ، وأسمع خرير الينابيع ، ينباع الاستشفاء ، وأصوات الناس تتكلم لفات شتى . ووراءها الجبال تتدرج صاعدة ، وتزداد زرقاء وأبخرة كلما أبعثت فى الصعود . وفى آخر الأفق تمتد سلسلة الدرى الفضية يغطيها الثلج ، تبدأ بجبل كازبك وتنتهى بجبل البروز ذى القمتين ... يا لها من فرحة أن يعيش الإنسان فى بلد كهذا البلد ! أن نشوة مرحة لتسرى فى عروقى كلها . الهواء نقى غرض كقبلة طفل ، والشمس دافئة ، والسماء زرقاء - ماذا أريد على هذا من مزيد ؟ لا مكان للأهواء والرغبات والحسرات هنا ... ولكن ها قد حانت الساعة ، يجب أن أمضى الى نبع اليزابت : فقد قيل لى أن صفوة الناس التى جاءت للاستشفاء بالماء تلتقى هناك .

... ..
سرت ، وأنا اهبط الى مركز المدينة ، فى شارع كبير ، فالتقيت بجماعات من الناس عابسة ، تصعد الجبل فى بطء . ان معظمها أسر ملاك كبار من السهوب ، هذا ما يلاحظه المرء فوراً من رندنجوت الأزواج الذى رث وأصبح لا يجارى الزى الحديث ،

* بيت من قصيدة يوشكين « السحابة » .

وكذلك من افراط نسائهم وبناتهم في التزين . لاشك انهم يستطيعون ان يعدوا على الاصابع جميع شباب « المياه » لانهم نظروا الى مستظلمين في غير قليل من اللطف ، غرتهم تفصيصة ردنجاتي البطرسبرجية ، ولكنهم ما لبثوا ان اشاحوا بوجوههم في استياء ، حين ابصروا على كتفى شاربات ضابط من ضباط القتال .

اما نساء السلطات المحلية ، وهن اللاتي يكرمن مثنى الضيوف ، فقد كان استقباهن الطف واجمل . كن يحملن في ايديهن نظارات ذات سواعد ، ولا يلقين كبير بال الى البدلة العسكرية ، كالاخريات ، لقد تعودن ان يلقين في القفاس قلوبا حساسة تحت الاضرار ذات الارقام ، وعقولا مثقفة تحت القبعات العسكرية البيضاء * ان اولئك السيدات لطيفات جدا . وليس للطهفن اتقضاء . ان لهن عشاقا جددا كل سنة وفي هذا ربما سر لطفهن الذي لا ينضب له معين . وبينما كنت اصعد الدرب الضيق الذي يؤدي الى ينبوع اليزابت مررت بجمهور من المدنيين والعسكريين الذين يشكلون - كما عرفت فيما بعد - طبقة خاصة بين الذين ياتون الى هنا ينشدون الاستشفاء بالماء . انهم يشربون ولكنهم يشربون شيئا غير الماء وقلما يتنزهون ويغازلون الحسان بشكل عابر . وانهم يقامرون ويشكون من الضجر الذي يستولي عليهم . انهم متائقون . فهم يصطنعون اوضاها اكاديمية وهم يغطسون كؤوسهم المغلفة في بشر الماء الكبريتي ، اما المدنيون فهم يضعون ربطات منق زرقاء ، والعسكريون يكشفون عن تخريم قمصانهم بفك ياقة البدلة . انهم يتظاهرون باحتقار عميق لمنازل الاقاليم ، ويتنهدون اسفا على الصالونات الارستقراطية في العاصمة ، التي حرموا من استقبالاتها .

ووصلت اخيرا الى البئر... ان على مقربة منه ، في ساحة صغيرة ، بيتا ذا سقف احمر فيه الحمامات ، وبعده ممر مسقوف يتنزه فيه الناس حين تمطر السماء . وهؤلاء ضباط جرحى جلسوا على مقعد كبير ، وقد شجبت وجوههم وظهرت عليهم امارات الحزن ، ووضعت عكايزهم الى جانبيهم . وسيدات يذهبن ويجنن في الساحة الصغيرة بخطا سريعة في انتظار تأثير الماء فيها . ان بينهن وجهين

* يشير الكاتب الى الضباط سليلي الطبقة النبيلة ، الذين جردوا من رتبهم وارسلوا الى القفاس منفيين ، لانهم شاركوا في عصيان كانون الاول ١٨٢٥ . كان الجنود الروس يضعون على رؤوسهم في القفاس قبة بيضاء ، وكان يشار الى رقبهم فوجهم على اوزار بدلةهم العسكرية.

جميلين أو ثلاثة . وفي الممرات المزروعة بأشجار الكرمة التي تغطي سفح جبل ماشوك ، كانت تظهر من حين إلى حين قبعات مزركشة هي قبعات النساء اللاتي يحبين العزلة اثنين اثنين ، لأننى الملح دائما إلى جانب هذه القبعات قلنسوة عسكرية ، أو قبعة مدورة كريمة . أما عشاق المناظر الطبيعية فقد برزوا على الصخرة الوعرة التي يقع عليها الجناح المسمى « معزف ايول » ، وينظرون إلى جبل الالبروز بنظارة مقربة . وكان بينهم مريان مع تلاميذهما ، وفدوا إلى المياه استشفاء من داء الخنازير .

وكنت ألث من التمتع فتوقفت عند حافة الجبل ، واستندت إلى زاوية بيت صغير ، وأخذت أسرح طرفي في هذه المناظر الخلابة ، فاذا بصوت أعرقه يهتف من ورأى :

— هه ، بتشورين ! أنت هنا منذ زمان ؟
فالتفت ، فاذا هو جروشنيتسكى ، فتعاقنا . لقد مرفته أثناء إحدى الحملات ، وقد أصيب برصاصة في ساقه ، ووصل إلى المياه قبلى بأسبوع .

ان جروشنيتسكى جندى قضى في الخدمة سنة واحدة لا أكثر . وهو يصرف غندوته إلى ارتداء معطف جندى مصنوع من جوخ غليظ ويحمل صليب القديس جرجس ، وهو صليب يعطى للجنود من غير ذوى الرتب . انه فتى جميل ، ملوح الجلد ، أسود الشعر ، يحسبه من براه أول مرة انه في الخامسة والعشرين من عمره ، مع أنه مأكاد يبلغ الواحدة والعشرين ، فاذا تكلم رمى رأسه إلى الوراء . وفتل شاربته في كل لحظة بيده اليسرى ، لأنه يستند باليمنى إلى عكازه . انه يتحدث بسرعة وتصنع . هو من أولئك الناس الذين يملكون لكل ظرف من ظروف الحياة جملا متفصحة جاهزة ، ولا يهزم الجمال البسيط ، ويرفعون لواء المشاعر النادرة ، والاهواء الرفيعة ، والالام الفذة . فادهاش الناس هو لذتهم الكبرى ، والحالمات من بنات الاقاليم يفتتن بهم ايما افتتان ، حتى اذا طعنوا في السن أصبحوا اما من ملاك الاراضى الهادئين ، واما من السكربين ، وقد يصبح أحدهم هذا وذاك في آن واحد . وكثيرا ما يتصف هؤلاء الناس بمزايا عالية ، ولكن لا في الشعر أبدا . ولقد كان هوى جروشنيتسكى أن ينشد الشعر ، وكان لا ينضب معينه متى خرج الحديث عن نطاق الأفكار العادية . ولم أستطع يوما أن أناقشه . انه لا يجيب على اعتراضاتك ، ولا يصفى اليك ، بل ينتظر أن تتوقف

من الكلام ، حتى يندفع في حديث طويل نظن ان له علاقة بما قلت ،
فاذا هو استمرار لحديثه هو لا اكثر .

وهو انسان هجاء ، وكثيرا ما تكون لدعاكه فكهة ، ولكنها لا تشتمل
على حقد ، ولا تصيب مقتلا ابدا . . . فلن يستطيع ان يقتل احدا
بكلمة . وهو لا يعرف الناس ، لا يعرف اوتارهم الضعيفة ، لانه طوال
حياته لم يهتم الا بنفسه ، وكان غايته ان يصبح بطل رواية . وقد
اراد ان يلقي في روع الناس انه لم يخلق لهذا العالم ، وانه ميسر
لما لا ادرى من آلام خفية . . ومن كثرة ما كرر ذلك على مسامع
الناس أصبح يصدقه هو نفسه . من اجل هذا يرتدى معطفه
الخشن ، معطف الجندي ، في كثير من الاعتزاز والفخر . وقد ادركت
انا هذه الحقيقة ، فهو لذلك لا يحبني ، رغم ان علاقتنا هي في الظاهر
من اقوى علاقات الصداقة . وهو يدعى الشجاعة والبسالة ، ولكنني
وايته اثناء القتال : كان يهز سيفه وهو يصرخ ، ويهجم مغمضا
عينيه . ما هذه هي الشجاعة الروسية ! . .
وانا ايضا لا احبه . وأشعر اننا سنصطدم يوما على ممر ضيق ،
فتقع الطامة على واحد منا .

واذا وجد اليوم في القفقاس ، فلا شك ان ذلك كان نتيجة تعصبه
الرومانسي . وانا على يقين انه في صبيحة اليوم الذي ترك فيه قرية
أبيه ، قال لامرأة ما من الجيران ، وهو متجهم الوجه : « انه لا سافر
للخدمة وكفى ، بل سافر باحسا عن الموت ، لان . . . » ولا شك انه
أضاف يقول وهو يغطي عينيه بيده : « لا ، لا ، يجب ألا تعرفي
(أو يجب أن لا تعرفي) ! لأن نفسك بريئة نقية ، فقد تهلع أشد
الهلع اذا عرفت ! وفيم أقول لك السبب ؟ ما انا عندك ؟ هل
تستطيعين ان تفهميني ؟ » الى آخر ما هنالك .

ولقد قال لي هو نفسه : « ان ما حملة على الالتحاق بفوج ك . . .
سيبقى الى الأبد سرا بينه وبين السماء » . على انه - حين يطرح
عنه قناعه التعميس - شخص ممتع مسل بعض الشيء . . . ومن
الشائق ان يراه المرء مع النساء ، فلا شك انه عندئذ ينشر ريشه !
التقينا اذن كما يلتقي صديقان قديمان ، وسألته عن الحياة في
بياتيجورسك ، وعن الأشخاص الذين يجدر ان يعرفهم المرء ممن
يمشون فيها ، فقال وهو يتنهد :

- الحق اننا نعيش حياة خالية من الشعر . في الصباح نشرب
الماء وتكون واهنين كجميع المرضى ، وفي المساء نشرب الخمر ونصبح

ثقبلى الظل كسائر الأصحاء . وهناك نساء ، ولكن المرء لا يجد في صحبتهم كبير متعة : يلعبن الورق ، ولا يجدن التائق في الملبس ، ويتحدثن بلغة فرنسية كريهة . ولم يأت من موسكو هذا العام الا الأميرة ليجوفسكايا وابنتها ، ولكننى لا أعرفهما . ان معطف الجنود الذى ارتديه أشبه بخاتم الجحود ، وما يشبه من اهتمام الناس يشغل على نفسى كالصدقة .

في تلك اللحظة . مرت بنا سيدتان ذاهبتان الى البئر : اولاهما متقدمة في السن قليلا ، والثانية صبية رشيدة خفيفة . لم أستطع ان ارى وجهيهما المختبئين تحت القبعتين ، ولكن ملابسهما تلزمت ادق قواعد الذوق الانيق : فلا شيء زائد عن حدود الاعتدال . كانت الصغرى ترتدى فستانا * Bris de Perles ويحيط بعنقها الرشيق منديل خفيف من الحرير . وكان حذاؤها العالى الأحمر ، بشد قدمها الدقيقة الى الكعب على أجمل صورة ، حتى ان أجهل الناس بأسرار الجمال لا يمكنه متى رآه الا يصيح ، من الدهشة على أقل تقدير . وكان في خطواتها الخفيفة ، على امتلائها بالنبالة ، شيء من العذرية والطهارة ، لا يمكن وصفه ، ولكن البصر يدركه . وحين مرت قربنا فاح منها عبق لا سبيل الى تفسيره ، عبق كالذى يخرج من رسائل حببية . قال لى جروشنيتسكى :

— هى الأميرة ليجوفسكايا ، وابنتها مارى ، كما تناديهما على الطريقة الانجليزية . وهما هنا منذ ثلاثة ايام فقط .
— ها ، وعرفت اسمها ؟

قال وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل :
— سمعته مصادفة . اعترف لك باننى لا احرص على ان اعرف اليهما . فالذى يخدم في الجيش يكاد يكون في نظره هؤلاء الأرستقراطيين المتعجرفين انسانا متوحشا ، لا يعنيه كثيرا ان يكون هنالك عقل يفكر تحت القبة المرقمة ، او قلب يخفق تحت معطف الجوخ الغليظ .
قلت متسما :

— مسكين هذا المعطف ! ولكن قل لى ، من هو هذا السيد الذى يتقدم نحوهما ويمد اليهما قدحا ، في كثير من اللطف ؟
— هو رايفتش ، رجل مفرط الاناقة من موسكو ، مقامر يعرف ذلك قورا من السلسلة الذهبية الكبيرة المعلقة بصدارته الزرقاء .

وانظر الى هذه العصا الكبيرة ! لكنها عصا روبنسون كروزيه ! ثم
انظر الى لحيته ، والى شعره * A la moulik ...
— انت تحقد اذن على النوع البشرى كله .
— هناك ما يبدو الى ذلك ...
— صحيح ؟

وفي اثناء ذلك كانت السيدتان قد غادرتا البئر ، فلما مرنا بالقرب
منا رفع جروشنيتسكى صوته قائلا بالفرنسية ، وهو يصطنع مع
عكازه وضعا دراميا :

— Mon cher, je hais les hommes pour ne pas les mépriser,
car autrement la vie serait une farce trop dégoûtante. ***
فالتفتت الاميرة الصبية الجميلة ، وكافات الخطيب بنظرة
مستطلعة طويلة لا يمكن تعريف معناها ، ولكنها لم تكن نظرة ساخرة
على كل حال . ولا اكتمكم اننى فى اعماق نفسى هناك من صميم
فؤادى . قلت له :

— ان الاميرة مارى فانتسة .. ان لها عينين مخمليتين ، نعم
مخمليتين ، وانصحك بانتحال هذا التعبير لنفسك اذا تكلمت عن
عينيهما فيما بعد . وان اهدابها تبلغ من الطول ان اشعة الشمس
لا تنعكس فى البؤبؤ . احب هذه الامين التى ليس لها بريق . انها
عذبة جدا . يحس المرء انها تلاطفه ... على اننى اعتقد ان ليس
فى وجهها من جمال غير هذا . ولكن هل اسنانها بيضاء ؟ هذا امر
اساسى ! يؤسفنى ان عبارتك المتنفخة لم تحملها على الابتسام ! ..
فقال جروشنيتسكى مستاء :

— انك تتحدث عن امرأة جميلة حديثك عن حصان انجليزى .
فقلت محاولا ان اصطنع لهجته :

— Mon cher, je méprise les femmes pour ne pas les aimer,
car autrement la vie serait un mélodrame trop ridicule. ***

وهنا ادرت له ظهرى وابتعدت ، وقضيت نحوا من نصف ساعة
اتنزه فى شعاب الكروم بين صخور الكلس والجلودع . واشتدت
الحرارة ، فاردت ان اعود الى بيتى ، فلما مررت بالقرب من النبع ،

* نص على طريقة الفلاح الروسى .
*** يا عزيزى . انا اكره الناس كي لا احتقرهم ، والا اصبحت الحياة سبحة
لدفن الى كثير من الاشعزاز .
*** يا عزيزى ، انا احتقر النساء كي لا احبهن ؟ والا غدت الحياة ميلودراما
لدفن الى كثير من الضحك « بالفرنسية فى الاصل »

وقفت تحت السقيفة أنفـس في ظلها ، فأتـبـح لى أن أرى مشهـداً
شائـقا : الاشـخاص قد توزعوا هـكـذا : الأميرة الأم والمتظرـف
الموسكوبى جالسـان على مقعد ، وقد استفرقا فى حديث يلوح خطيرا ،
والفتاة التى لعلها فرغت منذ لحظة من شرب كأسها الأخيرة ، تسير
حالة بالقرب من البئر حيث يقف جروشـنيتسكى . ولم يكن فى
الساحة الصغيرة أحد غير هؤلاء .

فاقتربت ، واختبأت وراء زاوية من السقيفة . وفى هذه اللحظة
سقط كأس جروشـنيتسكى على الرمل ، فانحنى يحاول التقاطه ،
ولكنه لم يستطع ذلك بسبب ساقه المريضة . مسكين ! ما أكثر
ما بذل من جهود وهو يستند الى عكازه ، دون أن يظفر بالكأس ! فى
هذه اللحظة كان وجهه المعبر ينم حقا عن الم .
كانت الأميرة مارى قد رأت هذا كله خيرا منى .

فاندفعت نحو جروشـنيتسكى خفيفة كـمصـفـور ، وانحنيت على
الأرض ، فتناولت الكأس ، ومدتها اليه بحركة لا نهاية لسحرها ،
واصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، ثم التفتت بسرعة الى جهة
السقيفة ، فلما تأكدت من أن أمها لم تر شيئا ، ارتدت اليها هدوؤها
قورا . وحين فتح جروشـنيتسكى فمه ليشكر لها جميلها ، كانت
قد ابتعدت . وبعد دقيقة خرجت من الرواق مع أمها ورايفتش ،
ومرت بالقرب من جروشـنيتسكى ، وهى تتخذ هيئة الجد والوقار ،
حتى أنها لم تلتفت الى وراء ، ولا لاحظت تلك النظرة المولمة التى
تابعها بها وهى تهبط الجبل الى أن غابت وراء زيرفونات الشارع .
ثم لمحت قبعتها فجأة فى الشارع ، ورايتها تدخل باب بيت من أجمل
بيوت بياتيجورسك ، وكانت الأميرة تتبعها ، فلما وصلت الى الباب
استأذنت رايفتش .

عندئذ لاحظ الجندى المسكين وجودى . قال وهو يضربنى بيده
ضربة قوية :

— هل رأيت ؟ انها لـلاك وكفى ! ..

قلت له أتـكـلف السـداجة :

— لماذا ؟

— أنت اذن ما رأيت ؟

— بل رأيتها تناولت كأسك . ولو كان الحارس هناك لفعل

ما فعلت ، ولاسرع الى ذلك أكثر منها ، لانه قد يأمل فى عطاء . ثم
انها قد أشفقت عليك : كان وجهك يتجمع تـجـمـدا رهيبا وأنت تستند
الى ساقك الجريحة ! ..

— الم بهزتك ، في تلك اللحظة ، أن ترى روحها تشع في وجهها ؟
— لا ..

لقد كذبت ، ولكنني كنت أريد أن احنقه . اني لاهوى الماكسة بغيرتى ، وحياتي كلها لم تكن إلا نسيجا من المتناقضات الحزينة الشقية بين عقلى وقلبي . يكفي أن أرى شخصا متحمسا حتى أصبح باردا كالثلج ، وأعتقد اننى اذا عاشرت شخصا بارد العاطفه رخوا أصبحت من أشد الجامحين جموح هوى . ويجب أن أعرف أن شعورا مؤلما أعرفه من قبل قد عض قلبي قليلا في هذه اللحظة . انه الفيرة . أقول ذلك بلا لف ولا دوران ، لأننى تعودت أن اعترف بكل شيء صراحة . ثم انه ليندر أن نجد شابا (أقصد شابا من الطبقة الراقية تعود على أن يتعلق الناس غروره) يلتقى بامرأة جميلة ، وينتبه اليها خلصة ، ثم لا يؤذيه أن يراها ، على حين فجأة ، تؤثر عليه ، إثارا واضحا ، شخصا آخر لا تعرفه أكثر مما تعرفه هو .

وهبطنا الجبل صامتين ، ومررنا في الشارع أمام البيت الذى غابت فيه الحسنة . لقد كانت جالسة الى النافذة . فشددنى جروشنيتسكى من كفى ، وأرسل اليها نظرة من تلك النظرات ، العاطفية المضطربة في آن واحد ، التى ليس لها في النساء كبير تأثير . أما أنا فصوبت اليها نظارتى . فرايت أن نظرة جروشنيتسكى تجعلها تبسم ، وإن نظارتى الوقحة تفضيها كثيرا : كيف يجرؤ ضابط يخدم في القفقاس أن يسدد نظارته الى أميرة من موسكو ؟ ..
١٣ ايار .

في هذا الصباح اتى الى الطبيب . أن اسمه فرنز ، ولكنه روسى . وهل في هذا عجب ؟ لقد عرفت المانيا كان يدعى ايفانوف . ان فرنز شخص فذ في أكثر من ناحية . أنه ريبى ماذى ، كسائر الأطباء على وجه التقريب . وهو الى ذلك شاعر ، أقول هذا جادا لا هازلا : هو شاعر دائما في أعماله ، وأحيانا في أقواله ، وإن لم ينظم في حياته بيتين من الشعر . لقد درس جميع أوتار القلب . الإنسانى ، كما تدرس الأعصاب في جثة تشرح ، ولكنه لم يجن من معرفته أى فائدة يوما ، كما يتفق لعالم كبير في التشرية أن لا يشفى من حمى ! وكان من عادة فرنز أن يسخر من مرضاه خفية ، ولكننى رأيتنه يبكى وهو ينحنى على جندي يحتضر ... كان فقيرا ويحلم بالملايين ، ولكنه ما كان ليفعل « الأمر » طمعا في مال . قال لى يوما انه يؤثر أن يخدم عدوا على أن يخدم صديقا ، لأن في خدمة

الصديق شيئا من بيع الاحسان ، في حين ان الكره يزداد على قدر نبل الخصم . وكان سليلط اللسان في اغتياب الناس : أكثر من رجل طيب أحاله هجاؤه في أعين الناس غرا أحق . وقد أشاع عنه أطباء المياه ، خصومه الحاسدون ، انه يصور مرضاه تصويرا كاريكاتوريا فاستاء المرضى منه ، وكادوا ينقطعون جميعا عن استشارته . وحاول أصدقاؤه ، اعني جميع המתأثرين ممن يخدمون في القفقاس ، أن يردوا الى الناس ثقتهم به ، بعد أن تزعزعت ، ولكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا .

كان من أولئك الناس الذين يزعجك منظرهم أول مرة ، ولكنه يمجبك بعد ذلك ، متى عرفت عينك أن تكشف في ملامحه المتنافرة روحا مجربة نبيلة رفيعة . لقد رأينا نساء يحبين رجلا مثله حبا مجنوناً ، ولا يبادلن دما ماتهم بجمال أنضر الشباب عوداً وأزهارهم ورداً ، كانديميون * . يجب أن نعتزف للنساء بهذه الميزة ، وهي انهن يدركن جمال النفس بفريرة ، ولعل هذا هو السبب في أن رجلا مثل فرنر يحبن أيضا أعنف الحب .

كان فرنر قصير القامة ، نحيلاً ، رهيفاً ، كطفل . وكانت إحدى ساقيه أقصر من الأخرى ، كبايرون . وكان رأسه يبدو كبيراً بالقياس الى جسمه . وكان يخلق شعر رأسه معطاً فلو رأى عالم من علماء الجمجمة ما يظهر في مجتمه العارية من نتوءات ، لأدهشه هذا التزاوج العجيب بين ميول متعارضة أشد التعارض . وان عينيه الصغيرتين السوداوين اللتين لا تستقران على حال من القلق ، محاولان أن تسبرا أفوار فكره . وترى من ملبسه انه ذو ذوق ، وأنه يعنى بهندامه ، قفازه الضارب الى الصفرة يغطي يديه الصغيرتين المصيتتين ، وردنجوته وربطة عنقه وصدارته سوداء اللون دائماً . ولقد لقبه الشباب باسم مفستوفيليس * . فكان يتظاهر بالاستياء من ذلك ، ولكن هذا اللقب كان يتملق غروده في أصباق نفسه . لقد تفاهمنا بسرعة . وانعقدت بيننا أواصر التعارف ، أقول التعارف ولا أقول الصداقة ، لأنني في حقيقة الأمر عاجز عن الصداقة ، ذلك لأن أحد الصديقين لا بد أن يكون عبداً للآخر ، ولو أن أحداً منهما لا يريد أن يعترف بذلك لنفسه في كثير من الأحيان .

* كانديميون : هو شاب - في القصص اليونانية القديمة - يرمز الى الشباب والجمال الخالدين
* هو اسم الروح الشريرة في الحكايات الإلانية القديمة ، وربما يقصد المرمونترف هنا شخصاً من مسرحية جوته « فاوست »

وانا امرؤ لا يمكن أن اكون عبدا ، كما ان القيادة متعبة في هذه الحال ، اذ لابد لمن يقود من أن يجيد الخداع . ثم اننى املك خدما ومالا ، فما لى ولهذا كله ...

واليكم كيف تعارفنا : لقد لقيت فرنر في س ... ، في حلقة من الشباب غفيرة صاخبة ، ودار الحديث في آخر السهرة فلسفة وميتافيزيقا . كنا نتحدث عن العقائد ، وكان لكل منا عقائده التى تختلف عن عقائد الآخرين .

قال الدكتور :

— اما أنا فلا اعتقد الا بشيء واحد ...

قلت تدفنى الرغبة في معرفة رأى هذا الشخص الذى ظل الى ذلك الحين صامتا :

— ما هو هذا الشيء ؟

قال :

— اننى ساموت في ذات صباح ، قريب أو بعيد.

قلت :

— أنا اغنى منك ... لاننى اعتقد بشيء آخر ايضا : هو اننى في ذات مساء مشنوم ولدت .

ووجد جميع الناس أن ما نقوله سخف . ومع ذلك لم يقل أحد منهم كلاما أقرب منه الى العقل . ومنذ ذلك الحين تميزنا كلانا عن العامة . وكنا نلتقى كثيرا ، فتنجاذب أطراف الحديث في شئون مجردة جادين ، الى أن لحنا في ذات لحظة ان كلا منا يتلاعب بالآخر ، فنظر كل منا الى صاحبه نظرة صارمة ، كما كان يفعل العرافون الرومانيون ، على ما يزعم شيسشرون ، ثم انفجرتنا ضاحكين ... وظللنا نضحك مدة طويلة ، ثم افترقنا ، وقد سر كل منا بهذه السهرة .

كنت مستلقيا على أريكة ، انظر الى السقف وقد وضعت يدي تحت عنقي ، حين دخل فرنر الى غرفتي . فجلس على أحد المقاعد ، بعد أن وضع عصاه في ركن من أركان الغرفة ، وأبلغنى وهو يتشأب أن الجو حار في الخارج ، فأجبتة بأن الدباب يزعجنى ، ثم صمتنا . قلت له بعد لحظة :

— لاحظ يا عزيزى الدكتور أن الدنيا تصبح مملة اذا خلت من الحمقى . انظر : نحن هنا رجلان ذكيان ، نعلم مقدما اننا نستطيع أن نتناقش في كل امر الى غير نهاية ... ونحن لذلك لا نتناقش في

أى أمر . ان كلا منا يعرف تقريبا جميع ما يدور فى رأس الآخر من أفكار خفية . ورب كلمة واحدة هى عندنا قصة برمتها . اننا نرى بذرة كل عاطفة من عواطفنا من خلال جميع الحجب . وما هو محزن يتراءى لنا مضحكا ، وما هو مضحك يبدو لنا محزنا ، ويمكن القول على وجه العموم اننا لا نحفل بشيء ، غير انفسنا . لذلك لا يمكن أن يقوم بيننا تبادل فى العواطف والأفكار . نحن نعرف كل منا عن الآخر كل ما نريد أن نعرفه ولا نريد أن نعرف أكثر من ذلك ، وليس لنا إذن الا مخرج واحد : هو أن نتبادل قص الحكايات . فهيا قص على حكاية من الحكايات .

وتعبت من هذا الحديث الطويل ، فاقمضت عيني ، وأخذت أثواب ، فقال لى الدكتور بعد لحظة من تفكير :

— فى كلامك الملتبس ، مع ذلك ، فكرة !

— بل فكرتان !

— قل لى الأولى اقل لك الثانية .

— أبدا .

قلت ذلك وأنا أنظر الى السقف وأبتسم بينى وبين نفسى . قال :

— أنت ترغب فى مزيد من المعلومات عن شخص وانسد الى المياه ، وأنا أعرف من هو ذلك الشخص ، لأنهم طلبوا معلومات عنك هناك .

— دكتور ، يستحيل علينا حتما أن نتحدث : ان كلا منا يقرأ ما بنفس الآخر .

— الى الآن بالفكرة الثانية .

— الفكرة الثانية هى هذه : كنت أريد أن تقص انت شيئا على ، أولا لأن الاستماع لا يتعب كما يتعب الكلام ، ثانيا لأن ذلك لا يورطنى فى أن أقول أكثر مما يجب أن أقول ، ثالثا لأن المرء يستطيع بالاستماع أن يلم بأسرار غيره ، رابعا ، لأن الأذكاء من أمثالك يؤثرون أن يكون أمامهم مستمعون لا محدثون . ولنتنقل ، بعد ، الى الموضوع . ما الذى قالته لك الأميرة الأم عنى ؟

— انت واثق انها الأم ... لا البنت ؟

— واثق .

— لماذا ؟

— لان البنت سألت عن جروشنيتسكى .

- انت فى النفاذ الى الامور صاحب موهبة عظيمة . لقد قالت الفتاة انها متاكدة من ان هذا الشاب الذى يرتدى معطف الجنود ضابط حرم من رتبته على اثر مبارزة ...

- ارجو ان تكون قد تركت لها هذا الوهم المتع !
- طبعا .

فهمت فرحا :

- لقد وجدنا العقدة . وسنمضى بعد الان بالحل الذى ستنهى اليه المهزلة . يا بى القدر ان يتركنى الضجر ، هذا واضح ...
قال الدكتور :

- احسن سلفا ان جروشنيتسكى المسكين هذا سيكون ضحيتك - تابع كلامك يا دكتور .

- قالت الام ان وجهك ليس غريبا عليها ... فقلت لها لعلك رائته ياسيدتى بيطرسبرج ، فى المجتمع ... وذكرت لها اسمك ... كانت تعرف اسمك . يظهر ان قصتك اثارت هناك كثيرا من الجلبة . واخذت الاميرة تقص على مغامراتك ، ولا شك انها اضافت الى اقوال الناس تعليقات من عندها ... وكانت ابنتها تصفى اليها فى كثير من الاستطلاع ، حتى اصبحت فى خيالها بطيلا من ابطال الروايات ... ولم اكذب شيئا مما قالته الاميرة ، رغم علمى بان ما تقوله هراء سخيف .

فهمت وانا امد يدي لمصافحتها :

- انت صديقى !

فشد الدكتور على يدي وقد بدا فى وجهه التأثير ، وقال :

- اذا شئت قدمتك اليها ...

فقلت وانا اضرب كفا بكف :

- عفوك ... هل يقدم الابطال ؟ انهم يعرفون حين ينقلون

حيبتهم من موت محقق ...

- هل تنوى حقا مغالبة الاميرة الصغيرة ؟

- ابدا ، ابدا . هانا اظفر اخيرا يا دكتور : انك لا تفهمنى .

وقلت بعد لحظة من صمت :

- ويوسفنى ذلك ... اننى لا ابوح ابدا بأسرارى ، بل احب

كثيرا ان تحزر حزرا ، حتى أستطيع ان أنفيها متى أردت . ولكن

يجب ان تصف لى الام وابنتها ، وان تقول لى من هما .

- الام اولا : هى امرأة فى الخامسة والأربعين من عمرها ، جيدة

المعدة ، ولكنها فاسدة الدم ، على خديها بقع حمراء . قضت في موسكو النصف الثانى من عمرها ، فسمت هناك من قلة العمل وترهلت . وهى تحب الحكايات البذيئة ، وقد تقول هى نفسها أشياء جريئة ، حين لا تكون ابنتها هناك . لقد قالت لى ان ابنتها بريئة كحمامة . وما شأنى أنا فى هذا ؟ وددت لو أجيبها : « اطمئنى بالأ ، فلن أقول هذا لأحد » . الأم تستشفى من الروماتزم ، والبنت الله أعلم بما تستشفى منه ! ولقد نصحت لهما بأن تشرب كل منهما كأسين من الماء الكيريتى فى اليوم ، وأن تستحما بالماء الممدنى مرتين فى الاسبوع . ويظهر أن الأم لم تتعود الأمر والنهى ، وهى تفيض احتراما لذكاء ابنتها ، ولثقافة ابنتها ، التى قرأت بايرون بالانجليزية كما انها تعرف الجبر . يظهر أن الفتيات ، بموسكو ، اندفنن فى ميدان العلوم ، بينما أنهن ليحسن صنعا ! فالرجال ، هنا ، على وجه العموم ، ليسوا على حظ وافر من الظرف ، ولاشك ان المرأة الذكية لا تطيق أن تلهو معهم . والأم تحب الشباب كثيرا ، أما ابنتها فتتظر اليهم فى شيء من الاحتقار . تلك عادة من موسكو . هناك لا يستملحن الا العقول الذكية ذات الأربعين عاما .

— هل كنت بموسكو يا دكتور ؟ ..

— نعم ... كان لى فيها زبائن .

— كمل ..

— اعتقد اننى قلت لك كل شيء .. ها ! نسيت : يبدو أن الصبية تحب حديث العاطفة والهوى وما الى ذلك . ولقد قضت شتاء بيطرسبرج ، فلم تسرق فيها ولا سيما فى مجتمع الاكابر : يظهر ان الناس استقبلوها هناك استقبالا باردا .
— ألم تر عندهما اليوم أحدا ؟

— بلى .. كان عندهما شخص من العاشية ، وضابط من الحرس شديد التبرج ، وسيدة وصلت منذ قريب ، تمت الى الأميرة بقرابة من ناحية زوجها ، سيدة جميلة جدا ، ولكنها تعاني مرضا شديدا فيما يبدو ... ألم تلقها عند البئر ؟ انها شقراء ، متوسطة طول القامة ، متسقة القسمات ، شاحبة اللون كالمصدورين ، وعلى خدها الايمن شامة سوداء . لقدخطف وجهها بصرى، فانه معبر جدا فندمتم بينى وبين نفسى :

— على خدها شامة ؟ أهذا ممكن ؟

فنظر الى الدكتور، وقال مفخما كلامه ، وهو يضع يده على قلبى :
— أنت تعرفها !

ماذا صحيح ، ولقد اشتدت خفقات قلبى .
قلت له :

— أنت الآن المنتصر ، ولكننى أعتد عليك ، لا تفضحنى . اننى
ما رأيتها بعد ، ولكننى أبصر فى هذه الأوصاف ، يقينا ، وجه
امراة أحببتها منذ زمن بعيد . فلا تأت على ذكرى بكلمة ، وإذا
سألتك فحدثها عنى بسوء .

فقال قرنر وهو يهز كتفيه :
— لك ما تريد .

فلما ذهب الدكتور شعرت بحزن شديد يقبض صدرى . أهى
الصدفة تجمعنا مرة أخرى فى القفاس ، أم أنها تعمدت ان تجيء
الى هنا ليقتنبا بأنها ستلقانى ؟ وما عسى أن يكون لقاؤنا ؟ ولكن ،
اولا ، أهى هى حقا ؟ اننى ما أخطأت يوما فيما أوجس من مشاعر!
ما من رجل يسيطر عليه الماضى كما يسيطر على . فإن ذكرى الحزن
أو الفرح لتترجع فى نفسى ترجعا أليما ، وتخرج منها دائما نفس
الأصوات .. هكذا شاءت الأقدار أن أكون . لا أنسى شيئا ، لا
أنسى شيئا .

بعد الغداء ، فى نحو الساعة السادسة ، ذهبت الى الشارع
الكبير . كان الشارع يقص بالناس ، وكانت الأميرة وابنتها جالستين
على أحد المقاعد ، وكان الشباب يحومون حولهما ، فاتخذت لى
مكانا على مقعد آخر يبعد قليلا عن ذلك المقعد . واستوقفت ضابطين
أعرفهما من د... وأخذت أقص عليهما حكاية... ويظهر ان الحكاية
كانت هزلية كثيرا ، فلقد أخذوا يضحكان كالمجانين . واجتذب حب
الاستطلاع الى حلقتنا بعض من كانوا يحيطون بالأميرة . وشيئا
فشيئا هجرها الجميع وانضموا إلينا . لم ينضب معينى . كانت
حكاياتى فكهة الى درجة الهديان ، وكان تندرى على من يمر أمامنا
من أشخاص متفردين خبيثا الى حد الجنون ... وظللت أفكه
جدهورى وأبهجه الى أن غابت الشمس . وقد مرت الأميرة الصغيرة
من أمامى عدة مرات ، وهى تمسك بيد أمها ، يصحبهما عجوز
قصير أرج . وكان بصرها حين يقع على فى كل مرة يعبر عن الفيظ .
وان حاولت أن تظهر بمظهر من لايبالى .

وسألت شابا عاد إليها على سبيل الأدب :

— ماذا كان يقص لكم ؟ لاشك ان حديثه كان شائقا ؟ لعله كان يحدثكم عن مآثره في الحرب ؟

قالت ذلك بصوت عال ، وربما كانت تنوى أن تغمز من قناني .
قلت في نفسي : « هاها ... ها أنت تفضيبن اذن ابنتها الأميرة
العزيزة ... انتظري ، فلسوف ترين ما هو أدهى من ذلك » .
وكان جروشنيتسكى يتبعها كحيوان كاسر ، ولا يفارقها بنظره .
أراهن على أنه سيطلب أن يقدمه أحد الى الأميرة غدا . وسيسرهما
ذلك كثيرا ، لانها ضجرة .

١٦ ايار .

لقد تقدمت اعمالي خلال يومين تقدما هائلا . ان الأميرة الصغيرة
حائقة على ، ما في ذلك ريب . حتى لقد نمت الى انها افتاتبتني
مرتين أو ثلاث مرات ، بقدرح لا يخلو من مراة ، ولكنه لا يخلو
من كثير من مداراة . انها لتستغرب كثيرا كيف أن رجلا اختلف
الى المجتمع الراقى ، وعرف بنات عمها وعماتها في بطرسبرج ،
لا يحاول أن يتعرف اليها . اننا نلتقى كل يوم عند البئر في الشارع
الكبير . وأحاول بكل ما أوتيت من قوة أن انتزع منها عابداها
المعجبين بها ، وهم من ضباط الحاشية البارزين ، ومن الموسكويين
الشاحبين وغيرهم ، وكنت اظفر بذلك دائما على وجه التقريب .
وانا امرؤ أكره أن استقبل الناس في بيتي ، ولكن بيتي يعج بهم
الآن في كل يوم ، يتغدون ويتعشون ويلعبون . ان الشهبانيا التي
أقدمها لهم تنتصر على ما في عينيها الجميلتين من قوة جاذبية
مغناطيسية !

لقيتها أمس في مخزن تشيلاخوف ، تساوم على سجادة رائعة من
سجاد العجم . كانت تضرع الى أمها أن لا تتباخل ، فان هذه
السجادة ستكون جميلة جدا في مخدعها !.. فزدت عليها أربعين
روبلا ، وأخذت السجادة . فكافأنتني على ذلك بنظرة يلتمع فيها
حنق يفتن اللب . وتعمدت في وقت الفداء أن أرسل حصاني
الشركسي يتنزه تحت نوافذ بيتها ، وقد فرش ظهره بهذه السجادة .
وقال لي فرنر ، الذي كان في تلك اللحظة عندهما ، ان أثر ذلك في
تفسها كان أثرا دراميا شديدا . ان الأميرة الصغيرة تريد أن تؤلب
جميع الناس على ، حتى لقد لاحظت على ضابطتين من ضباط
الحاشية انهما أوشكا أن لا يلقيا على التحية أثناء وجودها ، ولكن
ذلك لا يمنعهما من المجيء الى بيتي للفداء كل يوم .

اما جروشنيتسكى فقد اصبحت حاله غريبة . انه يسير ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، لا يعرف احدا ولا يلوى على شيء . وكأنما شفيت ساقه بسحر ، فهو الآن لا يكاد يرج . وقد اتيح له ان يخاطب الاميرة الأم ، وان يثنى على ابتها . ولا شك انها ترضى بالقليل ، ولا تلحف ، فها هي ذى ترد تحيته منذ ذلك الحين بابتسامة محبة لطيفة .

وسألنى أمسى :

— أنت اذن تصر على ان لا تتعرف الى السيدتين ليجوفسكايا ؟
قلت :

— نعم .

قال :

— ولكن بيتهما أمتع بيوت المياه قاطبة ... ان الطبقة الراقية كلها هنا ...

— يا عزيزى ، هذه الطبقة الراقية تزعجنى كثيرا .. هنا أو هناك . ولكن هل تتردد أنت عليهما ؟

— لم اذهب اليهما بعد ، لقد تحدثت مع الاميرة الصغيرة مرتين أو ثلاث مرات ، ولكن المرء يخجل أن يفرض نفسه في بيت ، رغم ان هذا مألوف هنا ... لو كان لى على الأقل شارات ضابط ...

— عفوا ، انك على ما أنت عليه أكثر لفتا للاهتمام . وكل ما فى الامر انك لا تعرف الاستفادة من مزايا الظرف الذى أنت فيه ... ان معطف الجنود الذى ترتديه يجعلك فى نظر فتاة عاطفية بطلا وشهيدا .

فابتسم جروشنيتسكى ابتسامة الرضا ، وقال :

— دمعك من هذا الكلام ! ..

فاردفت أقول :

— أنا واثق من ان الفتاة تحبك منذ الآن .

فاحمر حتى الاذنين ، وتجهم .

ايه ايها الفرور ، أنت الرافعة التى كان يبحث عنها أرشميدس

ليرفع العالم ! ..

قال جروشنيتسكى وهو يتصنع الزعل :

— أنت تحيل كل شيء الى مزاح ... فالفتاة ، أولا ، لا تعرفنى

الا قليلا جدا ..

— النساء لا يحببن الا من لا يعرفنه .

— ولكننى لا اطمع فى ان اعجبها . كل ما فى الامر اننى أريد التعرف الى أسرة ممتعة ، ومن المضحك ان تداعبنى آمال أخرى... أما أنتم ، يا غزاة بطرسبرج ، فشأنكم شأن آخر ... يكفى ان تنظروا الى امرأة حتى تذوب قورا ... بالمناسبة ، هل تعرف ان الأميرة قد تحدثت عنك ؟

— كيف ؟ حدثتك عنى ؟

— ولكن ليس لك أن تسر بما قالته عنك . لقد بدأت معها حديثا بالقرب من البئر على سبيل المصادفة تماما . فما كدنا نتبادل ثلاث كلمات حتى سألتنى : « من ذلك السيد ذو النظرة القاسية المنفرة ؟ ... لقد كان معك حين ... » ثم احمرت فقد تذكرت بادرتها اللطيفة ، ولم تشأ أن توضح . قلت لها : « لا حاجة بك الى أن تعينى لى ذلك اليوم ، فستظل ذكراه منقوشة فى نفسى الى الأبد ... » يا عزيزى بتشورين ، لست أهنئك ، فانها ترى فيك رأيا سيئا ... وهذا مؤسف حقا ، لان مارى فتاة لطيفة جدا...

وأحب ان الفت نظرتم الى أن جروشنيتسكى هو من أولئك الذين اذا تحدثوا عن امرأة لا يكادون يعرفونها ، قالوا : عزيزتى مارى ، او عزيزتى صوفيا ، متى حظيت برضاهم عنها ، واعجابهم بها .

قلت بنبهة جادة :

— حقا لا بأس بها ... ولكن حذار يا جروشنيتسكى ! ان اكثر الفتيات الروسيات يفتدين بحب افلاطونى ، دون أن يربطن به فكرة الزواج . والحب الافلاطونى اشد انواع الحب قلقا . بلوح لى أن الأميرة هى من تلك النساء اللاتى يردن أن يتسلين ، فإذا ضجرت معك دقيقتين متعاقبتين ، ضعت الى الأبد ... صمتك يجب أن يشر استطلاعها ، وحديثك يجب أن لا يرويهسا تماما . يجب أن تجعلها دائما فى حالة تعلق . لسوف تخاصم من أجلك رأى الناس جميعا عشر مرات ، لسوف تعد هذا تضحية منها فى سبيلك ، ولكنها سوف تأخذ فى تعذيبك جزاء لنفسها ، ثم اذا بها ، فى ذات صباح ، تقول لك بلا مراعاة انها أصبحت لا تطيقك . ان لم تسلط عليها ، فان قبلتها الأولى نفسها لن تعطيك حقا فى قبلة ثانية . ستترك بقدر ما تستطيع من الاثارة ، ثم اذا بها ، بعد عام أو عامين ، تتزوج قردا أشوه اطاعة لامها ، وتروح تندب حظها الشقي ، وتقول انها ما أحبت فى حياتها الا رجلا واحدا هو أنت .

ولكن الأقدار لم تشأ أن تجمعها بذلك الرجل ، لأنه يرتدى معطف جندى ، رغم أن قلبا نبيلًا فياضًا بالحب يخفق تحت ذلك المعطف الغليظ الرمادى ..

فضرب جروشنيتسكى المنضدة بيده ، وأخذ يذهب ويحىء فى الفرفة .

وضحكت فى أعماق نفسى ، حتى لقد ابتسمت مرتين ، ولكنه ، لحسن الحظ ، لم يلاحظ ابتسامتى . وأوضح انه عاشق مدنف ، لأنه أصبح أكثر ثقة مما كان . ولاحظت انه يحمل خاتما من تلك الخواتم الفضية المنقوشة التى تصنع هنا . فاشتبهت فى أمر هذا الخاتم ، فنظرت فيه ، فرايت اسم ماري منقوشا فى داخله بأحرف صغيرة ، وإلى جانب الاسم نقش تاريخ اليوم الذى ناولته فيه الكاس ! لم أقل شيئا . فأننى لا أحب أن أضطره اضطرابا إلى البوح بكل شيء ، وإنما أريد أن يتخذنى نجيا من تلقاء ذاته ، فعندئذ سأنتفكه ! ..

... ..
استيقظت اليوم فى ساعة متأخرة من الصباح ، فلما وصلت إلى البئر لم أجد هناك أحدا . وكان الجو حارا . وغمامات صغيرة بيضاء ، شعثة ، تتراكم من الذرى التى يغطيها الثلج ، وتلتر بالعاصفة . وكان الدخان يتصاعد من قمة ماشوك كما يتصاعد من مشعل أطفئ . وهذه مزق من الغيوم تتموج وترحف كالشعابين ، كان الأدغال الشائكة هى التى تحبسها عن المسير . كان الهواء مشحونا بالكهرباء ، فتسربت تحت عرائش الممر الذى يودى إلى المفارة . كنت مكتئبا حزين النفس ، أفكر فى المرأة التى على خدها شامة ، والتى حدثنى عنها الدكتور ... لماذا جاءت ؟ ولكن أهى هى حقا ؟ وما الذى جعلنى أعتقد أنها هى ؟ ما الذى جعلنى على يقين من ذلك ؟ ان كثيرا من النساء على خدودهن شامات ! .. وفيما أنا أفكر فى ذلك ، وصلت إلى المفارة . كانت تجلس هناك على مقعد من الحجر ، تحت القبة الظليلة الرطبة ، امرأة تلبس قبعة من القش ، تتلفع بشال أسود ، وقد أحنت رأسها على صدرها . كانت قبعتها تخفى وجهها ، وكنت أهم أن أعود أدراجى ، حتى لا أهرق عليها أحلاما ، فإذا هى تنظر إلى . فتهفت بالرغم منى :

— فيرا ! ..

فارتعشت ، ورايت وجهها يمتقع ... وقالت :

— كنت أعرف أنك هنا .
فجلست وتناولت يدها . ان اضطرابا نسيته منذ زمن بعيد ،
سرى في كياني كله حين سمعت صوتها الحبيب . وأخذت عينها
العميقتان تنظران في عيني . فقرأت في نظراتها أوتيابا ، وشيئا
يشبه أن يكون لوما . قلت :

— ما أطول هذه المدة التي لم أرك خلالها !
— نعم .. انها طويلة جدا ، وقد تغيرنا كلانا كثيرا .
— اى أنك أصبحت لا تحببيني ؟
— أنا متزوجة ! ..
— تزوجت مرة أخرى ؟ ولكن زواجك لم يكن يمنعا من شيء منذ
بضع سنين ! ..

فسلت يدها من يدي ، واحمر وجهها احمرارا شديدا .
— لعلك تحبين زوجك الثاني ؟
فلم تجب من سؤالي ، وأشاحت بوجهها عني .
— لعله شديد الغيرة ؟
وظلت صامتة .

— فماذا اذن ؟ لعله شاب ، لعله جميل ، لعله غنى جدا ، واثق
تخشين ...

ونظرت اليها ، فارتعدت خوفا . كان وجهها يعبر عن بأس
عميق ... وكانت الدموع تترقق في عينيها ، تمتعت تقول :
— يلذ لك اذن ان تعذبني ؟ كان ينبغي أن أكرهك منذ عرفتك ،
لأنك لم تهب لى غير الشقاء ...
كان صوتها يرتعش ، ثم انحنت على ، واسندت رأسها الى
صدرى .

قلت أخطبها بيني وبين نفسي : « لعلك من أجل هذا بعينه
أحببتنى ، لأن الأفراح تنسى ، أما الاتراح فلا تنسى مدى الحياة »
وشددتها بين ذراعى شدا قويا ، وظللنا هكذا مدة طويلة ، ثم
تقاربت شفطنا واتحدتا في قبلة طويلة مسكرة . كانت يداها باردتين
كالثلج ، وكان جبينها يحترق احتراقا . ودار بيننا عندئذ حديث
من تلك الأحاديث التي اذا سجلت على الورق لم يبق لها معنى ،
من تلك الأحاديث التي لا يمكن تكرارها بل وتعتذر تذكرها ، ذلك
لأن ما يعبر عنه الصوت يفنى عما يقوله اللسان ويكمله ، كما في
أوبرا إيطالية .

انهما تصر اصرارا جازما على ألا اتعرف الى زوجها ، العجوز
القصير الاعرج الذي لمحت في الشرع الكبير . لقد تزوجته من أجل
انها . فهو غنى ومصاب بالروماتيزم ... ولم أبح لنفسي أى مزاج
في حقه ، لأنها تحترمه كما تحترم ابنة أبها ، ولكنها تخونه زوجها .
ما أعجب قلب الانسان ، لاسيما اذا كان قلب امرأة ! ..

ان زوج فيرا ، واسمه سميون فاسيليفتش ، يمت الى الاميرة
ليجوفسكايا بقرابة بعيدة ، وبيتاهما متلاصقان ، فكثيرا ما تذهب
فيرا الى الاميرتين . وقد وعدتها بان اتعرف الى السيدتين
ليجوفسكايا ، وان الاطف الفتاة لكي يحسبوا أن الهوى حيث انظره .
وهكذا لم يتغير في خططي شيء ، وسوف اتسلى ! ..

اتسلى ! .. نعم ! لقد تجاوزت من الحياة تلك المرحلة التي
لا تسعى فيها النفس الى غير السعادة ، والتي يشعر فيها القلب
بحاجة الى حب قوى جامع . ان كل ما ارجب فيه الآن هو أن اكون
محبوبا ، وان لا يحبني ألا بضع نساء ! بل انني لأشعر ان تعلقا
دائما يمكن ان يكفيني : ما أباسها للقلب من عادة ! ..

ثمة شيء ادهشني دائما ، هو أنني لم اكن في يوم من الايام عبدا
للنساء اللاتي احببتهم . بالعكس ، كنت اسيطر على ارادتهن وعلى
قلوبهن سيطرة لا سبيل لهن الى دفعها ، دون أن افعل من أجل
ذلك شيئا . ايرجع هذا الى أنني لا احرص على أى شيء حرصا
عميقا ، والى انهن يخشين في كل لحظة ان أفلت منهن ؟ .. ايرجع
الى أن جسمي قوى ذو تأثير مغناطيسي ؟ أم يرجع ، بكل بساطة ،
الى أنني لم اتق امرأة ذات ارادة ؟ ..

يجب أن اعترف ، من جهة أخرى ، أنني لا احب النساء
اللاتي يمكن طبعاً قويا ... وهل على النساء أن يمكن طبعاً قويا ؟
على أنني أتذكر الآن أنني احببت مرة ، مرة واحدة ، امرأة
قوية عنيفة ، لم أستطع أن انتصر عليها ، فافترقنا عدوين ...
وأغلب ظني أننا لو تعارفنا بعد ذلك الوقت بخمسة سنين ، إذن
لكان يمكن أن نفرق على غير هذه الصورة ...

ان فيرا مريضة ، مريضة جدا ، رغم انها لا تريد الاعتراف بذلك .
أخشى أن تكون مصابة بالسّل ، أو بهذا المرض الذي يسمونه
fievre lente وهو مرض ليس روسيا أبداً ، وليس له في لغتنا
اسم يسمى به .

✽ الحمى المتخفية ✽

وحسبنا العاصفة التي هبت اثناء وجودنا في المغارة ، نصف ساعة أيضا . لم تطلب فيرا أن اعاهدها على الوفاء ، ولا سألتني هل أحببت غيرها منذ افترقنا ... بل عاد اطمئنانها الي ، كسابق عهدها . ولن أخونها... انها المرأة الوحيدة التي أعجز عن خيانتها . أعرف اننا سنفترق مرة أخرى ، وان هذا الفراق قريب ، وقد يكون فراقا لا لقاء بعده ... وعندئذ يسير كل منا في طريق غير طريق صاحبه ، الى أن نموت ، ولكن ذكرها ستظل منقوشة في قلبي : قلت لها ذلك غير مرة ، وهي تصدقني . رغم انها تدعى خلاف ذلك .

وافترقنا أخيرا ، وتابعتها بنظراتي طويلا ، الى ان غابت قبعتها بين الأدغال والصخور . وانقبض صدى انقباض اليم ، كاتقباضه يوم انفصلنا أول مره . آه ، كم سعدت بهذا الشعور !... أهو الشباب يريد أن يعود الى بعواصفه الممتعة ؟ أم هي نظرة الوداع يلقيها على آخر هدية يريد أن يبقيا لي ذكرى ؟ .. انه ليضحكني أن أتصور أنني لو رأي أحد لحسب أنني ما أزال شابا في ميعة الصبا ! ان وجهي لا يزال نضرا على شحوبه ، وأعضائي مره متناوبة ، وهذه غدائر كثة تحف بجبينى ... عيناى تلتصمان ، ودمى يطفى ...

فلما عدت الى منزلي امتطيت صهوة جوادى ، ومضيت أعدو في السهوب ، أحب ان أرانى على ظهر حصان قوى البأس ، بين الأعشاب العالية في ربيع السهول ! اننى لانتسجم الهواء المعطر بشراة ، وأغرق بصرى في الأفق البعيد الأزرق ، محاولا أن اميز حواشى الأشياء ، وهى غامضة ثم تتضح لحظة بعد لحظة . مهما تكن المرارة التى تنوى في قلبى ، ومهما يكن الغم الذى يرهق فكرى ، فان هذا كله يتبدد عندئذ في لحظة ، وبهذا قلبى : ان تعب الجسم ينتصر على قلق النفس . لا ، ما من نظرة امرأة الا واستطيع أن أنساها ، حين أسرح طرفى في الجبال المشبوكة تضئها أشعة الظهيرة ، أو حين أتأمل السماء الزرقاء ، أو حين أسمع السيل يتدرج من صخرة الى صخرة هادرا صاحبها .

لأشك ان القوزاق الذين يتشاءبون وهم في ابراجهم يراقبون ، قد تصدعت رءوسهم طويلا ، وهم يرونى أعدو بلا سبب ولا هدف ، اذ لأريب أنهم ظنوني من لباسى شركسيا . وكثيرا ما قيل لى ، في الواقع ، اننى حين أكون على صهوة جوادى بلباس

الشراسة أبدو كإبارديا أكثر من الكاباردين أنفسهم . ويجب أن اعترف أنني في كل ما يتصل بهذا اللباس الحربى السيل ، شخص أتيق جدا : ما من شريطة زائدة ، والأسلحة ثمينة ذات زخارف جد بسيطة ، وفروة الفليق ما هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ، والجورب الجلدى ، والحذاء متناسبان كل التناسب ، وجلباب أبيض ، وقفطان بنى . ولقد درست طويلا طريقة الجبليين في الفروسية ، ولا يفرح قلبى لشيء كما يفرح للثناء على براعتى في امتطاء صهوة الحصان كالقفقاسيين . أننى أملك أربعة أحصنة ، أحدها لى أنا ، والثلاثة الباقية لأصدقائى ، حتى لا ينتسببنى الضجر وأنا أعدو في الحقول وحدى . وأصدقائى يركبون خيلى مسرورين ، ولكنهم لا يرافقونى أبدا . كانت الساعة قد بلغت السادسة حين تذكرت أن أوان الفداء قد أزف . وكان حصانى مكدودا ، فسرت في الطريق التى تمضى من بيتاجورسك الى المستعمرة الألمانية التى كثيرا ما يذهب اليها مجتمع المياه في نزهات التسلية . إن الطريق تتلوى وسط الأدغال ، وتهبط أحيانا الى وديان صغيرة تجرى فيها السواقي مفردة في ظل الأشباب الطويلة . والجبال الزرقاء ، جبال بشتو ، وزمينايا ، وجيلزنايا ، وليسايا ، تنتصب في الأفق البعيد صاعدة على درجات . فلما قطعت واديا من تلك الوديان (يسميه سكان المنطقة بالكا) ، وقفت ليرد حصانى الماء ، فلاحت لى جماعة زاهية من الفرسان تنتزه في الطريق ، وتحدث جلبة كبيرة ، فأما السيدات فيرتدين أثواب الفارسات سوداء وزرقاء ، وأما الرجال فيرتدون مزيجا من لباس الشراكة ولباس الروس . رايت جروشيتسكى في ظليعة الركب مع مارى .

إن السيدات اللاتى يفدن الى المياه ما زلن يعتقدن أن للشراكة هجمات في وضح النهار، وربما كان ذلك هو الذى دفع جروشيتسكى الى أن يحمل فوق معطف الجندى الذى يرتديه ، سيفاً ومسدسين، لقد كان منظره مضحكا بهذا الزى البطولى العجيب . كان يخفى عن أعينهما دغل كبير ، ولكننى كنت أراهما من خلال الأوراق ، وأدركت من تعبير وجهيهما أن الحديث عاطف . ووصلا أخيرا الى المنحدر ، فأمسك جروشيتسكى بزمام حصان الأميرة ، وسمعت نهاية حديثهما . قالت الأميرة :

... وهل تريد أن تقضى حياتك كلها في القفقاس ؟

فاجاب الغارمى :

— ما لى ولروسيا ؟ روسيا بلد يعتقد فيه الوف الناس أن من
حقهم أن يحقرونى ، لأنهم أغنى منى .. أما هنا ، فان هذا
المعطف الغليظ لم يحل بينى وبين التعرف اليك ...
قالت وقد احمر وجهها :

— بالعكس .

فارتسمت علامات الرضا على وجه جروشنيشكى ، وأردف يقول :
— هنا ، تحت رصاص المتوحشين ، ستنقضى حياتى مضطربة
سريعة ، دون أن أشعر بها ... وإذا أرادت مشيئة الله أن ترسل
الى فى كل عام نظرة مشرقة من عيني امرأة ، نظرة مثل نظرة ...
وكأنا قد وصلا الى حيث كنت ، فلكزت حصانى ، وخرجت من
بين الأدغال ... فصاحت الأميرة مدعورة :

— Mon dieu, un circassien !... *

فاجبتها بالفرنسية ، كى أبرر خطأ ظنها :

— Ne craignez rien, madame, — je ne suis pas plus dangereux
que votre cavalier **

قلت ذلك وأنا أنحنى لها قليلا . فظهرت على وجهها علامات
الاضطراب . ترى لأنها أخطأت الظن ، أم لأنها عدت جوابى
وقحا ؟ أود لو يكون الافتراض الثانى هو الصحيح . وألقى على
جروشنيشكى نظرة استياء .

فى ساعة متأخرة من المساء ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ،
ذهبت أتنزه تحت زيزفونات الشارع الكبير . كانت المدينة نائمة ،
وليس ثمة الا بضع نوافذ لا تزال تضيء . ومن جهات ثلاث تترأى
الدرى السوداء من سلاسل الجبال التى تلاصق جبل ماشوك الذى
انتشرت على قمته سحابة تنذر بشر . وكان القمر يطلع من الشرق ،
وفى الأفق البعيد يلمع الذهب الفضى من الجبال التى تغطيها
الثلوج . وكانت أصوات الخفراء تمتزج بخيرير الينابيع الحارة التى
تفتح فى الليل . ومن حين الى حين ، يسمع صوت حوافر حصان
على أرض الشارع ، يصحبه صرير عربة أو غناء تترى حزين .
وجلسيت على أحد المقاعد ، واستغرقت فى أفكارى ... انى لأشعر
بحاجة قوية الى الاقضاء بما فى نفسى الى أحد ... ولكن الى من
أفضى بما فى نفسى ؟ وذكرت فىرا ... ترى ماذا تصنع ؟ ليتنى

* يا ألهى ، شركسى !!

** لا تخافى يا سيدتى ، فليست أخطر من فارسك .

استطيع ان اشد على يدها الآن يبدى .
 وفجأة سمعت وقع خطوات سريعة متفاوتة . لابد انه
 جروشنيتسكى . حقا انه هو !
 - من اين تاتى ؟
 - من عند الاميرة ليجوفسكايا .
 قال ذلك بنبرة فخورة . ثم اردف :
 - ليتك سمعت مارى تغنى ! ..
 - هل تريد ان اقول لك ؟ انى لأراهن على انها لا تعرف انك
 جندى ، بل تحسب انك ضابط جرد من رتبته ... فأجابنى ذاهلا:
 - هذا ممكن ... ولكن فيم يهمنى ؟
 - عفوا . لقد قلت ذلك كما يمكن ان اقول شيئا آخر ...
 - ولكن هل تعلم انها حانقة عليك اشد الحنق ؟ لقد رات انك
 على جانب من الوقاحة لا نظير له . ويدلت كل ما فى وسعى من
 جهد حتى اقنعها بانك شخص مثقف وانك تعرف المجتمع الراقى ،
 فلا يعقل ان تكون قصدت الى اهانتها . فقالت ان نظرتك دعية ،
 وانك لا شك مفرور بنفسك .
 - ليست على خطأ ! .. ولكن يبدو لى انك تريد ان تظاهرها ؟
 - ليس لى حق فى ذلك بعد ، مع الأسف ...
 قلت فى نفسى : « ان له اذن لأملا ... »
 واردف جروشنيتسكى يقول :
 - يا حسرتى عليك ! لن يسهل أن تتعرف اليهما بمسد ذلك
 الحادث . هذه خسارة ! ان بيتهما لمن امتع ما عرفت من بيوت .
 فابتسمت بينى وبين نفسى .
 - ما من بيت يبدو لى فى هذه اللحظة امتع من بيتى .
 قلت ذلك وأنا آتئام ، ونهضت لأذهب . قال :
 - اعترف مع ذلك بانك نادم ..
 - هه ! .. ولكننى استطيع ان اذهب اليهما منذ مساء الغد ،
 ان اردت .
 - سنرى !
 - وسأبدا بمغازلة الاميرة الصغيرة اكراما لك اذا شئت ...
 - هذا اذا اصغت اليك !
 - ما على الا ان انتظر اللحظة التى يضجرها قبحا حديثك ...
 هيا ، هيا ، هم مساء !

— ساطوف قليلا ، فانه ليستحيل على أن انام ! .. فإذا شئت
ذهينا الى المطعم نلعب ؟ اتنى الآن لفى حاجة الى احساسات قوية .
— أتمنى لك أن تخسر ! ..
قلت له ذلك ، وعدت الى بيتى .

٢١ ايار .

انقضى ما يقرب من اسبوع ، ولم أتعرف بعد الى السيدتين
ليجوفسكايا . اننى انتظر فرصة مناسبة . أن جروشنييتسكى يتبع
الاميرة الصغيرة كظلها ، وهما يتحدثان أحاديث ما لها نهاية . ترى
حتى يضجراها ؟ أن الأم لا تلقى الى ذلك بالا ولا تحاذر ، لأن الرجل
ليس بالذى تريده لابنتها بعلا . هكذا منطلق الأمهات ! لقد فاجأت
الصبيبة تلقى على جروشنييتسكى نظرة عاطفية ، مرتين أو ثلاث
مرات ... يجب أن يوضع حد لهذا !

أمس جاءت فيرا الى البئر ، لأول مرة .. لم تخرج منذ اليوم
الذى التقينا فيه بالمخارة ، أعطينا قدحينا معا ، فانحنيت على
وهمست بى :

— ألا تريد أن تتعرف الى الاميرتين ليجوفسكايا ؟ ان بيتهما هو
المكان الوحيد الذى يمكن أن نلتقى فيه ...
هذا عتاب ! .. هذا شيء مضجر ... ولكننى استحقته ...
بالمناسبة : غدا تقام فى قاعة المطعم حفلة راقصة بالاكتاب ،
سأرقص مع الاميرة رقصة المازوركا .

٢٢ ايار .

اجتمعت الطبقة الراقصة فى بهو المطعم ، فما أزفت الساعة
التاسعة حتى كانوا جميعا هناك . لقد وصلت الاميرة وابنتها مع
آخر من وصلوا . وكان كثير من السيدات ينظرن اليها نظرة
حسد وعداوة ، لأن مارى كانت أنيقة كل الاناقة . واللاتى يعددن
أنفسهن من الطبقة الأرستقراطية ، أخفين حسدهن ، فافترين منها .
هل يمكن أن لا يقع هذا ؟ متى اجتمعت النساء تكونت على الفور
حلقة عليا وحلقة دنيا ! وكان جروشنييتسكى بين الجمهور على
مقربة من النافذة ، قد الصق وجهه بزجاجها ، وأخذ يتأمل
معبودته لا يفارقها بصره لحظة . ولقد ألقت عليه الاميرة ، وهى
تمر ، تحية لا تكاد تلاحظ ، فأشرق وجهه كالشمس ... وبدأ
الرقص برقصة بولونية .. نم عزفت الجوقة الفالس ، فأخذت
المهاميز ترن ، وأخذت ذبول الثياب ترفرف وتدور .

كنت وراء سيدة سمينة غارقة فى ريش وردى اللون ، ذكرنى
فستانها بعهد زى السلال ، وذكرتنى برقشة جلدها المحب بذلك
العصر الجميل ، عصر الحرير الاسود المذبوب . وكان فى رقبتها
ثؤلول كبير أخفته تحت قفل عقدها . وسمعتها تقول لفارسها ،
وهو رئيس خيال :

— ان هذه الصغيرة ليجوفسكايا طفلة لا تطاق ! تصور انها
اصطدمت بى ولم تقدم الى اعتذارها ، واكثر من ذلك انها التفتت
وحذقت الى بنظارتها التى فى يدها ... * ... ! C'est impayable
بم تعتر هذا الاعتزاز كله ؟ انها فى حاجة الى درس قاس .

فاجابها الرئيس المهذب :

— ستعطى درسا !

ومضى الى الحجرة المجاورة .

فاقتربت من الاميرة الشابة فورا . ودعوته الى رقصة فالس ،
مستفيدا من هذه العادة المألوفة هنا ، وهى أن يستطيع الرجل
مراقبة سيدات لا يعرفهن . لم تكذ تستطيع أن تكبح ابتسامتها
وأن تخفى فرح انتصارها . ولكنها سرعان ما اصطنعت عدم المبالاة
بل والقسوة ، فاسبلت يدها على كتفى باهمال ، وعطفت رأسها
قليلا الى جانب ، وأخذت نادور . لا اعرف قدا الذ من هذا القد
ولا الدن ! كانت أنفاسها الطرية تهب على وجهى خفيفة ...
واحيانا تنزلق على خدى الملتهب غديرة من غدائرها انفصلت عن
اخواتها فى زوبعة الفالس ... درنا حول الحلبة ثلاث مرات (انها
نجيد الفالس اجادة رائعة) ، وأخذ منها التعب كل مأخذ ،
واضطربت عينها ، ولم تكذ تستطيع شفتها المنفتحتان قليلا أن
تقولا : ** «Merci, monsieur» ، وهو شكر لا بد منه .

قلت لها بعد بضع لحظات من صمت ، وأنا اتصنع غاية الخضوع
والضراعة :

— بلفنى ، أيتها الاميرة ، انك من سوء حظى غير راضية عنى ،
رغم أنك لا تعريقينى ... وانك تريننى سفيها وقحا ... فهل هذا
صحيح !

فاجابت ، وهى تقلب شفتها قليلا عن سخر (يجب أن اذكر ان
هذه الحركة تنسجم كثيرا مع وجهها القلب) :

* أن هذا مضحك ... !

** شكرا يا سيدى .

— وهل تريد أن تبقينى على رأى هذا ؟
— لئن تجاسرت فأسأت إليك ، فاسمحي لى الآن بجسارة اكبر ،
هى أن أتوسل إليك طالبا عفوك ومغفرتك . يميننا أن غاية ما أصبو
إليه وأطمع فيه ، أن أبرهن لك على أنك أخطأت الظن بى .
— سيصعب عليك هذا كثيرا ...
— لماذا ؟ ..

— لأنك لا تاتى إلينا ، وحفلة كهذه لن تتكرر كثيرا .
قلت فى نفسى : « معنى هذا أن بابهما موصد عنى الى الابد » .
وقلت لها فى شيء من الحسرة :
— ألا تعرفين أيتها الأميرة أن المجرم التائب يجب أن لا يصد ،
والا تضاعف اجرامه ، وعندئذ ...

هنا سمعت قهقهات وهمسات فاضطرت أن أقطع جملتى وأن
التفت الى وراء . فرأيت رهطا من الرجال قد وقفوا على مسافة
بضع خطوات منى ، وبينهم الرئيس الخيال الذى يبيت لأمرى
الصفيرة نية الشر والعداوة . كان يبدو سعيدا جدا ، وهو يفرك
يديه ، ويتبادل الغمزات مع رفاقه . وفجأة خرج من الرهط رجل
يرتدى لباس السهرة ، وله شاربان طويلان وقد التمع وجهه
بعلامات السكر ، اتجه نحو الأميرة بخطا مترنحة ، حتى اذا وقف
أمامها ، وقد اضطربت هى من ذلك أشد الاضطراب ، شبك يديه
وراء ظهره ، وحقق اليهسا بعينيه الرماديتين المشوشتين ، وقال
بصوت أبح :

— هل تسمحين ... ولكن لم هذه الكلفة كلها ؟ ببساطة ،
أحجزك لرقصة مازوركا ...

فقال بصوت مضطرب ، وهى تلقى حولها نظرة توسل :
— ماذا تريد منى ؟

ومن سوء الحظ أن أمها كانت بعيدة ، ولم يكن ثمة أى رجل
ممن تعرفهم ، الا واحدا من ضباط العاشية ، رأى كل شيء فيما
اعتقد ، ولكنه اختبأ بين الجمهور ، حتى لا يتدخل فى الأمر .

قال السيد السكران وهو يغمز الضابط الخيال الذى كان يشجعه
بحركة من رأسه :

— ماذا ؟ لا تريدين ؟ أكرر ما قلت : لى الشرف أن أطلبك ... *

Pourmazure لعلك تظنين اننى سكران ؟ لا بأس ... السكر

* لرقصة مازوركا ١٥

يريدنى براعة فى الرقص ، أستطيع أن أؤكد لك ذلك جازما ...
رايت انها تكاد يغمى عليها من شدة الرعب والاستياء .
فسرت الى السيد السكران ، وقبضت على ذراعه فى خشونة ،
وحدقت الى بياض عينيه ، وطلبت اليه أن يتسحب ، مضيفا الى
ذلك ان الاميرة وعدتني بأن تراقصنى المازوركا منذ مدة طويلة .
فقال وهو يضحك بضجة :

— اذن لا سبيل ... فى مرة أخرى ...
قال ذلك ، ومضى يلتحق برفاقه الذين شعروا بخزى شديد ،
وقادوه حالا الى حجرة أخرى .

كفأتنى الاميرة على ذلك بنظرة عميقة ، نظرة لا تنسى . ومضت
الى أمها ، تقص عليها كل شيء ، فبحثت الام عنى حتى وجدتنى ،
فشكرتنى ، وقالت : انها تعرف أمى ، وانها صديقة نصف
« دزينة » من همائى وخالاتى ، وأضافت الى ذلك :

— كيف لم نتعارف الى الآن ؟ اعترف أن الدنب ذنبك . انت
تهرب من جميع الناس . ما هذا ؟ آمل أن يستطيع هواء صالونى
تبديد سأمك ، اليس هذا صحيحا ؟

فسقت اليها عبارة من تلك العبارات الفصيحة التى يجب أن
يحفظها المرء عن ظهر قلب لمناسبة كهذه المناسبة .
وطال رقص الكادريل ثم طال الى غير نهاية .

وأخيرا انفجر الاوركستر يعزف المازوركا ، فى الرواق . فجلسنا
انا والاميرة .

لم ألمح مرة واحدة الى حادثة السيد السكران ، ولا الى سلوكى
السابق ، ولا الى جروشنييتسكى . وكان الانزعاج الذى أحدثه فيها
ذلك الحادث الكريه قد ذهب شيئا فشيئا ، فاسترد وجهها تورده ،
وأخذت تمزح فى كثير من الظرف ، وكان حديثهما فكها دون أن
تقصد الى الفكاهة ، وكان كلامها حيا طلقا رشيقا ، وكانت ملاحظاتها
فى بعض الاحيان عميقة .. والمحت عبارة مضطربة ملتبسة الى
أثنى معجب بها منذ زمان طويل ، فأحتت رأسها واحمرت قليلا .
ثم قالت وهى تحمل نفسها على الضحك حملا ، وترفع نحوى
عينيهما المخمليتين :

— أنت رجل غريب !

واستأنفت كلامى أقول :

— ولئن لم أشأ أن أعترف اليك ، فلأنك محاطة بجمهور كبير من
المعجبين ، كنت أخشى أن أضيع بينهم تلاما .

- أنت مخطيء ! .. انهم جميعا مملون .
 — جميعا ، هل هذا ممكن ؟
 فحدثت الى ، كانها تحاول ان تتذكر ، واصطبغ وجهها مرة
 اخرى بحمرة خفيفة ، وقالت اخيرا بلهجة جازمة :
 — نعم ، جميعا !
 — وحتى صديقي جروشنيتسكى ؟
 فهتفت تقول في لهجة الشك :
 — اهو صديقك ؟
 — نعم ، هو صديقي .
 — لا ، طبعا ، هو لا يدخل في عداد المملين ...
 فقلت ضاحكا :
 — اذن يدخل في عداد البؤساء ؟
 — وهل تجد في هذا ما يضحك ؟ ليتنى اراك في مكانه ! ..
 — لقد كنت جنديا أنا أيضا .. وأؤكد لك أن تلك الفترة كانت
 أجمل أيام حياتي !
 قالت في حرارة :
 — اهو اذن جندي !
 ثم اردفت تقول :
 — كنت أظن ..
 — ماذا كنت تظنين ؟ ..
 — لا شيء ، لا شيء ... ترى من هذه السيدة ؟ ..
 ودار الحديث في اتجاه آخر ، ثم لم نعد الى ذلك الموضوع .
 وانتهت رقصة المازوركا ، فافترقنا على كلمة : الى اللقاء ...
 وانصرفت السيدات ... فذهبت أتناول طعام العشاء ، ولقيت
 فرنر .. قال لي فرنر :
 — ها ها ! .. لقد قبضت عليك متلبسا بالجرم ، يا من قلت
 انك لا تريد أن تتعرف الى الأميرة الا بانقاذها من موت محقق .
 قلت :
 — فعلت ما هو خير من ذلك .. أنقذتها من اغواء في قلب حلبة
 الرقص .
 — كيف وقع ذلك ؟ قص على !
 — بل حزنه ، يا من تحزر كل شيء في الدنيا !
 ٢٣ آيار .
 في الساعة السابعة من المساء ذهبت انزوه في الشارع الكبير .

فرآنى جروشنيتسكى من بعيد . فجاء الى . كانت تلتصق فى عينيه
حماسة مضحكة ، فصافحتنى بقوة ، وقال بصوت تراجيدى :

— شكرا بتشورين ... هل تفهمنى ؟
— لا .. تم انسى لا اتذكر ان ما صنعت يستحق أن أشكر عليه .
— كيف ! أمس ؟ هل نسيت ؟ لقد قصت على مارى كل شيء .
— ها ، نعم ! ولكن هل أصبح كل شيء بينكما مشتركا ؟ حتى
العرفان بالجميل ؟

فقال جروشنيتسكى بلهجة الجد :
— اسمع ! لا تسخر من حبنى اذا أردت أن تظل صديقى . انت
ترى اننى أحبها الى حد الجنون ... وأعتقد ... أرجو أنها تحبنى
أيضا . لى رجاء أتوجه به اليك . ستذهب اليهما هذا المساء ،
وعدنى بأن تلاحظ كل شيء . ان لك خبرة فى هذه الامور ، وانت
تعرف النساء أكثر منى ... آه من النساء ، آه من النساء ! من
ذا الذى يستطيع أن يفهمهن ؟ بسمانهن تكذب نظراتهن ، وكلامهن
بعد ويجذب ، ونبرة صوتهن تبعد وتصد ... تارة يفهم كل ما
دق من خطرات فكرنا ، وتارة يعجزن عن فهم أوضح الایماءات ...
هذه مارى مثلا : أمس كانت عيناها تلتصقان بهوى عفيف وهى
تنظر الى ، واليوم أراها كابيتين باردتين ...

قلت : لعل هذا من تأثير المياه .

قال :

— أوه .. انت ترى الامور دائما من جانبها الديمى .. ثم اضاف

فى احتقار :

— اذهب فانت مادى ... ولكن فلنغير مادة الحديث ... وسر
كثيرا بهذا التلاعب فى الالفاظ ، وأصبح أكثر مرحا .

وفى الساعة الثامنة ذهبنا الى بيت الأميرة معا ، فلما مررنا تحت
نوافذ فيرا رايتها تطل من أحداها ، فتبادلنا نظرة سريعة ، ثم
إذا بها تصل الى صالون السيدة ليجوفسكايا بعدنا بقليل . فقدمتنى
اليها الأميرة الام على أنها قريبتها . فتناولنا الشاي ، وكان هناك
عدد كبير من الناس ، وكان الحديث عاما . وقد حرصت على أن
أحظى بأعجاب السيدة ليجوفسكايا ، فكنت أمزح ، حتى أضحكها
ضحكا يخرج من صميم القلب عدة مرات . وكانت ابنتها تود لو
تضحك ، ولكنها كانت تكظم ضحكها حتى لا تخرج عن الدور الذى
أصطنعته ، فلقد كانت ترى أن السامة تليق بجمالها ، ولعلها على

حق . وسر جروشنيتسكى جدا ان مرحى لم يكتسبها .

وبعد تناول الشاى ذهبنا الى الصالة .

قلت لفيرا ، وأنا امر الى جانبها :

— أنت راضية عن طاعنى يا فيرا ؟

فأقلت على نظرة تفيض حبا وشكرا . اننى متعود على هذه النظرات ، ومع ذلك فما أكثر ما كانت تبث فى نفسى من سعادة ! واجلسنا الاميرة ابتها الى البيانو ، ورجاها الناس ان تغنى . ولم أنبس انا بكلمة واحدة ، بل انتهزت الفرصة ، وانسللت الى قرب النافذة مع فيرا التى كانت تريد ان تغضى الى بشىء خطير يهمنى كلينا ... ترة من الترهات !

واحقق عدم اكرائى هذا .. الاميرة كثيرا ، كما لاحظت ذلك فى نظرة ساخطة من عينيه اللامعتين . آه كم أفهمها هذه اللفة ، هذه اللفة الخرساء ، ولكنها معبرة ، وهى وجيزة ولكنها عنيفة !

واخذت أخيرا تغنى . ان صوتها جميل ، ولكنها لا تجيد الغناء .. ثم اننى لم أحسن الاصفاء . أما جروشنيتسكى فقد توكأ على البيانو أمامها ، وراح يلتهمها بنظراته التهاما ، ويقول فى كل لحظة بصوت خافت : * « Charmant ! délicieux ! »

فألت لى فيرا :

— اسمع ! لا أريد أن تتعرف الى زوجى ، ولكن عليك أن تحوز رضا الاميرة الام . وهذا سهل عليك ، انك تستطيع كل ما تشاء ..

فى هذا المكان وحده نستطيع أن نلتقى .

— فى هذا المكان وحده ؟

فاحمر وجهها ، واستمرت تقول :

— أنت تعرف اننى عبدتك ، واننى لم أستطع أن أقاومك يوما ، وسأنال عقاب ذلك حين أفيق فإذا أنت لا تحبنى ! ولكنى أريد أن تصون سمعتى ، لا من أجل نفسى ، أنت تعرف ذلك كل المعرفة . أؤوسل اليك الا تعذبنى كما كنت تعذبنى ، بشكوكك العقيمة وبرودتك المفتعلة . أظن اننى ساموت قريبا ، فانى أحس بالوهن يزداد يوما بعد يوم ... ومع ذلك لا أستطيع أن أفكر فى الحياة الآتية ، ولا أحلم الا بك ... ان الرجال لا يفهمون الأفراح التى تشيعها فى القلب نظرة عين أو لمسة يد ... أقسم لك اننى حين أسمع صوتك ، أشعر بسعادة عميقة ، شريفة ، لا تغنى عنها أحر القبلات ...

* عظيم ! رائع ! بالفرنسية فى الاصل .

وفي اثناء ذلك توقفت الاميرة ماري عن الغناء ، واذا بالمديح يتقاطر عليها من كل صوب ، اقتربت منها آخر من اقترّب ، وقلت كلمتين في الثناء على صوتها ، بلهجة لا اكرّث فيها .
فاطالت شفتها السفلى ، واحتت راسها احناء ساخرة وقالت :

— يسرنى ثناؤك كثيرا ، ولا سيما أنك لم تسمع شيئا البتة ، ولكن لعلك لا تحب الموسيقى .
— بالعكس ، ولا سيما بعد الغداء .

— كان جروشنييتسكى على حق حين قال ان اذواقك ليس فيها شيء من الشعر . فها أنت ذا لا تحب الموسيقى الا من زاوية الطعام .

— مخطئة ... لست ممن يحبون الطعام ، فان معدتى سيئة جدا . ولكن الموسيقى ، بعد الطعام ، تحمل على النوم ، ومن الخير للصحة ان ينام المرء بعد تناول الغداء ، فانا اذن احب الموسيقى من زاوية الطب . أما في المساء ، فالموسيقى تشرى ، تجعلنى حزينا مسرفا في الحزن أو فرحا مسرفا في الفرح ، ومن المتعب ان يحزن المرء أو ان يفرح حين لا يكون ثمة داع جدى يدعو الى الحزن أو الى الفرح . . . ثم ان الحزن ، بين الناس ، مضحك ، والفرح ان زاد عن الحد كان وقاحة ...

لم تصغ الى كلامى حتى النهاية ، بل ذهبت تجلس الى جانب جروشنييتسكى ، ودار بينهما هندئله حديث عاطفى . وتراى لى أن الاميرة كانت تجيب على عباراته البليغة ، ذاهلة لا تعرف ماذا تقول ، على تظاهرها بانها تصفى الى كلامه في كثير من الانتباه . ذلك انه كان ينظر اليها في بعض الاحيان نظرة استغراب ، محاولا ان يدرك سبب هذا الاضطراب الخفى الذى تفضحه نظرتها القلقة من حين الى حين ...

ولكننى فهمتك ابتها الاميرة العزيزة . حذار منى ! تريدان ان تقتصى لنفسك بالسلاح عينه ، تريدان ان تجربى عزى . لن نظفرى بذلك ! واذا اعلنت على الحرب ، فلن تأخذنى بك رحمة .

تظاهرت عدة مرات ، اثناء السهرة ، باننى اريد الاشتراك في حديثهما ، ولكنها استقبلت كلامى بشيء من الجفاف ، فابتعدت اخيرا وانا انظاها بالامس والحقق . انتصرت . وانتصر جروشنييتسكى أيضا . انتصرا ، يا صديقى ، وحثا الخطا ! عمر نصركما قصير ...
أوجس ذلك ! انى حين اتعرف على امرأة ادرك انها سوف تحببى أو لن تحببى ، وما خاب ظننى يوما ...

قضيت باقى السهرة الى جانب فيرا نتحدث فى الماضى حديثا طويلا حتى شبت ... اننى لا أعرف حقا لماذا تحببى كل هذا الحب ، لاسيما انها الوحيدة التى فهمتنى فهما عميقا ، وعرفت ما بنفسى من ضروب الضعف الحقر والهوى الفاسد ... هل يمكن ان يكون الشر جذابا الى هذا الحد ؟ ..
وخرجت مع جروشنييتسكى ، وامسك بيدي فى الشارع ، وقال بعد برهة طويلة من الصمت :

— ما رأيك ؟ ..
وددت لو أقول له : « رابى اذك غبى » ، ولكننى امسكت عن الكلام ، واكتفيت بأن أهر كفى .

٢٩ آيار .

خلال هذه الأيام كلها لم اخرج مرة واحدة عن الخط الذى رسمته لسلوكى . اخذ حديثى يرضى الأميرة الشابة . لقد قصصت عليها بعض الأحداث الغربية من حياتى ، وأخذت تنظر الى نظرتها الى رجل فريد عجيب . اننى أسخر من كل شيء . وأسخر من العواطف أكثر من أى شيء . اخذ هذا يربحها . انها لا تجرؤ على الشروع فى حديث عاطفى مع جروشنييتسكى بحضورى . حتى انها أجابت على فوراته بابتسامة ساخرة عدة مرات . ولكننى كنت ، كلما اقترب منها ، اصطنع هيئة الاذعان ، وأدعها وحدها . سرت من ذلك فى المرة الأولى ، أو تظاهرت بأنها سرت . ولكننى فى المرة الثانية سخطت على . وفى المرة الثالثة سخطت عليه هو .
قالت لى أمس :

— انت قليل الاعتزاز بنفسك ... ما الذى يوهبك بأن صحبة جروشنييتسكى أمتع عندى من صحبتك ؟ ..
فأجبتها قائلا :

— اننى أضحي بلذتى فى سبيل سعادة صديقى ...
قالت :

— وتضحى بلذتى أيضا ؟ ..

فحدقتها بنظرة رصينة ، ثم لم أتجه اليها بكلمة واحدة طوال ذلك اليوم ... كانت فى المساء وأجمة تفكر ، وفى صباح اليوم كانت أشد وجوما . وحين اقتربت منها اليوم ، كانت تصفى ذاهلة الى جروشنييتسكى الذى كان يتدفق فى الحديث من جمال الطبيعة ، فيما أمتقد ، قلما راثنى أخذت تضحك ضحكا عاليا (فى غير محله) متظاهرة بأنها لم تلمحنى . فابتعدت واخذت أراقبها خلصة ،

فرايتها تشيح بوجهها عن محدثها ، تتشأب مرتين .
أن جروشنييتسكى يضجرها ، ما فى ذلك ريب . ساظل يومين
ايضا لا أخطبها بكلمة .

٣ حزيران

كثيرا ما اتساءل : لماذا انصب هذا الانصباب على الارة الحب
فى قلب فتاة لا أنوى افراءها ولا أريد أن أتزوجها ؟ ما هذا الطبع
المثير الذى يليق بامرأة ؟ ان فرا تحبنى حبا لن تقدر على مثله
الأميرة مارى ... ولو كانت الأميرة تبدو لى صعوبة المنال لقلت ان
الصعوبة تغرينى ...

ولكن الأمر ليس كذلك . لست اذن بصدد تلك الحاجة القلقة
الى الحب التى تعذبنا فى السنين الأولى من شبابتنا ، وما تنفك
تنقلنا من امرأة الى أخرى ، الى أن نجد امرأة لا تستطيع أن
تطيقنا ، فاذا نحن ثبت على الهوى ، ونشعر بذلك الحب الجامع
الصادق اللانهائى ، الذى يمكن أن نعبّر عنه فى الرياضيات بخط
يبدأ من نقطة ويصيب فى الفضاء الفسيح ... ان سر هذه اللانهاية
هو العجز عن بلوغ الهدف أى الوصول الى الغاية ...

ولكن ما الذى يحملنى اذن على هذا العناء كله ؟ أكون هى الفرة
من جروشنييتسكى ؟ مسكين جروشنييتسكى ، انه لا يستحق حقا
هذه الفرة ! .. أم لعلى أنساق مع تلك العاطفة الخبيثة الجارفة
التي تدفعنا الى تحطيم ما تفيض به نفس الجار من أوهام عذبة ،
حتى ننعّم بتلك اللذة الصغيرة ، وهى أن نجيبه ذات يوم حين يسألنا
وقد تملكه اليأس : بمن أثق بعد الآن ؟ فنقول له : « اسمع
ياصديقى ، لقد مررت بمثل ما تمر به الآن ، هانذا مع ذلك ، كما
ترى ، اتفدى واتمشى ، وأناام هادئا ، وأمل أن أستطيع لقاء
الموت بلا صراخ ولا دموع ! »

ثم ، اليس فى امتلاكك نفس فتية ، لم تكد تتفتح ، لذة لا تقاوم ؟
انها كمثل الزهورات التى تنشر عبقها العطر لأولى أشعة الشمس :
ففى تلك اللحظة انمسا يجب ان تجتنى ، لتسرمى على قارعة
الطريق ، بعد ان تشم حتى الثمالة : وربما تجد يومئذ من يلتقطها .
انى لأشعر بنهم فى نفسى لا يشبع ، يلتهم كل ما يصادفه على الطريق .
ولا أنظر الى الآلام الآخرين وأفراحهم الا من ناحية صلتها بى ، أى
على انها غذاء لنفسى . أصبحت عاجزا عن الاندفاع المجنون بتأثير
هوى جامع . لقد خنقت الظروف طموحى . ولكنه يظهر الآن

بوجه آخر ، لأن الطموح ليس الا الظما الى السيطرة ، وغاية اللذة عندى ان اخضع من يحيط بى . وان توحى بالحب والوفاء والخوف ، ليس ذلك اول علامة من علامات الظفر ، واكبر نصر تحققه قوتك ؟ ان تكون مبعث ألم أو لذة لآخر ، دون أن يكون لك أى حق فى ذلك ، اليس هذا أعذب غذاء تقتبذى به كبرياؤك ؟ وما هى السعادة ؟ انها ارتواء الكبرياء . لو اعتقدت اننى أحسن الناس وأقواهم ، لأصبحت سعيدا . ولو أحبنى جميع الناس ، لوجدت فى نفسى يتابع من الحب لا تنضب . والشر يلد الشر . ان الألم الأول الذى تعانیه يطلعك على اللذة التى يحققها لك تعذيب الآخرين . ولا يمكن أن تخطر فكرة الشر ببال أحد ، الا ويفكر فى تحقيقها فورا . قال احدهم : الأفكار مخلوقات عضوية ، ولادتها تهب لها شكلا ، وشكلها هو الفعل . والذى تولد فى ذهنه الأفكار أكثر من غيره ، يفعل أكثر من غيره . ويتبع ذلك أن العبقري اذا سمر على كرسي الوظيفة فاما ان يموت واما ان يجن ، مثله كمثل من أوتى جسما قويا ، اذا عاش حياة خاملة ساكنة ولم ينفق من قوته شيئا ، مات بسكنة القلب .

ما الأهواء الجامحة الا أفكار فى أول مرحلة من مراحل نموها . هى من شأن القلب الفتى ، وما أشد حماقة من يتصور أنه يتمكن أن يظل مضطربا بها ، حياته كلها . كثير من الأنهر الهادئة هى فى أول أمرها سيول عارمة جارفة . ولكن ما من نهر منها يظل يتوالب ويرغى ويزيد حتى لحظة انصبابه الى البحر . وكثيرا ما يكون هذا الهدوء دليل قوة كبيرة كامنة . ان الأفكار والعواطف الواسعة العميقة تنفى الفورات الهائجة والاندفاعات المحمومة . والنفس ، فى المأ ولذتها ، تمى كل ما يجرى فيها ادق الوعى ، وتقنع ذاتها بأن ما كان لابد أن يكون . تعرف انها ، بدون العواصف ، تجففها حرارة الشمس الدائمة . انها تتغذى بحياتها نفسها . تدلل ذاتها وتعاقب ذاتها ، كما يدلل ويعاقب طفل حبيب . لا يستطيع الانسان أن يفهم العدالة الالهية الا اذا بلغ هذه الدرجة العليا من معرفة نفسه .

حين أعدت قراءة هذه الصفحة لاحظت اننى ابتعدت عن موضوعى ... ولكن لا ضير !.. اننى اكتب هذه اليوميات لنفسى ، وكل ما أخطه سيكون لى فى المستقبل ذكرى ثمينة .

... ..

جاءنى جروشنيتسكى ، ووثب الى عنقى : لقد أصبح ضابطا .
وشرينا من الشيمانيا . وما هى الا برهة حتى دخل الدكتور
فرنر . قال فرنر يخاطب جروشنيتسكى :

— لا أهنتك ..

— لماذا ؟ ..

— لأن معطف الجنود الذى كنت ترتديه جميل عليك جدا . ثق
ان بدلة ضابط من ضباط المشاة تصنعها هنا ، لا تجعلك شائقا
كثيرا . انظر ، لقد كنت الى الآن فريدا فذا ، اما اليوم فقد
اصبحت كسائر الناس .

— لك ان تقول ماتشاء يادكتور، فلن يمتنعى كلامك من ان افرح !
وهمس فى اذنى :

— انه لا يعلم الامال التى تهبها لى هذه الشارات ! .. آه ...
شارات ، شارات ، نجبات ذات سلطان ... نعم ، اننى الآن
سعيد كل السعادة !

قلت له : هل ترافقتا فى جولة حول الفور ؟

انا ؟ ان اظهر للأميرة قبل ان ارتدى بدلتى الجديدة .

— هل تكلفنى ان ابلغها النبا السعيد ؟

— كلا ، ارجوك ، لا تقل لها شيئا ... اريد ان افاجئها بالامر
مفاجأة ...

— قل لى على الاقل الى أين وصلتما ؟

القاء سؤالى هذا فى اضطراب ، واخذ يفكر . كان يود لو يموه
ويتباهى ، ولكنه لم يجرؤ . وهو يخل أن يذكر الحقيقة .

— هل تعتقد أنها تحبك ؟

— هل اعتقد أنها تحببى ؟ أفكارك غريبة يا بتشورين ! .. وكيف

تريد ان تحببى بمثل هذه السرعة ... وهبها تحببى ، افيمكن
لامرأة مهذبة أن تبوح بهذه الامور ؟

— عظيم ! .. ولعلك ترى ايضا ان على الرجل المهذب ان يسكت ،

هو الآخر ، عن هواه .

— ولكن يا صديقى هناك السلوك ... بعض الاشياء لا تقال

ولكنها تحزر ..

— هذا صحيح ، ولكن الحب الذى يقرأ فى العينين لا يربط

امراة ... فى حين ان الكلام ... انتبه يا جروشنيتسكى ، انها

تهزأ بك ...

— هى ؟ ..

هتف بذلك ، وهو يرفع عينيه الى السماء ، ويتسمم ابتسامة تفيض بمعنى الرضا والاكتفاء . واضاف :

— اننى ارثي لك يا بتشورين .

ثم مضى الى سبيله .

فى المساء اتجه جمع غفير نحو الغور سيرا على الاقدام .

يرى علماء البلد أن هذا الغور ليس الا فوهة بركان منطفئ . وهو يقع فى أحد سفوح جبل ماشوك ، على مسافة فرست من المدينة . ويؤدى الى الغور ممر ضيق يتعرج بين الادغال والصخور . وقد قدمت ذراعى للاميرة الشابة حتى تحتاز الجبل ، فلم تركها بعد ذلك خلال التزهة كلها .

دار حديثنا فى أول الامر عن الناس نفتابهم وتنسدر عليهم . فاستعرضت من نعرفهم منهم حاضرين وغائبين ، واخذت أتفكه بمضحكاتهم ، ثم اخذت اتحدث فى ميوبهم ونقائصهم . واندفعت فى الحديث . بدأت بمزاح لطيف ، ثم انتهت الى اقداع خبيث . وطربت هى لذلك فى أول الامر ، ولكنها ما لبثت أن اعتسراها خوف . قالت :

— أنت رجل خطر . انى لاوتر أن اسقط فى غاية تحت سكين قاتل سفاك ، على أن يتناولنى لسانك السليط ... أسالك حادة لا هازلة : اذا بدا لك يوما أن تقول فى قول السوء ، فانتض سكيننا واذهبنى ... وما اظن أن ذلك عليك عسير .

— هل هيئتى هيئة قاتل ؟

— أنت شر من ذلك ...

ففكرت لحظة ثم قلت لها وقد بدا على وجهى تأثر عميق :

— نعم ، ذلك كان حظى منذ نعومة اظفارى . كان جميع الناس يقرأون فى وجهى علامات غرائز شريرة أنا منها برىء ، وما زالوا يفتروضونها فى ، حتى نبتت وتأصلت . كنت خجولا ، فاتهمونى بالكر ، فأصبحت كئوما . وكنت أحس بالخير والشر احساسا عميقا ، ولكن أحدا لم يعطف على ، بل كانوا جميعا يؤذوننى ، فأصبحت حقوقا أحب الانتقام . وكنت حزين النفس ، وكان الأطفال الآخرون فرحين هذارين ، وكنت أشعر اننى فوقهم ، فقيل لى اننى دونهم ، فأصبحت حسودا ، وكنت مهيا لأن أحب جميع الناس ، فلم يفهمنى أحد ، فتعلمت الكره . لم يكن شبابى الخالى من الفرح الا صراعا مع الناس ومع نفسى . خوفا من الهزء ، دفنت آبل

عواطفى فى أعماق قلبى ، فماتت هنالك . وكنت أحب ان أقول الحقيقة ، فلم يصدقنى أحد ، فأخذت أكذب . وقد تعلمت أن أسبر أغوار الناس ، وأن أدرك الدوافع التى تحركهم فأصبحت بارعا فى فن الحياة ، ولاحظت أن غيرى ممن لا يملكون هذا الفن كانوا سعداء ، يتمتعون ، من غير جهد ، بهذه الخيرات التى كنت أجهد للحصول عليها بلا كلال ، فولد اليأس فى قلبى ، لا ذلك اليأس الذى تذهب به رصاصة من مسدس ، بل هذا اليأس البارد ، العاجز ، الذى يختفى وراء سلوك لطيف ، وابتسامة طيبة . أصبحت روحى مشلولة . ذهب نصف نفسى : جف ، تبخر ، مات . قطعته ورميته بعيدا عنى . بينما كان النصف الآخر يتحرك ويتمنى أن يخدم جميع الناس . ولكن أحدا لم يلاحظ ذلك ، لأن أحدا لم يعرف أن النصف الضائع كان موجودا . ولكنك أبقيت الآن فى نفسى ذكراه . فقرأت لك ما كتب على قبره . كثير من الناس يرون ما يكتب على القبور مضحكا ، أما أنا فلا ، لا سيما حين أفكر فيمن يرقد تحت . على اننى لا أسألك أن تشاركينى الرأى ... وإذا رأيت فورتنى مضحكة ، فاضحكى ما شاء لك الضحك ... وثقى أن الضحك لن يجرحنى أبدا .

فى هذه اللحظة التقيت بعينها ، فإذا بالدموع تترقرق فيهما... كانت ذراعها المستندة الى ذراعى ترتعش ، وكان خداهما مضرجين بالحمرة . أنها تشفق على ، وترثى لحالى . ان الشفقة ، هذه العاطفة التى سرعان ما تستسلم لها المرأة ، قد أنشبت أظفارها فى أعماق قلبها البريء الذى لا خبرة له . فظلت صامتا طوال النزهة ، ولم تعاتب أحدا . هذه علامة خطيرة !

وصلنا الى القور ، وأفلتت كل سيدة ذراع فارسها ... ولكنها ظلت ممسكة بذراعى . لم تبهجها فكاهات المتظرفين من أهل المنطقة ، ولا أخافها المنحدر الشاهق الذى كانت عليه كما أخاف غيرها من الأوانس اللاتى أخذن يطلقن صرخات صغيرة ويغمضن أعينهن .

وحين عدنا ، لم أستأنف حديثنا الحزين الأول ، ولكنها لم تكن تعيب على أسئلتى البتة وعلى أمازيحى الا اجابات موجزة ، وهى شاردة اللب ذاهلة .

سألتها أخيرا : هل أحببت ؟ ..

فحدقت الى ، وهزت رأسها بالانكار ، ثم عادت مطرقة تحلم . كان واضحا أنها تود لو تقول شبيها ، ولكنها لا تعرف من أين

تبدأ . كان صدرها يخفق ... ما العمل ؟ ان كما من الحريق الشفاف لا يمكن أن يكون حصنا منيعا : لقد مرت شرارة كهربائية من ذراعى الى ذراعها . يكاد ينشأ الغرام دائما هكذا ، ومن الخطل ان تصور ان النساء يحبيننا لصفاتنا الجسمية او النفسية ، فلئن كانت هذه الصفات تهيب الجو ، وتعد قلوبهن لاستقبال النار المقدسة ، فان الملامسة الاولى هى التى تقرر كل شيء ... قالت بعد انتهاء النزوة ، وهى تحمل نفسها على الابتسام : - ألم اكن لطيفة جدا فى هذا اليوم ؟

وافترقنا .
انها غير راضية عن نفسها ... انها تتهم نفسها بالبرودة ... هذا نصر اول ، هذا اهم نصر ... ستحاول ان تعوض على فى الغد . اعرف ذلك عن ظهر قلب ، وهذا ما يضجر !
{ حزيران .

رايت اليوم فرا . صدمت راسى بغيرتها ! اظن ان الاميرة اتخذتها نجية ، فافضت اليها بأسرار قلبها . يجب أن اعترف انها احسنت الاختيار !
قالت فريا :

- اعرف الى اين تريد أن تصل . لماذا لا تقول انك تحبها ؟
- ولكننى لا احبها !

- فلماذا اذن تحاصرها ، وتشوشها ، وتقلق خيالها ؟ اننى لاعرفك . اسمع ، اذا كنت تريد أن اطمئن الى ما تقول ، فتعال بعد اسبوع الى كيسلوفودسك . سنذهب انا وزوجى الى هناك بعد غد ، وسنستقر هناك . اما الاميرة فستبقى هنا بعض الوقت ايضا . استاجر بيتا قريبا من بيتنا . سنسكن نحن فى البيت الكبير الذى يقع على مقربة من النبع . سنحتل نحن الطابق النهائى العلوى ، ولقد استأجرت الاميرة ليجوفسكايا الطابق الارضى ، غير ان البيت الذى يقع الى جانب هذا البيت ، ويملكه صاحب هذا البيت نفسه ، لايزال خاليا ... هل تأتى ؟

فوعدها بالمجيء ، حتى لقد ارسلت وصيفى لاستئجار ذلك المنزل اثنائى جروشنيتسكى فى الساعة السادسة ، وانبأنى بأن بذلته ستكون جاهزة فى الغد ، موعد الحفلة الراقصة ، وأضاف يقول : - سأستطيع اخيرا أن اراقصها طوال السهرة ... وسأفنى لها بكل ما فى صدرى .

- متى الحفلة الراقصة ؟
 - غدا ! ألم يبلغك نبؤها ؟ هي حفلة كبيرة تقيمها السلطات المحلية ...
 - تعال نتجول قليلا في الشارع .
 - يستحيل أن أخرج بهذا المعطف الحقير .
 - كيف ؟ أصبحت لا تحبه ؟
 وخرجت وحدي ، ولقيت الأميرة ماري ، ودعوتهما الى رقصة مازوركا ، فبدا أن ذلك أدهشها وسرها . قالت وهي تبسم ابتسامة فائنة :
 - كنت أحسب أنك لا ترقص الاضرورة ، كلمرة الماضية .
 كان يبدو عليها أنها لا تنتبه الى غيبة جروشنيتسكى . قلت لها : تنتظرك غدا مفاجأة سارة .
 - ما هي ؟
 - هذا سر ... ستكتشفينه في الحفلة .
 قضيت باقى اليوم في بيت الأميرتين ، ولم أجد هناك الا فرا ، وعجوزا ظريفا جسدا . كنت مشرق المزاج ، وارتجلت عددا من الاقاصيص العجيبة . كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمامي ، فكانت تصفي الى استطراداتي بانتباه بلغ من العمق ، والتركيز ، بل ومن الرقة ، انني ارتبكت . أين حيويتهما ، وصوتها المنير ، ونزواتها ، وكبرياؤها ، وبسمتها الساخرة ، ونظرتها الفائبة ؟
 ولاحظت فيما كل شيء ، فاذا وجهها الذي غيره المرض يلم به حزن عميق . كانت جالسة في الظلام ، في قاع مقعد كبير ، بالقرب من النافذة ... لقد أشققت عليها ووثيت لها ...
 فأخذت عندئذ أقص تلك الحكاية الدرامية ، حكاية لقائنا الأول ، وحيننا ، مع تفسير جميع الأسماء . فبلفت من جمال تصوير عاطفتي وقلقي واندفاعي ، ومن حسن البناء على أفعالها وطباعها ، أنها اضطرت الى أن تغفر لي معايشتي للأميرة .
 فتركت مقعدها ، وانتعشت فجأة ، وجاءت تجلس الى جانبيها ... ودقت الساعة الثانية من الليل ، حين تذكرنا أن الأطباء هنا ينصحون بالنوم في الحادية عشرة .

٥ حزيران .

دخل على جروشنيتسكى قبل حفلة الرقص بنصف ساعة ، مشرق الوجه ، مرتديا بدلته الجديدة ، بدلة ضابط من ضباط المشاة ،

وقد ربط بالزر الثالث من قميصه سلسلة من البرونز علق بها نظارة . كانت شارنا الكتفين مرتفعتين كجناحي اله حب صغيرين . وكان حذاؤه يزقزق . وكان يمسك بيده اليسرى قفازا بنيا وقبعة . وكان يمر بيده اليمنى ، في كل لحظة ، على الفدائر الصغيرة من ذؤابته الجمدة . كان وجهه يعبر عن الرضا والتوجس في آن واحد ان منظره المحتفل . وسره المتفطرس ، خليقان بان يحملاني على ضحك شديد ، لولا ان ذلك يتعارض مع ما بيت من خطط .

ورمى قفازه وقبعته على المنضدة ، وأخذ يشد ذيل بدلتسه ، ويصلح من زينته أمام المرأة . لقد عقد ربطة سوداء على ياقته العالية التي تستند اليها ذقنه ، وكانت الربطة ترتفع عن زيق القميص مسافة أصبعين ، ولكن يظهر ان هذا بدا له غير كاف ، فرفعها حتى صارت عند أذنيه . وأنفق في ذلك جهدا كبيرا ، ذلك ان زيق البدلة كان ضيقا جدا ، وكان يزعجه كثيرا ، فاحمر من ذلك وجهه .

قال لى في شيء من عدم المبالاة ، ودون ان ينظر الى :
... يظهر أنك كنت خلال جميع هذه الأيام تفاؤل أميرتى بلا انقطاع
فقلت استعير ذلك التعبير الذي كان يؤثره ماكر من الطف الماكورين
بني عصر آخر أشاد به بوشكين :

— هذا الشاى لم يخلق لغمى الردىء .
— قل لى ، بدلتى هذه ، هل هى جميلة على ؟ أه من ذلك اليهودى اللعين ! .. انها لتزعجنى تحت الدراعين ... هل عندك عطر ؟

— أيضا ؟ .. لقد شممت رائحة عطر الورد الذى تطيبت به ،
جن مسافة فرست كامل .
— لا بأس ، هات أيضا .
— وصب نصف زجاجة العطر على ربطته ، ومنديله ، وإكمامه .
سألنى :

— هل ترقص الليلة ؟
— لا أظن ...
— أخاف ان أبدا المازوركا مع الأميرة ، وأنا لا أكاد أعرف
أى خطوة من خطواتها ...
— ولكن هل دعوتها لرقصة المازوركا ؟
— لم أدمها بعد ...

— انتبه ! من الممكن أن تسبق الى ذلك ...
فضرب جبينه قائلا :

— هل تعتقد ؟ اذن الى اللقاء ! سانتظرها عند المدخل .
وهنا أخذ قبعته وذهب بخطا واسعة .

وبعد نصف الساعة ، خرجت أنا أيضا . ان الشوارع مظلمة
مقفرة . والناس يهرعون حول المجتمع الراقي ، أو حول الطعم ،
سمة ماشئت . كانت التوافذ مضيئة ، وحمل الى نسيم المساء
اصوات موسيقى عسكرية . كنت اسير على مهل ، لا اسرع . وكنت
حزين النفس . تساءلت : ترى هل يمكن أن تكون رسالتى كلها في
هذه الحياة الدنيا هي أن أحطم آمال البشر ؟ اننى منذ عشت
وفعلت ، يستخدمنى القدر دائما لحل درامات الناس ، كان احدا
لايستطيع بدونى أن يموت أو أن يياس ! كنت الشخصية التى لا بد
منها في الفصل الخامس . وقد مثلت ، رغم انفى ، ذلك الدور
المؤلم ، دور جلاذ أو خائن . ماذا كانت غاية القدر ؟ اتراه اراد
أن يجعل منى مؤلف تراجمديات برجوازية ، وروايات عائلية ، أو
كاتب أقايصص لمجلة « مكتبة للقراءة » مثلا ؟ .. أين لى أن اعرف
ذلك ... ما أكثر أولئك الذين يحسبون ، حين يبدأون حياتهم ،
أنهم سيختمونها كالاسكندر الأكبر أو كاللورد بايرون ، ثم يظنون
حياتهم كلها مستشارى شرف ؟

حين دخلت الى القاعة ، اختفيت بين جمهور الرجال ، وأخذت
أراقب . كان جروشنييتسكى واقفا الى جانب الأميرة الشابة يحدثها
بحرارة ، وكانت تصفى اليه ذاهلة ، وهى تنظر من حولها ، عاضة
على مروحيتها بنسفتيها . ان وجهها يعبر عن التبرم ونفاد الصبر .
ان عينيها تبحثن عن أحد . فاقتربت على هون من وراء ، لاستمع
الى حديثهما ، قال جروشنييتسكى :

— انك تعذبينى أينها الأميرة ، لقد تغيرت كثيرا اثناء غيابى .

فقالت له الأميرة وهى تلفه بنظرة سريمة لم يدرك ما فيها من
سخر خفى :

— وانت أيضا تغيرت ..

— أنا ، تغيرت ؟ لن اتغير في حياتى كلها ! انت تعرفين ان هذا
مستحيل . من يراك مرة واحدة يحتفظ خياله بصورتك الالهية
مدى الحياة ! ..
— كفى ! ..

- لماذا أصبحت لا تريد أن تسمى ما كنت تصفين إليه بالأمس راضية ؟

- لأننى لا أحب التكرار .

قالت ذلك وهى تضحك ...

- آه ... لقد أخطأت الظن خطأ مؤلماً مرا ... كنت مجنوناً إذ ظننت أن هذه الشارات ستهدى لى حق الأمل على الأقل ... لا ، لا ، كان ينبغى أن ارتدى الى الأبد معطفى الحقر الذى لعل الفضل يرجع إليه فيما أظهرت من اهتمام بى ...

- حقا كان معطفك أنسب لك ...

فى هذه اللحظة تقدمت منها وحيبتها ، فاحمر وجهها قليلا ، وقالت :

- اليس صحيحا ياسيد بتشورين أن معطفه الرمادى كان أجمل ؟

- لست من مؤيدى هذا الراى ... أن بدلته تظهره أفتى مما كان يبدو .

لم يستطع جروشنيتسكى أن يتحمل الضربة ، فهو يطمع كسائر الشباب أن يكون طاعنا فى السن منذ الآن . أنه يتخيل أن الهوى قد خلف فى وجهه آثارا عميقة تغنى عن الآثار التى يخلفها تعاقب السنين . فنظر الى نظرة حائقة ، وضرب الأرض بقدمه ، وابتعد عنا ...

قلت للأميرة :

- أما كنت منذ مدة قريبة ، على رغم أنه كان مضحكا دائما

تجدينه طريقا شائقا ... بمعطفه الرمادى ؟

ففضت طرفها ، ولم تجب بشيء .

ظل جروشنيتسكى طوال السهرة يلاحقها ويلازمها ، ويرقص معها أو يرقص أمامها . وكان يلتمها بعينه التهاما ، ويتنهد ، ويرعجها بتوسله وعتابه . فلما أنتهت رقصة الكادريل الثالثة ، كانت مارى قد اشمازت منه .

قال لى وهو يقترب منى ، ويمسك بلعائى :

- ما كنت أصدق أن تفعل ذلك !

- ماذا ؟ ..

فاجاب بصوت فخم :

- سترقص المازوركا مع مارى ؟ .. لقد اعترفت لى ...

- طبعاً ! وهل يجب أن تجعل من الأمر سرا ؟

- كان ينبغى أن أتوقع ذلك من هذه البنت الصغيرة ... من

هذه العابثة ... ولكننى سأنتقم !
- يجب أن نتخذ على معطك أو على شاراتك ، لا عليها هي !
هل يكون اللذب ذنبها إذا أنت لا تصجها الآن ؟ ..

- لماذا أملتني إذن ؟ ..
- ولماذا أملت أنت ؟ أنا أفهم أن يرغب الانسان فى شيء ، وأن يسعى الى الحصول عليه ، أما أن يأمل ؟ ..
فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

- لقد ربحت الرهان ، ولكنك لم تربحه تماما ...
وبدت المازوركا . فلم يختر جروشنيتسكى ، طوال الوقت ، إلا الأميرة ، وكان يجيء إليها فرسان آخرون يدعونها كل لحظة ...
واضح ان كل هذا تأمر على . لا بأس . أنها تريد ان تتحدث معى ، فجالوا بينها وبينى ، وسترداد من ذلك رغبتها فى التحدث الى ! ..

شددت على يدها مرتين ، وفى المرة الثانية سلت يدها دون ان تنبس بكلمة . قالت بعد انتهاء المازوركا :
- لن أنام اليوم نوما هادئا ! ..
- هل هذا بسبب جروشنيتسكى ؟ ..
- لا ، لا ! ..

كان فى وجهها من علامات الحزن والكآبة ما جعلنى أقطع على نفسى عهدا ان أقبل يدها فى ذلك المساء نفسه .
وانفض الجمع ، فلما ساعدتها على الصعود الى عربتها ، اسرمت فحملت يدها الصغيرة الى شفتى . وكان الظلام مخيما ، فلم ير أحد شيئا .
عدت الى القاعة راضيا عنها كل الرضا .

كان هناك عدد من الشباب يتعشون حول مائدة كبيرة . وكان جروشنيتسكى بينهم . فلما دخلت سكتوا جميعا عن الكلام : كان واضحا أنهم يتحدثون عنى . ان كثيرا من الناس يحقنون على ، منذ حفلة الرقص الأولى ، ولا سيما الرئيس الخيال . لا شك ان عصابة تتألف ضدى ، ولا شك أن جروشنيتسكى هو رأسها .
ها هو ذا يرفع عقيرته ، ببسالة وغطرسة ! ..

حسن . اننى أحب أعدائى ، لا جبا مسيحييا طبعاً ... انهم يسلوننى ، وينشطون دمى ... ان اظل دائما على يقظة ، أن افاجيء كل نظرة من نظراتهم ، أن أحزر كل كلمة من كلماتهم ، أن أنفذ

الى صميم نواياهم ، ان احبط مشاريعهم . ان اظهر باننى غر
مخدوع ، ثم اهدم بضربة واحدة كل ما بنوا بالجهد الطويل الشاق
والكر والحيلة : تلكم هى عندى الحياة !
لم ينقطع جروشنيتسكى والرئيس الخيال : طوال السهرة ، عن
التهامس وتبادل نظرات السكر .

٦ حزيران

سافرت فبرا هذا الصباح الى كيسلوفودسك مع زوجها . لقد
التقيت بعربتها فى طريقى الى بيت الأميرة ليجوفسكايا ، فهزت لى
راسها ، وكان فى نظرتها شئ من العتب .
ولكن ما ذنبى ؟ لماذا لا تريد ان تتيح لى خلوة ؟ الحب كالنار ،
ينطفئ اذا لم تغذيه بالوقود . لعل الفرة ان تنجح ، حيث اخفقت
التوسلات .

بقيت مع الأميرة الأم ساعة كاملة ، ولم او مارى : انها مريضة .
لم تخرج هذا المساء الى الشارع الكبير . ان العصابة التى تالفت
قد تسلحت بنظارات ، واصطنعت هيئة التهديد . سرنى ان الأميرة
مريضة . كان يمكن ان يزججوها ... رأيت جروشنيتسكى اشعث
الشعر ، وقد لاحت على وجهه علامات اليأس . واعتقد انه متالم ،
ولا سيما من ناحية عزته الجريحة . ولكنه من أولئك الناس الذين
يضحك المرء حتى من يأسهم .

حين عدت الى بيتى ، شعرت ان شيئاً ينقصنى ... اننى لم
ارها ! انها مريضة ! أترانى احبها ؟ دع عنك هذا الهراء ! ..
٧ حزيران .

فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، وهى الساعة التى اعتادت
السيدة ليجوفسكايا ان تذهب فيها الى حمامات بيرمولوف للتعرق ،
مررت امام بيتها ، فرأيت الأميرة مارى جالسة الى النافذة .
تحلم ، فلما رأتنى أسرعت تنهض .

ودخلت ، ولم يكن فى حجرة المدخل أحد ، فاستعملت الحرية
التي تبيحها العادات هنا ، فتفقت الى الصالون دون استئذان ...
كان وجه الأميرة الجميل شاحبا كاييا . وكانت واقفة بالقرب من
البيانو ، قد وضعت يدها على مسند مقعدها ... كانت يدها
ترتعث قليلا . فاقتربت منها بهدوء ، وقلت لها :
— أنت حائقة على ؟ ..

فرفعت الى نظرة ذابلة عميقة ، وهزت راسها ... كانت شفاتها

تريدان أن تقولاً شيئاً ، ولكنهما لا تستطيعان . وامتلأت عيناهما بالدموع . وتهاوت على مقعدها وهى تخفى وجهها بيديها .
قلت لها وأنا أتناول يدها :

— ما بك ؟ ..

فقلت :

— لاشك أنك تحترقنى ! .. دعنى دعنى ...

فلما ابتعدت بضع خطوات ، استوت على مقعدها ، ورأيت الشرر يتطاير من عينيها ...

وقفت ، وأنا أضع يدى على قبضة الباب ، وقلت لها :

— سامحني أيتها الأميرة ! .. لقد تصرفت تصرف مجنون ...

ولن يقع هذا بعد الآن أبداً ... سأحترس ... فيم أطلعك على ما جال في نفسى حتى الآن ؟ أنك لن تعرفيه ، ومن الخير لك أن لا تعرفيه . وداعاً !

وحين خرجت ، خيل الى اننى سمعتها تبكى .

ظلمت حتى المساء هائماً على وجهى في جوراماشوك ، حتى اذا عدت الى البيت ارتفعت علي سريري وقد أخذ منى الاعياء كل ما أخذ . وجاءني فرنر يسألنى :

— هل صحيح أنك ستزوج الأميرة ليجوفسكايا ؟ ..

— نعم ... ؟

— المدينة كلها تلفظ في الأمر . ومرضاي جميعاً يتحدثون في

الخبر الهام ، والمرضى أناس يعرفون دائماً كل شيء .

قلت في نفسى : « لا شك أن جروشنيتسكى هو الذى دبر هذه المكيدة » . قلت للدكتور :

— كى أبرهن لك ، يا دكتور ، على كذب هذه الشائعات ،

أفضى اليك بهذا السر المكتوم ، وهو اننى مسافر غداً الى كيسلوفودسك .

— والأميرة ؟ ..

— سبقى هنا أسبوعاً أيضاً .

— إذن لن تتزوجها ؟ ..

— يا دكتور ، يا عزيزى الدكتور ، انظر الى ، هل ترى فى أى

شيء مما يرى فى خطيب ؟ ..

فأجاب :

— لا أقول هذا ...

ثم اضاف وهو يتسم ابتسامة خبيثة :
 - ولكنك تعلم ان هناك حالات يضطر فيها رجل شريف الى
 الزواج ، وهناك امهات لا تفصل شيئا من أجل تحاشي هذه
 الحالات ... اليك نصيحة صديق : كن على حذر من الامر ! ..
 ان الهواء ، هنا ، في المياه ، خطر جدا ... كم من شباب ممتازين
 مضوا من هنا رأسا الى الكنيسة ، مع انهم كانوا يستحقون حظا
 أجمل ! .. وانا نفسي ارادوا ان يزوجوني ، هل تصدق ؟ .. هي
 أم من القضاء - بنتها مصابة باليرقان . لسوء حظي قلت لها ان
 ألوان ابنتها تعود اليها بعد الزواج ، فاذا هي تعرض على ،
 ودموع الشكر تفيض من عينيها ، ان اتزوج ابنتها وان احظى
 بثروتها ... كانت ثروتها خمسين ألفا فيما أظن . ولكنني اجبتها
 يائنى عاجز عن ان اكون زوجا .
 وتركنى فرر ، مقتنعا كل الاقتناع بأنه نهني وجعلنى على حذر
 من امرى .

لقد حفظت من كلامه كله ما يلي : ان اشاعات خبيثة عنى وعن
 الأميرة ، تدور فى المدينة . سيدفع جروشنيتسكى ثمن ذلك ! ..

١٠ حزيران .

انا فى كيسلوفودسك منذ ثلاثة ايام . اننى ارى فى البئر ،
 وفى النزهة ، كل يوم . متى استيقظت فى الصباح اذهب الى
 النافذة ، واسدد نظارتى الى شرفتها ، وتكون هى مرتدية ثيابها
 منذ مدة طويلة تنتظر الاشارة المتفق عليها ، فنلتقى فى الحديقة التى
 تهبط من بيتنا الى البئر ، كأنما مصادفة على غير ميعاد . ان
 هواء الجبل المنعش قد أعاد الى لونها نضارته ، ورد اليها شيئا
 من القوة . صدق من قال ان نارزان تصنع هراقلة . ان سكان
 المنطقة يؤكدون ان هواء كيسلوفودسك يفتح القلوب للحب ، وان
 الروايات التى تبدأ على سفح ماشوك تنحل عقدها هنا . ان جو
 العزلة يفوح من كل شئ فى هذا المكان ، كل شئ هنسا سر :
 الظلال الكثيفة فى دروب اشجار الزيزفون المنحنية على السيل الذى
 يرغى ويزيد واتبا من صخرة الى صخرة ، ويشق طريقه بين الجبال
 المخضوضرة ، الفجاج المليئة بالضباب والصمت ، تتشعب فى كل
 اتجاه ، طراوة الهواء العبق ، المحمل بروائح الاعشاب العالية
 الجنوبية ، وعبير اشجار الاكاسيا البيضاء ، خريف المياه يهدد
 الاذان بغير انقطاع .. خريف السواقي الباردة التى تتلاقى على طرف

الوادي لتجري معا الى مصبها في نهر بودكوموك ... ان الثغرة
تتسع من هذه الجهة . وتستحيل الى واد تملؤه الخضرة ويتلوى
فيه طريق اقبر . كلما نظرت الى هذا الطريق تراءى لى ان عربة
تصل ، يطل من نافذتها وجه جميل فاتن . لقد مرت عربات كثيرة .
ولكن العربة التى انتظرها لم تصل ... ان الضيعة التى وراء
القلمة ، تجم بالناس . ومن خلال صفين من اشجار الحور ارى
عند المساء أنوار المطعم الذى بنى على الهضبة الواقعة على بعد
بضع خطوات من منزلى .

واظل أسمع حتى ساعة متأخرة من الليل جلبة الأصوات ، ورنين
الكثوس .

ما من مكان يشرب فيه الناس من خمر كاخيتبا ومن الماء المعدنى
مثلما يشربون في هذا المكان :

فبعض الناس يخلطون هذين المصلين
ولست أنا من عداد هؤلاء .

ان جروشنيتسكى وعصابته يحدثون كثيرا من الصخب في
المطعم . ولا يكاد يلقى على التحية .

لقد وصل أمس ، وتشاجر حتى الآن مع ثلاثة شيوخ ارادوا ان
يدخلوا الحمام قبله : لا شك أن تعاسته قد أحسأته امرأ يجب
القتال !

١١ حزيران .

اخيرا ، وصلنا . كنت جالسا الى النافذة حين سمعت صوت
عربتهما . لقد ارتعش عندئذ قلبى . ما معنى هذا ؟ اأكون عاشقا ؟
ليس هذا بمستبعد على طبعى العجيب .

تفديت في منزلهما . وقد نظرت الى الام نظرة رقيقة ، ولكنها
لا تترك ابنتها . الحال سيئة . غير أن فيرا ، في مقابل ذلك ، تغار
من الاميرة : جاءت اذن السعادة التى طالما بحثت عنها ! اى شيء
تمتتع المرأة عن فعله من اجل ان تفيظ غريمتها ؟ اذكر ان امراة
قد أحببته يوما لاني كنت أحب غيرها . لا شيء أعجب من منطقتين !
يستحيل أن تقنعهن بأى شيء ، يجب ان تتأذى بهن الى أن يقنعن
أنفسهن بأنفسهن . ان فرع الحجج التى يمكن أن يهدم ما استقر
في اذهانهن فريد في نوعه . يجب عليك اذا أردت السيطرة على
منطقتين أن تتخلى عن أبسط قواعد المنطق . مثال : هذا استدلال
طبيعى :

هذا الرجل يحبني ، ولكنني متزوجة ، اذن يجب الا احبه .
وهذا استدلال امرأة :
يجب الا احبه ، لأنني متزوجة ، ولكنه يحبني ، اذن ...
وهنا نصمت .. لان العقل ليس هو الذي يتكلم ، بل اللسان ،
والعينان ، ثم القلب ، اذا كان لهن قلب .
لو وقعت هذه الكلمات تحت عيني امرأة ، لاستاعت من ذلك
اشد الاستياء ، وقالت هذا افتراء ! ..
منذ نظم الشعراء شعرا ، ومنذ قرأ النساء هذا الشعر (ويجب
ان نشكر لهن ذلك أعرق الشكر) سميت النساء ملائكة ، وبلغت
هذه التسمية من التكرار أنهن من بساطة قلوبهن صدقنها ،
ناسيات أن هؤلاء الشعراء أنفسهم يمكن أن يضعوا نيرون في مصاف
انصاف الآلهة ، في سبيل مال يحصلون عليه ...
لماذا اقول في النساء هذا الكلام الهاجر ، أنا الذي لا أحب في
الدنيا غيرهن ، أنا الذي أستطيع دائما أن أضحي من أجلهن
برأحتي ، بطموحي ، بحياتي ؟ ولكنني اذا انتزعت عن وجوه
النساء هذا الحجاب السحري الذي لا يستطيع أن تنظر الى ما
وراءه الا عين متمرسة ، فأنني لا أفعل ذلك مدفوعا بحق شديد
وكبرياء جريئة . كل ما اقله عنهن ليس الا حقائق :

ملاحظات العقل البارد

والقلب تملؤه المرارة * .

ينبغي للنساء ان يتمنين ان يعرفهن جميع الرجال كما يعرفهن
أنا ، لأنني منذ أصبحت لا أخافهن ومنذ فضحت نواحي الضعف
الصغيرة فيهن ، ازداد حبى لهن مائة مرة
لقد شبه قرنر النساء ، ذات مرة ، بالضايبة المسحورة التي
يتحدث عنها تاس في « تحرير القدس » ، فيقول : « متى اقتربت
انتابتك ألوان اللعز كلها : الواجب ، الضرور ، الأدب ، رأى الناس ،
سخرهم ، احتقارهم ... ولكن يجب عليك أن تتقدم دون أن
تنظر ... فاذا بهذه الأشباح تختفى شيئا بعد شيء ، ثم اذا أنت
امام فسحة هادئة مضيئة يزهر فيها الآس المخضوضر . ولكن ويل
لك اذا خفق قلبك منذ الخطوات الأولى ، ونظرت الى الوراء ! »

١٢ حزيران .

* بيان من رواية يوشكين الشعرية « يغفني أوفيني »

كانت سهرة اليوم حافلة بالأحداث . على مسافة ثلاثة فرسات من كيسلوفودسك ، في الفج الذي يجري فيه بودكوموك ، هناك صخرة تسمى الحلقة ، هي أشبه بباب صنعته يد الطبيعة . أنها تنتصب قائمة على هضبة عالية ، واليها ترسل الشمس عند المغيب نظرتها الملتهبة الأخيرة . ذهبنا الى هناك رهطاً من الفرسان نريد ان نتأمل غياب الشمس من هذه الكوة الصخرية ... الحقيقة أن احدا لم تخطر له الشمس ببال ... كنت أرافق الأميرة الصغيرة على حصاني . وعند العودة كان يجب علينا أن نقطع بودكوموك مخاضاً . ان أنهار الجبال خطرة ، مهما تكن صغيرة ، لاسيما وان قاعها منظر سحري حقيقى ، يتغير بضغط المياه كل يوم ، فاذا المكان الذي كان فيه بالأمس صخرة أصبح اليوم ثغرة . امسكت بأعنة حصان الأميرة ، وأدخلته في الماء الذي لم يصل الى أعلى ركبته ، واخذنا نقطع النهر على مهل ، في عكس اتجاه التيار، مواربة . وانتم تعلمون أن المرء حين يقطع نهراً سريعاً يجب أن لا ينظر في الماء ، والا أصيب بدوار . وقد نسيت أن ابنه الأميرة ماري الى ذلك .

فما أن وصلنا الى منتصف النهر ، حيث يتدفق الماء أسرع ما يكون ، حتى رأيت الأميرة ترنح على سرجها ، وتقول بصوت ضميم : « أشعر اننى في حالة سيئة » ... فانحنيت عليها بسرعة ، وطوقت جسمها اللدن بلراى ، وتمتمت أقول لها :
- انظرى الى فوق ... الأمر بسيط ! ولا تخافى ، فاننى معك .

وشعرت بتحسن ، فارادت أن تنسل من بين ذراعى ، ولكننى شددت قدها الرشيق اللدن شدا أقوى ، حتى كاد يلامس خدى خدها .. وكان خدها يتوقد كانه اللهب .
- ماذا تعمل ؟ يا الهى ! ..

ولكننى لم ألق بالاً الى قلقها واضطرابها ... ولامست شفتاى وجنتها النساعمة . فارتعشت ولكنها لم تقل شيئاً . كنا وراء الجميع ، فلم يرنا احد . فلما وصلنا الى الضفة الثانية من النهر، كانوا جميعاً يخبون . وحسبت الأميرة حصانها عن العدو ، وظللت انا الى جانبها . كان واضحاً ان صمتى يقلقها ، ولكننى كنت قد حلفت الا أنبس بكلمة ، من قبيل حب الاطلاع . كنت أريد أن أعرف كيف تخرج من هذا المأزق . فقالت لى أخيراً بصوت تمازجه الدموع :

— اما انك تحتقرنى ، واما انك تحبنى كثيرا . لعلك لا تريد الا
أن تعبت بى وتسخر منى ، تدخل القلق والاضطراب الى نفسى ،
ثم تدمنى وشأنى ... سيكون هذا من الحقارة والخسة والجبن
بحيث أن تصوره وحده ... لا ، لا ، أليس كذلك ، (استدركت
هذا الاستدراك بلهجة عذبة من الثقة) ، اذ ليس فى شيء يمكن أن
يحرمنى من الاحترام الذى أستحقه ؟ اما جراتك ، فيجب على ،
نعم يجب على ، أن اغفرها لك ، لأننى سمحت بها .. ولكن
أجبنى ، تكلم ، أريد أن اسمع صوتك ! ..

كان فى كلماتها الأخيرة هذه فراغ الصبر الانثوى ، ولم املك
الا أن ابتسم له بالرغم منى . ومن حسن الحظ أن الظلام كان قد
بدأ يخيم .. ولم أحب بشيء .
فأردفت تقول :

— لا تزال صامتا ؟ لعلك تريد أن أكون أنا البادئة بالاعتراف
بأننى أحبك ؟

فظللت ملتزما الصمت ...
فاستأنفت تقول وهى تلتفت الى فجأة :
— قل ، أهذا ما تريد ؟

وكان فى قوة نظرتها وصوتها شيء يخيف . فأجبت وأنا اهزكتنى :
— لا داعى الى ذلك !

فضربت حصانها بالسوط ضربة قوية ، واندفعت فى الطريق
الضيق الخطر لا تبالى . وبلغ عدوها من السرعة أننى لم استطع
أن ألحق بها الا فى كثير من العناء ، وحين وصلت اليها كانت قد
أدركت الركب . وظلت ، حتى وصلنا الى البيت ، لاتزيد على أن
تضحك وتتكلم . كان فى حركاتها شيء من الحمى . ولم تلتفت الى
بنظرة واحدة . لاحظ الجميع هذا المرح غير المألوف . وسرت
الأميرة الام بذلك بينها وبين نفسها . ولكن ابتها كانت تعانى نوبة
عصبية ، لا أكثر من ذلك ولا أقل . قلت فى نفسى لن تنام هذه
الليلة ، وستبكى كثيرا . وأحدثت هذه الفكرة فى نفسى لذة عظيمة .
ثمة لحظات أفهم ذلك الشبح الذى يخرج من القبر يمتص دماء
الاحياء ... ومع ذلك فانا أبدا فتى طيبا شجاعا ، وأفعل كل شيء
من أجل ذلك .

ونزلت السيدات عن خيولهن ، ودخلن الى بيت الأميرة . كنت
فى قلق واضطراب ، فمضيت أعدو على حصانى فى الجبل ، تبديدا

لهذه الافكار التى تتلاحق سريعة فى راسى . وجاء المساء رطبا بليلا بالندى ينشر طراوة مسكرة . وطلع القمر وراء الدرى المظلمة . كانت كل خطوة من خطوات حصانى تدوى فى الفجاج الصامتة دويا أصم . وأوردت دابتنى شلالا من الماء . وما زلت أصب الهواء النقى من هذه الليلة الجنوبية ، حتى قفلت راجعا أعود الى بيتى . كنت اجتاز القرية . ان الأنوار أخذت تنطفئ فى النوافذ . وخفراء سور القلعة يتخاطبون مع العسس من جنود القوزاق بصوت بطيء ...

ولاحظت ضوءا غير مألوف فى بيت بنى على ضفة واد من الوديان . وسمعت اصواتا مبهمة وصرخات . لاشك انهم عسكريون يقصفون ، فوثبت عن حصانى ، واندست تحت النفاذة ، وكان أحسد مصراعيتها لم يحكم اغلاقه ، فاستطعت ان أرى وان أسمع . كانوا يتحدثون عنى .

كان الرئيس الخيال ، وقد استخفته الخمر وتارت حماسه ، يضرب المنضدة بيده ، يطلب الصمت والاصفاء ، ثم يقول :

- أيها السادة ، هذا امر لا يمكن قبوله . ان بتشورين يستحق ان نلقنه درسا . ان هؤلاء الأغرار الذين يأتون من بطرسبرج يظنون شامخين الى ان يتلقوا ضربة على الأتف حسنة . يظن انه وحده عاش فى المجتمع الراقى ، لأنه يلبس دائما قفازين نظيفين ، وينتعل حذاءين لامعين .

- وانظروا الى هذه الابتسامة المتكبرة ! .. الا اننى على يقين من انه جبان ، نعم ، نعم ، جبان ... قال جروشنييتسكى :

- اعتقد ذلك أيضا . لقد تعود ان يتخلص من المازق بالمزاح . فى ذات يوم ، بلغت من القسوة عليه فى الكلام ان أحدا غيره لو كان فى مكانه لقتلنى حتما . ولكنه استقبل كلامى بضحك ! طبعاً ، لم أطلبه للمبارزة ... تركه وشأنه ... ثم اننى لم أشأ ان أبدا ... وهنا ارتفع صوت يقول :

- جروشنييتسكى حائق عليه لأنه خطف منه الاميرة .

- وهذا كلام مسخيف ! .. صحيح اننى توددت الى الاميرة قليلا ، ولكننى سرعان ما كففت ، لأننى لم أكن أنوى ان أتزوجها ، وليس من مبادئى أن أغرر بفتاة
قال الرئيس الخيال :

- أؤكد لكم انه أجبن انسان على وجه الأرض ... اقصد

بتشورين لا جروشيتسكى... جروشيتسكى رجل شهم شجاع.
ثم انه صديقى ... ايها السادة : هل يحب احد منكم ان يدافع
عن بتشورين ؟ لا احد ؟ هذا حسن . هل تريدون ان تمتحنوا
شجاعته ؟ سيسليكم ذلك ...

— نعم ، ولكن كيف ؟

— اسمعوا . ان جروشيتسكى هو الحاقد عليه بوجه خاص ،
فعليه اذن يقع تمثيل الدور الاول : يماحكه ويناقره عند اول مناسبة
تافهة ، ويطلبه للمبارزة ... انتظروا ... يطلبه للمبارزة ، نعم ...
ويتم كل شيء ، التحدى ، التهيئة ، الشروط ، على احسن
مايرام ... بصورة فخمة ، بصورة مؤثرة . سيكون هذا من شأني
انا . واكون انا مرافقتك ، يا صديقى . نعم . كل شيء الى هنا
حسن ! واليكم الآن المضحك في الامر . لن نضع في المسدسين
رصاصة . وانا كفيل لكم بان بتشورين سيتراجع ! اضع كلا منهما
على بعد ست خطوات من الآخر ... ما قولكم ايها السادة ؟

فهمتوا من كل صوب يقولون :

— عظيم ، فكرة عظيمة !

— وانت يا جروشيتسكى ، ما رايتك ؟

انتظرت جواب جروشيتسكى وانا ارتعد . ان غضبا باردا قد
استولى على ، وانا اتصور اننى ، لولا هذه المصادفة العابرة ،
لاتخذنى جميع هؤلاء الحمقى اضحوخة . ولو ان جروشيتسكى
رفض ، لوثبت اعانقه . ولكنه بعد بضعة لحظات من الصمت ،
نهض واقفا ، ومد يده الى الرئيس يقول :

— اتفقنا .

يصعب وصف الحماسة التى ظهرت عندئذ على وجوه جميع
هؤلاء الناس ! ..

وعدت الى بيتى فريسة شعورين متعارضين . اما الاول فهو
شعور الحزن . « لماذا يكرهنى هؤلاء الناس جميعا ؟ هل اسأت الى
احد منهم ؟ لا ... هل يمكن ان يكون منظرى وحده يوحى بالكراهة
والعداوة ؟ » واما الشعور الثانى فهو وحشية شريرة تجتاح نفسى
شيئا فشيئا . قلت وانا اذهب واجيء فى الغرفة : « حذار ياسيد
جروشيتسكى ! .. لا مزاح من هذا النوع ممي ... ستدفع
غاليا لمن مجاملتك لرفاقتك هؤلاء الاقبياء ... لن اسمح بان اكون
الموبتكم ! .. »

ولم أستطع أن أغمض جفني الليل كله . حتى إذا نهضت من فراشي في الصباح كان وجهي أصفر كليمونة .

ولقيت الأميرة عند البئر ، في الضحى . قالت وهي تحديق الى :

— آلت مريض ؟

— لم أقم طوال الليل .

— ولا أنا نمت . كنت أتهلك ... ربما ظلما . ولكن اشرح ...

انني أستطيع أن أغفر لك كل شيء ...

— كل شيء ، حقا ؟

— نعم ، على شرط أن تقول الحقيقة ... اسرع ... لفسد

فكرت طويلا . وحاولت أعطي سلوكك ، وإن أبرره ... لعلك تخشى

بعض العوائق من جهة أهلي ؟ ولكن ليس هذا شيئا ... (وهنا

أضطرب صوتها) سأتوسل اليهم ... لعل هذا هو وضعك ...

ولكن تق انني أستطيع أن أضحي بكل شيء في سبيل من أحب ...

اوه ! أجبني بسرعة ، أرحمني ... ألا تحترقني ؟ قل !

وكانت قد أمسكت بيدي .

كانت أمها تسير أمانا مع زوج فريا ، فلم تر شيئا . ولكن

المرضى الذين يتنزهون كان يمكنهم أن يروا ... وهم أطول الناس

لساناً في النسيمة ، فرعان ما سللت يدي من وثاقها العنيف

الجامع . وقلت لها :

— سأقول لك الحقيقة كلها ، لا أحاول أن أبرر نفسي ، ولا أن

أعطي سلوكي . أنا لا أحبك .

فاصغرت شفتيها قليلا ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— دعني .

فهزرت كتفي ، ثم أدت لها ظهري ، وابتعدت .

١٤ حزيران .

انني لأحترق نفسي في بعض الأحيان ... ترى اليس هذا هو

السبب في انني أحتقر الآخرين ؟ ... لقد أصبحت عاجزا عن

الاندفاعات النبيلة ، اذ أخشى أن أصبح في نظر نفسي مضحكا . لو

كان غيري في مكاني ، لقدم للأميرة * Son Cœur et sa Fortune

ولكن كلمة الزواج تفعل في نفسي فعل السحر ، فقد أحب امرأة من

النساء حبا جامحا عنيقا ، حتى اذا أشعرتني قليلا بأن على أن

أزوجه ، زال حبي ، ومضى ! أن قلبي يصبح عندئذ كصخرة ، فلا

* قلبه ووروده . (بالفرنسية في الأصل) »

يحركه بعد ذلك شيء . اننى قادر على جميع التضحيات ، الا هذه ...
 يمكن أن اجازف بحياتى عشرين مرة ، بل قد اجازف بشرى ايضا ...
 ولكننى لن ابيع حريتى . ترى ما الذى يجعلها غالبية عندى الى هذه
 الدرجة ؟ ... ماذا أجد فيها ؟ ما الذى أعد له نفسى ؟ ماذا انتظر
 من المستقبل ؟ ... يمينا ، لا شيء . ولكنه خوف فطرت عليه ،
 وتوجس لا أستطيع تعطيله ... ثمة اناس يخافون من العناكب ،
 من الصراصير ، من الفئران ، دون أن يعرفوا لخوفهم هذا سببا .
 هل اعترف لكم بشيء ؟ حين كنت صغيرا تنبأت امرأة عجوز لأمى
 بأن الموت سيأتينى من زوجة شريرة . ولقد اضطربت يومئذ اضطرابا
 عميقا ، واصبحت انفر من الزواج نفرة لا سبيل الى مغالبتها ...
 ومع ذلك ... ان شيئا يهتف بى ان النبوءة ستتحقق . سأحاول
 على الأقل أن ارجئها ما استطعت الارضاء .

١٥ حزيران .

وصل أمس الى هنا المشعوذ ابغلباوم . ولقد الصق على باب
 المطعم اعلان طويل يزف الى الجمهور الكريم أن الملقب بأبغلباوم ،
 الحاوى المدهش ، البهلوان الرائع ، العالم فى الكيمياء والضوء ،
 يسره أن يقيم حفلة كبرى فى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم
 نفسه ، فى صالون الطبقة الراقية (اى فى المطعم) . ثمن التذكرة :
 روبلان ونصف روبل .

ان جميع الناس يريدون ان يذهبوا الى المطعم لمشاهدة الحاوى
 المدهش . وقد اشترت الأميرة ليجوفسكايا تذكرة ، رغم أن ابنتها
 مريضة ، وستذهب وحدها .
 بعد الغداء ، مررت تحت نوافذ فيرا . كانت وحدها على شرفتها ،
 فاذا برسالة منها تسقط بين قدمى .

« هذا المساء فى الساعة العاشرة ، تعال الى ، من السلم الكبير .
 ذهب زوجى الى بيتايجورسك ، ولن يعود الا فى صباح الغد . لا
 الخدام ، ولا الخادومات ، لن يكونوا فى البيت . اشتريت لهم جميعا
 تذاكر ، وكذلك لخدام الأميرة . انتظرك . تعال حتما » .
 قلت لنفسى : « ها ها ... قد وصلت اخيرا الى ما كنت اريد » .

ذهبت الى المطعم لمشاهدة المشعوذ ، فى الساعة المضروبة . ولم
 يلتئم جمع الجمهور الا فى الساعة التاسعة . ثم بدأت الحفلة .
 رايت خدام وخدامات فيرا والأميرة فى الصفوف الأخيرة . كانوا
 جميعا هناك . ورايت جروشنيتسكى فى الصف الأول ، يحمل

نظراته ، واليه كان يتوجه المشعوذ كلما كان في حاجة الى منديل ،
أو ساعة ، أو خاتم ، أو ما شاكل ذلك .

ان جروشنيتسكى لا يحينى منذ مدة . وقد نظر الى اليوم
مرتين شزرا ، فى شىء من الوقاحة . سأذكره بذلك كله فى حينه .

وقبل الساعة العاشرة بقليل ، نهضت ، وخرجت . كان الظلام
فى الخارج دامسا . وكانت سحب ثقيلة باردة ، تجثم على ذرى
الجبال المجاورة . ومن حين الى حين تهب نسمة خفيفة بطيئة ،
تهز رعوس أشجار الحور حول المطعم . فيسمع حفيف أوراقها
خفيفا . كان الجمهور يسارع الى النوافذ . وهبطت الهضبة .
حتى اذا تجاوزت الباب الكبير الذى تدخل منه العربات حثت
الخطأ . فترأى لى فجأة أن شخصا يسير ورأى . فتوقفت .
أنظر . كان يستحيل على أن أرى فى هذه الظلمة الكثيفة شيئا .
وعلى سبيل الاحتراس ، دوت حول البيت ، كمن يتنزه . فلما
مررت تحت نوافذ الأميرة مارى سمعت مرة أخرى ، وقع خطوات
ورأى : ومر بسرعة خاطفة ، رجل يرتدى معطفا عسكريا . فتطيرت
من ذلك . غير اننى اقتربت من درج الباب بخفة ، وصعدت السلم
فى الظلام بسرعة . وفتح الباب ، وامتدت يد صغيرة تمسك بيدي .
قالت قيرا وهى تشد نفسها الى :

— هل رآك أحد ؟

— لا .

— هل أنت مقتنع الآن بأننى أحبك ؟ آه . لقد ترددت كثيرا ،
ونالت كثيرا . . . ولكنك تصنع بى ما تشاء .

كان قلبها يخفق بقوة ، وكانت بداها باردتين كالثلج . وبدأ عتاب
الفيرة ، وبدأ اللوم والشكوى . وأخذت تستحنى على أن أعترف
لها بكل شىء ، قائلة انها ستتحمل خيانتى لها دون تدمير ، لأنها
لا ترغب الا فى شىء واحد ، هو أن تزانى سعيدا . لم أصدقها
تماما ، ولكننى هدأت روعها بالعهود والوعود الى آخر ما هنالك .
— اذن لن تتزوج مارى ؟ اذن انت لا تحبها ؟ وهى تظن . . .
هل تعرف انها مجنونة غراما بك ؟ مسكينة مارى ! ..

... ..
... ..
... ..

وفى الساعة الثانية من الصباح ، فتحت النافذة وانزلت على
عامود مستعينا بشالين ربط أحدهما بالآخر ، حتى وصلت الى

الشرفة تحت . لا يزال في غرفة ماري ضوء . وشعرت بشيء يدفعني نحو نافذتها . لم تكن الستارة مسدولة تماما ، فاستطعت أن ألقى على غرفتها نظرة مستطلعة . كانت ماري جالسة على سريرها ، وقد شبت يديها على ركبتيها . وكان شعرها الكثيف مضموما تحت قلنسوة صغيرة الليل يزينها حرير مخرم ، وكان يغطي كتفيها الأبيضين شال أحمر ، وكانت قدماها الصغيرتان مختبئتين في بابو ج عجمي صارخ الألوان . كانت ساكنة خافضة رأسها ، وأمامها كتاب مفتوح فوق منضدة صغيرة ، ولكن عينيها الجامدتين اللبئيتين بحزن قاهر كانتا كأنهما تطوفان على هذه الصفحة للمرة المائة ... أنها شاردة اللب .

وفي هذه اللحظة سمعت شيئا يتحرك وراء دغل . فقفزت من الشرفة التي كنت عليها الى الأرض فوق العشب ، فإذا يد لا أراها تقع على كتفي ، ويقول صاحبها بصوت خشن :

— ها ... لقد قبضت عليك متلبسا بالجرم ! تذهب الى الامرات في الليل ؟ !

وصاح صوت آخر خرج من الظلام :

— اقبض عليه جيدا !

انهما جروشنيتسكي والرئيس الخيال .
فهويت على رأس هذا الأخير بضربة أسقطته على الأرض ، ووليت هاربا بين الأشجار الكثيفة . كنت أعرف جميع معمرات الحديقة التي تغطي المنحدر أمام بيوتنا . وسمعتهما يصرخان :

— سارق ، سارق ، اقبضوا على السارق !

وسمعت صوت طلقة من بندقية ، وسقطت بين قدمي تقريبا باشورة مدخنة .

وبعد دقيقة كنت في بيتي . خلعت ثيابي ، واستلقيت على سريري . وما كاد خادمي يقفل بالفتاح ، حتى جاء جروشنيتسكي والرئيس يطرقان الباب .

وسمعت الرئيس يصيح :

— بتشورين ! أنت نائم ؟ أنت هنا ؟

فقلت محتدا :

— نعم ، أنا نائم !

— انهض ، انهض ، هناك لصوص ... شراكسة .

— انني مصاب بركام واخاف أن يدركني برد .

وذهبا . لقد أخطأت اذ رددت عليهما . كان ينبغي ان ادعهما
يبحثان عني ساعة أخرى في الحديقة . وأطلقت إشارة الخطر اثناء
ذلك . فوصل احد القوزاق من القلعة ، وكان هرج ومرج عم جميع
الناس . اخذوا يبحثون عن الشراكسة بين جميع الأدغال ، فلم
يجدوا أحدا ، طبعاً ... ولكن ظل كثيرون يعتقدون أن عشرين
لصاً من اللصوص على الأقل كان يمكن القبض عليهم فوراً . لو أن
الحامية أظهرت مزيداً من السرعة والبراعة .

١٦ حزيران .

لم يكن للناس من حديث في هذا الصباح ، عند البئر ، إلا
هجوم الشراكسة في الليل . أفرغت في جوفى من مياه نارزان العدد
المعين من الكتوس ، وأخذت اتجول تحت أشجار الزيزفون في
الممر ، فلما كنت أذهب وأجىء كثيراً ، لقيت زوج فيرا الذي عاد
من بياتيجورسك منذ قليل ، فأمسك بذرأى . وذهبنا الى المطعم
نتناول طعام الغداء . كان قلقاً على زوجته أشد القلق . قال :

— لقد خافت في الليلة البارحة كثيراً ... هل كان من الضروري
أن لا يقع هذا الا اثناء غيابي ؟ ! ..

جلسنا الى المائدة تغدى ، على مقربة من الباب الذى يطل على
غرفة في الركن . كان فيها ما يقرب من عشرة شباب بينهم
جروشيتسكى . وهانذا أسمع ، للمرة الثانية ، على سبيل
المصادفة ، حديثاً سمين مصره . كان لايرانى ، فلا يمكن ان أقدر
اذن انه قال ما قال عن خطة مقصودة . ولكن ذنبه من أجل ذلك
لا يصغر في رأيي بل يكبر .

سأل أحدهم :

— هل كانوا شراكسة حقاً ؟ ثم هل رأهم احد ؟

فاجاب جروشيتسكى :

— سأقص عليكم الحكاية كلها ، ولكن اياكم ان تشوا بى . هذا
ما وقع : جاءنى أمس رجل ان أسميه لكم يقول انه رأى شخصاً
يتسلل في نحو الساعة العاشرة من المساء الى بيت السيدتين
ليجوفسكايا . لاحظوا ان الأميرة الأم كانت هنا ، وأن ابنتها بقيت
وحدها في المنزل . فذهبنا معا ، وربطنا تحت نافذتها لتراقب
ذلك الانسان السعيد .

اعترف اننى خفت ، رغم ان مؤاكلى كان منهماكا بتناول طعامه .
فلقد كان يمكن أن يسمع شيئاً يسوءه لو أن جروشيتسكى حزر

الحقيقة . لكنه ، وقد اعمته الغيرة ، لم تخطر له الحقيقة ببال . واستمر جروشيتسكى يقول :

— وقد ذهبنا ببندقية مشحونة بخرطوشة بدون رصاص ، على سبيل التخويف . وظللنا ننتظر في الحديقة حتى الساعة الثانية من الصباح ، وأخيرا ظهر رجل ، لا ندرى من أين جاء . لم يهبط من النافذة على كل حال . لأن النافذة كانت موصدة . ولا بد أنه مر من الباب الزجاجى وراء المأمود . المهم اننا رأيناه يهبط من الشرفة ... يا لهذه الأميرة ! آه من آتسات موسكو ! بمن يشق الانسان ، والى من يطمئن ؟ وأردنا أن نقبض عليه ، ولكنه فر منا ، وولى هاربا كالأرنب بين الأدغال . وعندئذ أطلقت النار .

هنا قامت حول جروشيتسكى جلبشة من عدم التصديق ، فأردف يقول :

— ألا تصدقون ؟ أقسم لكم بشرقى اننى لم أقل غير الحقيقة ، وإذا شئتم برهانا على ذلك سميت لكم الشخص .

فصاحوا به من كل جانب :

— سمه ، سمه ، من هو ؟

فقال جروشيتسكى :

— هو بتشوردين .

وفى هذه اللحظة ، رفع بصره ، فرأى على العتبة ، أمامه تماما . فاصطغ وجهه بلون القرمز . اقتربت منه ، وقلت له ، على مهل ، بصوت واضح :

— يؤسفنى كثيرا اننى لم ادخل الا بعد أن حلفت بشرفى ان تدمع أحقر افتراء ، وأحط أكذوبة . فلو أننى دخلت قبل ذلك لمنعك وجودى من اقتراف هذه الرذيلة الأخيرة زيادة على الرذائل التى سبقتها .

فنهض فجأة ، وأراد أن يعلو على فى القول ، فتابعت كلامى دون أن أقهر من لهجتى شيئا :

— اسحب ما قلت فورا ، فانت تعلم انه محض اختلاق . ولا اعتقد أن عدم اهتمام سيدة بمزاياك اللامعة يستحق انتقاما حقيرا الى هذا الحد من الحقارة . فكر فى الأمر ، فإذا أصررت على مزاعمك ، فقدت الحق فى أن تسمى رجلا شريفا ، وعرضت حياتك للخطر .

كان جروشيتسكى واقفا أمامى ، خافض البصر ، مضطربا أشد الاضطراب . ولكن الصراع بين ضميره وكبريائه لم يدم طويلا ، كما

إن الرئيس الخيال الذي كان جالسا الى جانبه ، لكوه بكوعه .
فانتفض وقال بسرعة ، دون أن يرفع بصره :

- ايها السيد العزيز ، حين أقول شيئا ، فأننى اعنيه ، وأننى
مستعد لتكراره... لست أخاف تهديداتك . وأنا مستعد لكل شيء .
فأجبه ببرود :

- هذا ، قد سبق أن أظهرته .

ثم أمسكت بذراع الرئيس الخيال : وخرجت من الغرفة .
قال الرئيس :

- ماذا تريد ؟

قلت :

- أنت صديق جروشنيتسكى ، ولا شك أنك ستكون مرافقه .
فأنحنى الرئيس في احتفال ، وأجاب :

- نعم ، هذا صحيح ، بل أن من واجبي أن أكون مرافقه ، لأن
اللاهانة التى وجهتها اليه تصيبني أنا أيضا .
وأضاف وهو ينصب قامته المقوسة قليلا :
- لقد كنت معه في الليلة البارحة .

- ها ! هذا أنت أذن من هويت على رأسه بضربة طائشة .
فأصفر من ذلك وجهه ، ثم أزرق ، وارتسمت عليه آثار غضب
مكبوح . وأضفت أقول ، وأنا أحييه في لطف ولباقة ، متظاهرا
بأننى لم لاحظ غضبه :

- يشرفنى أن أبعث اليك اليوم بمرافقى .
وخرجت من المطعم ، فوجدت زوج فيرا . اعتقد انه كان ينتظرنى .
فشدد على يدى بعاطفة تشبه أن تكون اعجابا ، وقال والدموع في
عينيه :

- مرحى لك ايها الفتى الباسل ! لقد سمعت كل شيء... هذا
الجزء ! يا له من عاق... كيف يستقبلون بعد هذا في بيت محترم !
الحمد لله على أننى ليس لى بنت ! ولكن تلك التى تجازف بحياتك
من أجلها ستكافئك .
ثم أضاف يقول :

- كن واثقا كل الثقة من كتمانى للأمر ، ما لزم الكتمان . لقد
كنت شابا ، أنا أيضا ، وخدمت في الجيش ، وأعرف أن الانسان
يجب أن لايتدخل في هذه الأنواع من الأمور . الى اللقاء .
مسكين . يفرح لأنه ليس له بنت ! ..

ومضيت رأسا الى قبري ، ووجدته في بيته ، فقصصت عليه كل شيء : علاقتي بفيرا ، بالأميرة الصغيرة ، والحديث الذي سمعته والذي علمت منه ما ينتويه هؤلاء السادة من العبث بي والسخر مني ، اذ يريدون أن نطلق خرطوشة فارغة . ولكن الأمر خرج الآن من نطاق المزاح . ولا شك أنهم ما كانوا يتوقعون هذا الحل .

فوافق الدكتور على أن يكون مرافقي ، وذكرت له بعض المعلومات المتصلة بشروط المباراة ، وقلت له أن يلح على أن يتم الأمر بلا جلبة ، لأنني اذا كنت مستعدا لمجابهة الموت ما شاءوا ذلك ، فلست أبدا مستعدا لافساد مستقبلتي في هذه الحياة الى الأبد .

ثم عدت الى منزلي . وجاء الى الدكتور بعد ساعة من ذلك ، يقص على ما أسفرت عنه مهمته . قال :

— انها مؤامرة مدبرة حقا . لقد وجدت عند جروشنييتسكي ، الرئيس الخيال وسيدا آخر يفوتني اسمه . وتوقفت لحظة في حجرة المدخل اخلع نعلي ، فسمعت صراخا وشجارا في الداخل . كان جروشنييتسكي يقول : « مستحيل ، لقد أهانني على ملا من الناس » . فاجابه الرئيس : « وما الذي يضرك في هذا ؟ سأتحمل انا العبء كله . لقد كنت مرافقا في خمس مبارزات ، وأعرف كيف أدبر الأمر . لقد فكرت في كل شيء . من فضلك لا تمنعني . سيخاف : وسيفيده ذلك ... ولماذا تعرض نفسك للخطر مع أنك تستطيع تحاشيه ؟ ... »

وهنا دخلت ، فصمتوا ، وطالت مباحثاتنا . واليك ما انتهينا اليه من قرار . هناك ، على مسافة خمسة فرسات ، فيج منزل سيدهبون اليه غدا في الساعة الرابعة من الصباح ، ونذهب نحن بعدهم بنصف ساعة . وقد أصر جروشنييتسكي على أن نطلقا على مسافة ست خطوات . وسيموت أحدهما ، فيسند ذلك الى الشراكسة . ولكنني أظن أن المرافقين قد عدلوا خطتهم الاولى قليلا ، فهم يريدون أن يشحنوا فقط مسدس جروشنييتسكي بالرصاص . جريمة عن سابق عمد وتصميم ... ولكن في أيام الحرب ، ولاسيما بآسيا ، كل الحيل مباحة . ومع ذلك فان جروشنييتسكي يبدو لي أقل خسة من أصدقائه . ما رأيك ؟ هل علينا أن نبين لهم أننا اكتشفنا كل شيء ؟

— أبدا يا دكتور ! اطمئن بالا ، لن يفدروا بي .

— ماذا تنوي أن تفعل ؟

— هذا سرى !
— كن على حذر ! ... لاحظ أنكما على بعد خطوات !
— دكتور ، انتظرك غدا في الساعة الرابعة ، ستكون الخيل مهياة ... الى اللقاء !
قبع في غرفتي مساء فجاءني الخادم يدعوني الى الاميرة فطلبت منه أن يقول لها اننى مريض .
... ..

دقت الساعة الثانية من الصباح ، ولم يغمض لى جفن . يجب أن أنام مع ذلك ، حتى لا تهتز يدي . ولكن على بعد ست خطوات ، يصعب أن تخيب الطلقة . آه يا سيد جروشنيتسكى ، لن تنفك حيلتك ! ... انقلبت الآية ، وسوف يستلم كل منا دور الآخر . على أنا الآن أن لاحظ في وجهك المتفجع علامات خوفك الخفى . لماذا عينت أنت نفسك هذه المسافة المشنومة ، مسافة ست خطوات ؟ تتخيل اننى سأقدم لك راسى لقمة سائفة ؟ ولكننا سنضرب القرعة وعندئذ ... عندئذ ... ماذا لو حالفه الحظ ؟ ماذا لو خاننى نجمى ؟ .. هذا ممكن جدا . لقد خدم الحظ نزواتى الى الآن . ولكن الثبات نادر في السماء ندرته في الأرض .

حسن ، أموت ان كان يجب أن أموت ... ولن تكون خسارة العالم في عظمة وأنا ، الست ضجرا أعمق الضجر ؟ اننى كرجل يتشاب في حفلة راقصة ، لم لا يغمض الى النوم ، لا لشيء الا لان مربته ليست هناك . ولكن العربية تقدمت ... عموا مساء ! ...

استعرضت ماضى كله ، وتساءلت : لماذا عشت ؟ ولاية غابة خلقت ؟ ذلك ان كان نمة غاية ، ولا شك انها غاية كبيرة ، لاننى اشعر بقوى هائلة في نفسى ... ولكننى لم أفهم مصرى الذى خلقت له ، بل كان يجرنى سراب أهواء عقيدة عاقبة ، خرجت من بوتقتها صلبا باردا كالغولاذ ، ولكننى فقدت الى الأبد حرارة الحماسة النبيلة ، وهى أجمل ما في الحياة . وبعد ذلك ، كم مرة كنت كفاس في يد القدر ! فانتقضت كالحصام على رءوس الضحايا ، دون كره في كثير من الأحيان ، ودون شفقة في جميع الأحيان ... وحبى لم يسعد أحدا ، لاننى لم أضح بشيء في سبيل من أحببتهم . أحببت لنفسى ، للذتى الخاصة . كنت لا أزيد على إرواء مطالب قلبى الغريبة ، وأغتذى بمواطن ضحاياى ويحيهن الرقيق ، وبأفراحهن والآملهن ، أغتذى من ذلك كله في شراهة ، دون أن أتوصل الى

الشبع قط ، مثلى كمثل ذلك الشقى الذى هذه الجوع ، ثم نام ،
فاذا هو يرى فيما يرى النائم مآكل شهية فاخرة ، وخمورا معتقة
طيبة ، فيأخذ يلتهم من هذه الهدايا السحرية التى أوجدها خياله
ما شاء له الالتهام ، فيشعر بالراحة والرضا ، ولكنه ما يكاد يفيق
حتى تغيب الرؤيا ، ويحل محلها الجوع مرة أخرى ، أقوى مما كان ،
ويحل اليأس !

قد أموت غدا ! ... لن يبقى عندئذ على وجه الأرض شخص
فهمنى ... بعضهم يظننى أسوأ مما كنت ، وبعضهم الآخر يحسبني
خيرا مما كنت ... سيقول بعضهم : كان نعم الفتى ، وسيقول
بعضهم الآخر : كان رجلا وغدا حقيرا . انهم جميعا على خطأ .
وبعد ، فهل تستحق الحياة أن يعيشها الإنسان ؟ ولكننا نعيش على
كل حال ، من قبيل حب الاطلاع ، ننتظر جديدا ... يؤس
وضلال !

اننى فى قلعة ن ... منذ شهر ونصف شهر . لقد ذهب مكسيم
مكسيمتش الى الصيد . وأنا جالس الآن وحدى الى النافذة .
هذى سحب شهباء تغطي الجبال . والشمس تبدو من خلال المصاب
بقعة صفراء . كان الطقس باردا والريح تصفر ، وتهز المصارع .
اننى أشعر بضجر ! ... سأتم كتابة يومياتى التى حالت بينى وبين
اتمامها احداث غريبة كثيرة .

لقد قرأت الصفحة الأخيرة . انها تضحكنى على كل حال . كنت
أظن اننى ساموت . ولكن ذلك كان مستحيلا ، ذلك اننى لم أكن
قد تجرعت كأس المرارة حتى آخر قطرة . والان اشعر اننى سأعيش
مدة طويلة ايضا .

كم يبدو لى الماضى واضحا قويا فى ذاكرتى ! ان الزمن لم يمح
منه خطأ ولا لونا !

فى الليلة التى سبقت المباراة ، ما ازال اذكر ذلك لم استطع ان
انام دقيقة واحدة ... وما استطعت ان اكتب خلال بضع لحظات
الا بشق النفس . كنت فريسة غم خفى تملك نفسى . وبعد ان
ذرعت غرقتى جيئة وذهابا مدة ساعة كاملة ، جلست ، وفتحت
رواية لوالتر سكوت كانت تثوى على منضدتى منذ مدة طويلة : انها
رواية « بيورتانيو ايقوسيا » . بذلت فى اول الامر شيئا من الجهد
 للقراءة ، ولكننى ما لبثت ان أنجرفت مع هذه القصة الخيالية
 الرائعة ، فتسيت كل شيء ... هل يمكن ان لا يكافأ الشاعر الايقوسى

في الحياة الأخرى بلحظات من هذه السعادة الخالدة التي يهبها لنا كتابه ؟

وأخيرا طلع النهار ... كان اضطرابي قد هدا قليلا . ونظرت الى نفسي في المرأة . كان وجهي الذي يحتفظ بأثار أرق مؤلم شاحبا شحوبا شديدا . ولكن عيني ، رغم أنهما محاطتان بهالة مزرققة ، كانتا تلتصمان ببريق من الزهو والفيظ . كنت راغيا عن نفسي .

أمرت أن تسرج الخيل ، وارتديت ثيابي ، وأسرت الى الحمام ، وغطست في نارزان البارد الفائر ، فشعرت بارتداد قواي الجسمية والمعنوية الى . وخرجت من الماء ، غضا مرحا كأنني ذاهب الى حفلة راقصة . هل تدعون بعد ذلك ان النفس لا تتعلق بالجسم ؟ ! فلما عدت الى بيتي وجدت الدكتور ينتظرني . كان يرتدى سروالا أشهب ، ويكسو رأسه بقلبي شركي . فلما رأيت جسمه الصغير تحت هذا القيليق الكبير من الفراء ، انفجرت ضاحكا . ليس في شكله شيء من ملامح القتال والمقاتلين ، مع ان وجهه بدا لي في هذه اللحظة أطول مما كنت أراه عادة .

— لماذا أراك حزينا يا دكتور ؟ ألم تكن تودع مئات من المسافرين الى العالم الآخر ، دون أن تبالي ؟ هب انني مصاب بحمى الصفراء ، وأن من الممكن أن أموت أو أن تترد الى عافيتي ، وكلا الأمرين طبيعى ، فحاول أن تمدنى شخصا مصابا بمرض من الأمراض ، وأن تتصور ، انك لا تعرف هذا المرض ، فعندئذ سيثور فيك حب الاطلاع الى أبعد الحدود ! انك تستطيع الآن أن تجري على ملاحظات فيزيولوجية في غاية الخطورة . أليس انتظار موت عنيف مرضا في حقيقة الأمر ؟

فاجاته هذه الفكرة ، وعاد اليه صفاء مزاجه ، وركب كل منا حصانه ، وتمسك قرنر بالأمنة بكلتا يديه ، وسرنا نعدو . وما هي الا طرفة عين حتى اجتزنا القلعة ، وقطعنا القرية ، ودخلنا الفج الذي يتلوى فيه الطريق ، تغطيه الأعشاب الكبيرة ، وتعرضه في كل لحظة ساقية صاخبة يجب اجتيازها مخاضسا ، لسوء حظ الدكتور كان يحلو لحصانه أن يتوقف في وسط الساقية تماما .

لا أذكر اننى شهدت صباحا أكثر زرققة وطراوة من ذلك الصباح . كانت الشمس تطلع من وراء الذرى المخضوضة ، وكانت حرارة أشعتها الأولى الممتزجة برطوبة الليل المنصرم ، تنفذ الى جميع حواسي في خدر عذب . ان ضوء النهار الذي يولد لما ينفذ الى

الفتح بعد ، ولكنه يذهب دعوس الصخور التي كانت تمتد فوق
رعوسنا ، بمنة وسرة . وكانت الشجيرات ذات الأوراق الكثيرة ،
التي تنمو في الشقوق العميقة من الصخور ، تمطرنا برذاذ من الماء
ففى ، متى هبت نسمة خفيفة . أذكر اننى احببت الطبيعة في
تلك اللحظة أكثر مما احببتها في أى وقت مضى من حياتى . كنت
أراقب كل قطرة من قطرات الندى تخفق على أوراق العنب وتعكس
ملايين شعاع متلون بألوان قوس قزح ! وكان بصرى يذهب الى
الاماد البعيدة التي تمتلئ بالبخار ، في شراة ما بعدها شراة !
هناك يبدو الطريق كأنه يضيق ثم يضيق ... والصخور التي تزداد
زرققتها ورهبتها تشكل ما يشبه أن يكون جدارا لا يمكن اجتيازها .
كنا نسير صامتين .

وسألنى الدكتور فجأة :

— هل معك وصيتك ؟

— لا ...

— وإذا قتلت ؟

— اطمئن بالا ... الذين سيرثوننى ، سيعرفون بأنفسهم .

— ماذا ؟ أما من صديق تريد أن تقول له وداعا ؟

فهازت رأسى .

— أما من امرأة تريد أن تترك لها ذكرى ؟

— هل تريد يا دكتور أن أفتح لك نفسى ؟ لقد تجاوزت السن
التي اذا مات فيها الانسان ، مات وهو يلفظ اسم حبيبته الغالية ،
ويهدى الى صديقه خصلة من شعره معطرة أو غير معطرة . حين
أفكر في امكان موت قريب ، لا أفكر الا في نفسى وحدها . أما بعض
الناس فلا يفعلون حتى ذلك . ما لى وللأصدقاء الذين سرعان ما
ينسوننى ، وقد يلفقون في حقى ما لا يعلمه الا الله من أقاويل ،
وما لى وللنساء اللاتي حين سيقبلن رجلا آخر ، سيسخرن منى
حتى لأفكار صاحبهن من ميت ؟ ومن عواصف الحياة ، رجعت
ببعض الأفكار فقط ، ولم أرجع بماطقة واحدة . وأنا أعيش بالعقل
لا بالقلب ، منذ مدة طويلة . اننى أزن أهوائى وأفعالى وأحلمها
بنوع من حب الاطلاع الحيادى البارد . ان فى نفسى رجلين : واحدا
يعيش (بأوسع معانى هذه الكلمة) وآخر يفكر ويحكم على الأول .
بعد ساعة ، قد يقول لك أحدهما وداعا ، ويقول للندى وداعا ،
والثانى ... الثانى ؟ ... انظر يا دكتور ، ألا ترى على اليمين

فوق الصخرة ، ثلاثة أشباح سوداء ؟ انهم خصومنا ، فيما اظن...
وحثنا الخطا .

كان على سفح الصخرة ثلاثة أحصنة ربطت بأشجار ، فربطنا
حصانينا نحن أيضا ، واجتزنا معرا ضيقا ، فوصلنا الى المكان
الذى كان ينتظر فيه جروشنيتسكى ، والرئيس الخيال وشخص
يدعى ايفان اجناتيفيتش ، كنت أجهل يومئذ كنية أسرته .

قال لى الرئيس وهو يتنسم ابتسامة ساخرة :
— لقد تأخرت .

فأخرجت ساعتى ، وأريته أياها .
فاعتذر قائلا ان ساعته متقدمة .

وساد صمت شاق ، خلال بضع دقائق ، ولكن الدكتور قطع
الصمت متجها بالكلام الى والى جروشنيتسكى :

— أيها السيدان ، لقد اظهرتما كلاكما استعدادكما للمبارزة ،
فخضعتما بذلك لقواعد الشرف . ويلوح لى أنكما تستطيعان الآن
ان تتفاهما وان تحلا هذه المشكلة على صفاء ومحبة .
فقلت :

— انا مستعد لذلك كل الاستعداد .

فغمز الرئيس جروشنيتسكى الذى ظن اننى خائف ، فسمح
بأنفه ، رغم انه كان الى ذلك الحين ممتنع اللون ، ورفع بصره
نحوى . هذه أول مرة ينظر فيها الى منذ وصلنا . ولكن كان
فى نظره شيء من القلق يدل على صراع فى نفسه . قال :
— أبسط شروطك ، وثق ان كل ما أستطيع ان أفعله من أجلك ،
سأفعله ..

— هذه شروطى : ان تسحب اليوم على رؤوس الأشهاد
افتراءاتك وان تعتذر لى ...

— أيها السيد ، انه ليدهشنى ان تجرؤ على طلب شيء كهذا .

— وما عسى أن أطلب غيره ؟

— هيا ، انتهى الأمر ، ستبارز .

فهزرت كتفى ، وقلت :

— أعتقد ... ولكن لاحظ ان احدا سيقتل لا محالة .

— أتمنى أن تكون أنت المقتول .

— وأنا واثق من العكس .

فأضطرب واحمر تم انفجر يضحك بتصنع .

وامسك الرئيسى بذراعه ، وجره بعيدا عنا ، وتحادثنا طويلا بصوت خافت . لقد كنت حين وصولى هادئا ، ولكن هذا كله أخذ يخرجنى عن طورى .

واقرب منى الدكتور ، وقال لى بصوت واضح الاضطراب :

- يظهر انك نسيت مؤامرتهم ؟ انا لا اعرف كيف يشحن المسدس ، ولكن من أجل هذا الظرف ... يا لك من رجل عجيب ! قل لهم انك تعرف مؤامرتهم .. وعندئذ لا يجرون .. أتريد اذن أن يسقطوك كمصفور ؟ ...

- اطمئن يا دكتور ، أرجوك ، ودعنى اتصرف ... سأدبر الأمر بحيث لا يفوقونا فى شيء ... دعمهم يتهايمون .

ثم قلت بصوت عال :

- ايها السادة لقد غدا الأمر مضجرا حقا . اذا كان علينا ان نقتل ، فلنقتل ... لقد اتسع وقتكم للتفاهم امس ... فقال الرئيس :

- نحن مستعدون . الى مكانيكما ايها السيدان . دكتور هل لك ان تقيس الخطوات الست ؟ ...

فكرر ايفان اجناتيفيتش يقول بصوت حاد :

- الى مكانيكما ايها السيدان . قلت :

- اسمحوا لى ! ان لى شرطا آخر . مادمننا سنقتل قتال موت ، فيجب أن نعمل كل ما نستطيع عمله من أجل أن يبقى الأمر سرا ، ومن أجل أن يطمئن بال مرافقينا . ما رأيكم فى هذا ؟ - موافقون .

- اليكم ما تخيلته : هل ترون هناك ، فوق ، على اليمين عند رأس هذه الصخرة المنحدرة ، تلك السطيحة الضيقة ؟ ان المسافة بين اللدوة والقاعدة تبلغ ما يساوى ١٢٠ ذراعا ، أو يزيد . والصخور فى الأسفل ذات رعوس حادة . أقترح أن يقف كل منا على حافة تلك السطيحة ، وبذلك تصبح أصغر أصابة قاتلة . ولا شك أن هذا يتفق مع رغباتكم ، لانكم أنتم عينتم مسافة الخطوات الست . فالذى يجرح منا يسقط فى الهاوية ، فيموت حتما . ويتولى الدكتور اخراج الرصاصة ، ويسهل عندئذ تعليل الموت بأنه زلة قدم . ونترك للحظ أن يعين البادىء باطلاق النار . ولا بد لى أن أقول لكم فى الختام اننى لن أقتل على غير هذه الصورة .

فقال الرئيس :

— موافقون .

قال ذلك ، وهو ينظر نظرة ذات دلالة الى جروشنيتسكى الذى هز رأسه بالموافقة . كان وجه جروشنيتسكى يتغير تعبيرة من لحظة الى أخرى . لقد وضعت في موقف صعب . كان يمكنه ، لولا اقتراحى ذلك ، أن يصوب رصاصة الى ساقى وأن لا يعرجنى الا جرحا يسيرا ، فيسره عندئذ أن يكون قد انتقم منى ، دون أن يحمل ضميره وزرا ثقيلًا . أما الآن ، فلم يبق الا أن يطلق رصاصه في الهواء ، أو أن يصبح قاتلا ، اللهم الا أن يعدل عن مشروعه الحقيقى ، ويقاثلنى قتال اند للند ، معرضا نفسه لما يعرضنى له من خطر . لا يمكن أن أتمنى أن أكون في مثل موقفه في تلك اللحظة ! لقد جر الرئيس بعيدا عنا ، وأخذ يكلمه في حرارة . لقد رأيت اضطراب شففيه الشاحبتين . ولكن الرئيس أشاح بوجهه عنه ، وهو يتنسم ابتسامة الاحتقار ، وقال له بصوت يكاد يكون عاليا :

— أنت أبله ! ... لا تفهم شيئا ! هيا بنا أيها السادة .

كان هنالك معر ضيق في المنحدر بين الأشواك ، وكان هنالك شظايا صخور ، تكون سلما طبيعيا ذا درجات مهتزة ، فكنا ، ونحن نصعد ، نتمسك بالأشجار . كان جروشنيتسكى يسير أمامنا جميعا ، يتبعه مرافقاه ، وكنت أنا والدكتور نسير في المؤخرة .

قال لى الدكتور وهو يشد على يدي بقوة :

— أنك لتدهشنى . دعنى أجس نبضك . أوه ، أوه ، أنت محموم ؟ ... ولكن وجهك لا يظهر عليه أى اثر من ذلك ... عيناك وحدهما تلمعان أكثر مما تلمعان عادة !

وفجأة تدرجت بين أقدامنا حجارة صغيرة ، وأحدث تدرجها ضجة . ما هذا ؟ لقد زلت بجروشنيتسكى قدمه ، وانكسر الفصن الذى تمسك به ، فكاد يهوى على ظهره الى أسفل ، لولا أن شاهده أمسكا به .

صحت به :

— تان ... لا تقع منذ الآن . هذا نذير سوء . تذكر يوليوس قيصر !

ووصلنا أخيرا الى قمة الصخرة النائية . كان السطح مغطى برمل نام ، كانه أعد للمبارزة . ومن حولنا ذرى الجبال تتلاحق كقطع لا حصر له ، وتكاد تفرق في ضباب الصباح المذهب : وفي الجنوب

تبرز كتلة البروز البيضاء في نهاية الذرى المتجلدة التى تطوف بينها سحب على صورة السبايخ مَهْرولة من الشرق . تقدمت حتى حافة السطح ، ونظرت الى تحت . كاد ينتابنى من ذلك دوار . لاشك أن القاع مظلم بارد كالقبر . ان أسنان الصخور التى اقتلعتها العواصف وهوى بها الزمن تنتظر فريستها .

كان السطح الذى يجب أن تقتل عليه مثلنا متساوى الاضلاع تقريبا . فقسنا ست خطوات ، ابتداء من الزاوية النائية ، وانفقنا على أن الذى سيتعرض لرصاص خصمه قبل الآخر ، هو الذى سيفقد عند تلك الزاوية مديرا ظهره الى الهاوية . فإذا لم يقتل ، تبادل الخصمان مكانيهما .

وقد قررت أن اترك لجروشنيتسكى كل المزايا . كنت اريد أن أمتحنه ، لعل شرارة من الأريحية تستيقظ في نفسه ، فيتم كل شيء على ما أحب . ولكن كبرياءه وضعف ارادته انتصرا ... فأردت أن أكون على حق في أن لا أترفق به إذا رحمنى الحظ . من ذا الذى لا يعقد مثل هذه الاتفاقات مع ضميره ؟

هتف الرئيس :

— القرعة ، يا دكتور .

فأخرج الدكتور من جيبه قطعة من عملة فضية وأظهرها .

فسارع جروشنيتسكى يصبح كمن أيقظته ، فجأة ، ضربة مباغطة من صديق :

— طرء .

فقلت أنا :

— نقش .

قدف قطعة النقود فدارت ثم سقطت على الأرض ترن فأسرع الجميع ينظرون اليها .

قلت لجروشنيتسكى :

— حظك طيب . أنت أول من يطلق ! ولكن أعلم أنك ان لم

تقتلنى ، فسأقتلك أنا ، أقسم لك .

فاحمر وجهه . انه يخجل أن يقتل رجلا أعزل . وحدقت اليه .

خيل الى في لحظة من اللحظات أنه سيرتمى على قدمى يطلب العفو

والغفوة . ولكن كيف يعترف بخطة بلغت هذا المبلغ كله من الجبن

والحقارة ؟ بقى له مخرج واحد ، هو أن يطلق رصاصه في الهواء .

كنت واثقا من أنه سيفعل ذلك . شيء واحد كان يمكن أن يمنعه ،

هو تصويره اننى قد اطلب لقاء آخر .
همس بى الدكتور وهو يشدنى من كفى :

— آن الاوان . ان لم تقل لهم فى هذه اللحظة انك تعرف نيتهم
فلن تقول ذلك لهم ابدا ... سيضيع كل شيء ! انظر ، انه يشحن
المسدسين . اذا لم تقل أنت ، فسأتولى أنا ...
فاجبته قائلا ، وانا اصده بيدي :

— أياك . والا افسدت كل شيء . لقد وعدتني بأن تدعنى
انصرف . ما الذى يهمك ؟ لعننى اريد ان اموت ...
فنظر الى دهشا ، وقال :

— هذا شيء آخر ! ... ولكن لا تشكنى اذن فى السماء ! ...

وفى أثناء ذلك كان الرئيس قد شحن المسدسين ، فمد أحدهما
الى جروشنيتسكى وهو يبتسم ، بعد ان همس فى أذنه بشيء ،
وأعطاني الآخر .

وقفت على زاوية السطحة ، مستندا استنادا قويا على ساقى
اليسرى فوق الصخرة ، ومائلا قليلا الى الامام ، حتى لا اسقط
فى الهاوية اذا جرحت جرحا يسيرا .

ووقف جروشنيتسكى أمامى ، حتى اذا اعطيت الإشارة ، رفع
مسدسه . كانت ركبتاه ترتجفان . وصوب مسدسه الى جبهتى
تماما ...

عندئذ التهب فى نفسى حنق لا يغالب .
وفجأة ، أرخى مسدسه ، والتفت يقول لرفاقه بصوت مختنق ،
وقد امتقع وجهه واصفر اصفرارا شديدا :

— لا أستطيع ...
فصاح به الرئيس :

— جان !

وانطلقت الرصاصة ، فأصابتنى بخدش عند الركبة ، فتقدمت
بضع خطوات الى امام بالرغم منى ، كي أبتعد عن الحافة بأقصى
سرعة .

قال الرئيس :

— باعزى جروشنيتسكى ، لقد طاشت رصاصتك ...
خسارة ... عليك أنت الآن ان تتعرض للرصاص . ولكن ،
عاقبنى قبل ذلك ، فلن نلتقى بعد الآن .

وثمناقا . فما اكثر ما بذل الرئيس من جهد حتى لا ينفجر

ضاحكا . وأضاف يقول ، وهو ينظر الى جروشنيتسكى متخابثا :
- ولكن لا تخف ، فكل شيء في هذا العالم باطل : الطبيعة حمقاء ،
والقدر غبي ، والحياة لا تساوى شروى فقير ! ...
حتى اذا فرغ من قول هذه العبارة التراجيدية ، بكل ما يقتضيه
الموقف من جد ورسانة ، عاد الى مكانه . وجاء ايفان اجناثيفيتش
يعانق جروشنيتسكى بدوره ، والدموع تترقرق في عينيه . ان
جروشنيتسكى واقف وحده الآن أمامى . لم أستطع يوما ان افسر
تلك العواطف التى كانت تغلى في صدرى ، في تلك اللحظة . انها
الحق الذى يولده جرح الكرامة ، انها الاحتقار والفضب الناشئان
عن التفكير في ان هذا الرجل الذى ينظر الى الآن في ثقة واطمئنان
وجرأة هادئة ، قد اراد منذ دقيقتين ان يقتلنى كما يقتل الكلاب ،
دون ان يعرض نفسه لآى خطر ، ولو قد كان جرحى عند الركبة
أبلغ من ذلك لتدحرجت الى أعماق الهوة لا محالة .
وظلمت أفقرس فى وجهه طويلا ، علنى أجد فيه أثرا من آثار
الندامة ، ولو يسرا ، ولكن بدا لى أنه يحاول أن يكبت ابتسامة ،
فقلت له :

- أنصحك أن تصلى قبل أن تموت .
- لا تهتم بروحى أكثر مما اهتممت بروحك . اننى لا أطلب اليك
الا شيئا واحدا ، هو ان تطلق رصاصك بسرعة .
- انت ترفض اذن أن تسحب افتراءاتك ، وأن تقسدم الى
اعتذارك ؟ فكر في الأمر جيدا ! ألا يعذبك ضميرك ابدا ؟
فصاح الرئيس يقول :

- يا سيد بتشورين ، ليس شأنك هنا ان تسمع اعترافات ...
عفوك اذا أبديت هذه الملاحظة ... يجب ان تنتهى بأقصى سرعة ،
فلقد يمر أحد في الفج فیرانا .

- طيب . يا دكتور ، تعال الى هنا ...
فاقترب فرز منى . مسكين ! ان صفرة وجهه أشد من صفرة
وجه جروشنيتسكى منذ عشر دقائق .
ونظت بالكلمات التالية ، بأحرف واضحة ، وصوت عال متميز
كما ينطق بالحكم بالاعدام :

- يا دكتور ، لقد نسى هؤلاء السادة - من فرط السرعة طبعا -
ان يضعوا في مسدسى رصاصه . فأرجوك أن تشحن المسدس كما
ينبغى !
فصاح الرئيس :

— مستحيل ، مستحيل ! لقد شحنت المسدسين كليهما بيدي .
فاذا انزلت رصاصة مسدسك ، فليس هذا ذنبى . وليس من
حقك أن تشحن المسدس مرة أخرى ، ليس سن حقت ذلك ...
هذا مخالف للقواعد كل المخالفة . ولن أسمع به ...
قلت للرئيس :

— حسنا ، إذا كان الأمر كذلك ، فسأقتتل معك على تلك
الشروط نفسها .
فاضطرب .

وكان جروشنيتسكى ينتظر ، خافض الرأس : وكان مكفهر الوجه
حزينا .

وقال أخيرا للرئيس الذى كان يريد انتزاع المسدس من يد
الدكتور :

— دمهيا ، فأنت تعرف أنهما على حق !
وحاول الرئيس عبثا أن يشير الى جروشنيتسكى ، ولكن
جروشنيتسكى كان لا يريد أن يرى شيئا .

وفى أثناء ذلك شحن الدكتور المسدس ، وأعطانيه ، فلما رأى
الرئيس ذلك ، بصق وهو يضرب الأرض بقدمه ، وقال يخاطب
جروشنيتسكى :

— أنت غبى ، يا صديقى ، أنت غبى مضاعف ! ... كان يجب
أن تطيعنى ، ما دمت قد اعتمدت على ... تستحق ... افطس
الآن كذبابة ! ...

ثم أدار ظهره ، وابتعد وهو يدمدم :
— هذا مخالف للقواعد ، مهما تقولون ..
قلت :

— جروشنيتسكى ، لا يزال فى الوقت متسع ، اسحب كلامك ،
اففر لك كل شيء . لم تستطع أن تضحك على ، وقد ردت كرامتى
الى . تذكر أننا كنا صديقين ...

فالتهب وجهه ، والتمعت عيناه ، وقال :
— اطلق الرصاص ! اننى أحترق نفسى ، وأكرهك . وإن لم
تقتلنى الآن ، فسأقتالك ذات ليلة . لا مكان على الأرض لكلينا معا
فاطلقت ...

وحين تبدد الدخان ، لم يكن جروشنيتسكى على السطحة .
وليس ثمة الا عمود من الغبار لا يزال يدور عند حافة الهسوة .

صرخ الجميع . وقلت لفرنر : * Finita la comedia —

فلم يجب ، بل أشاح بوجهه في ذعر .
فهزئت كنفى ، وحييت مرافقى جروشنيتسكى .
وحين هبطت الممر الضيق ، لمحت جثة خصمى الدامية ، بين
صخرتين ، فأغمضت عيني ، بالرغم منى ...
وفككت حصانى ، وعدت بخطوات بطيئة . كنت أشعر كأن صخرة
ثقيلة تجثم على صدرى . وبدت لى الشمس كابية ، ولم تدفئنى أشعتها .
وقبل أن أصل الى القرية ، انعطفت يمنة ، الى الفج . كنت
لا أستطيع أن أرى أحدا ، كنت أحب أن اظل وحيدا . وارخيت
الأعنة ، ومال رأسى على صدرى ، وظل الحصان يسير مدة طويلة ،
حتى وصلت أخيرا الى مكان لا أعرفه . قادرت حصانى الى وراء ،
وقفلت راجعا . وحين وصلت كيسلوفودسك ، كانت الشمس قد
مالت الى الغروب ... وكنت منك القوى خائرا .
أبلغتني خادمى أن فرنر قد جاء ، ثم مد الى رسالتين : احدهما
من الدكتور ، والثانية ... من فيرا .
ففضضت الاولى ، وقرأت فيها ما يلى :

« كل شيء على ما يرام . جاءوا بالجثة المشوهة ... واستخرجت
الرصاصة من الصدر . والناس جميعا موقنون ان الموت كان بقضاء
وقدر . ولكن القائد ، الذى لاشك أنه عرف شيئا عن مشاجرتكما ،
هز رأسه ، غير انه لم يقل شيئا . ليس ثمة أى دليل ضدك ،
وتستطيع ان تنام هادىء البال ، اذا وجدت الى النوم سبيلا ...
الى اللقاء ! »

ومكثت طويلا أتردد فى فض الرسالة الثانية ... ماذا يمكن ان
تكتب الى ؟ أننى لا أنوحس شرا ...

هذه هى الرسالة التى نقشت كل كلمة من كلماتها فى ذاكرتى الى الأبد :
« اكتب اليك وأنا على يقين من اننا لن نلتقى بعد الآن أبدا . حين
افترقنا منذ بضع سنين ، كنت اتصور ذلك أيضا . ولكن السماء
أرادت أن تجربنى مرة أخرى ، ولم أستطع أن أصمد للتجربة ،
بل خضع قلبى الضعيف مرة أخرى للنداء المعروف ... لعلك لن
تحتقرنى ، على الأقل ؟ ستكون هذه الرسالة وداعا واعترافا فى آن .
واحد : يجب أن أبوح لك بكل ما تراكم فى قلبى منذ عرفتك .
لا أريد اتهامك . فقد سلكت معى كما كان يمكن أن يسلك أى رجل

* انتهت الكوميديا !

آخر . أحبتنى كما يحب المرء رزقا يملكه ويستفيع به ، أحبتنى نبعاً من الانفصالات واللذات والاحزان التى تتعاقب وتكون الحياة بدونها ، مضجرة رتيبة . لقد فهمت ذلك منذ البداية ... ولكنك كنت شقياً ، وضحيته أنا بنفسى ، آلمة أن تقدر تضحيتى يوماً ، وأن تفهم عاطفتى العميقة التى لا أشترط لها شيئاً . ثم مضى على ذلك وقت طويل ، نفذت خلاله الى جميع أسرار نفسك ، فعرفت أن أملى كان عبثاً ... آه ما أشد ما تأملت ! ولكن حبنى كان قد مازج نفسى واتحد بها ... فأظلم ، ولكنه لم ينطفئ .

إننا نفترق الآن فراقاً لا لقاء بعده . ولكنك تستطيع أن تكون على يقين من أننى لن أحب فى حياتى أحداً غيرك : لقد استنفدت نفسى فى حبك كل كنوزها ودموعها وآمالها . وأن امرأة عرفتك لا تستطيع أن تنظر الى غيرك من الرجال الا فى شىء من الاحتقار ، لأنك خير منهم جميعاً ، لا ، لا ، بل لأن فيك شيئاً ليس فى غيرك ، شيئاً خفياً متكبراً . أن فى صوتك ، مهما ثقل ، لقوة لا سبيل الى مقاومتها . ما من أحد يستطيع بمثل هذا الثبات والدوام أن يفرض حبه ، وأن يجعل الشر نفسه جذاباً الى هذه الدرجة ، وأن تعد نظراته بكل هذه السعادة ! ما من أحد يستطيع أن يستفيد من مزاياه خيراً مما تفعل أنت ، وما من أحد يبلغ من الشقاء حقاً ما تبلغ ، إذ ما من أحد يحاول ، مثلما تحاول ، أن يقنع نفسه بخلاف ذلك .

وبعد ، يجب أن أبسط لك سبب هذا السفر السريع . سيبدو لك هذا السبب غير ذى بال ، لأنه لا يتعلق بأحد غيرى .

دخل على زوجى هذا الصباح ، وقص على المشاجرة التى وقعت بينك وبين جروشيتسكى . وكان لابد أن يتغير وجهى ، لأنه حلق الى طويلاً . وكاد يغمى على ، إذ تصورت أنك ستقتل اليوم مع جروشيتسكى ، وأننى السبب فى هذا كله . خيل الى أننى ساجن ... ولكننى مطمئنة الآن ، وقد تاب الى رشدى ، أنك ستبقى حياً ، فمن المستحيل أن تموت دون أن أموت أنا ، مستحيل ! ظل زوجى مدة طويلة يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، لا أعرف على وجه الدقة ماذا قال لى ، ولا أذكر بم أحبته ... لابد أننى اعترفت له أننى أحبك ... لا أذكر الآن الا أنه رشقنى فى نهاية الحديث بكلمة فظيعة ثم خرج . وسمعته يأمر بكدن الخيل ... أنا على النافذة منسدة ثلاث ساعات أرقب عودتك . أنك حى ، ولا يمكن أن تموت ! ...

بعد قليل تكون العربية مهياة للرحيل . وداعا ، وداعا ! ... لقد
ضعت أنا ، ولكن لا ضير ... ليتنى أستطيع على الأقل أن انصور
انك ستظل تذكرنى ... لا أقول تحبى ، لا ، بل تذكرنى ،
فحسب . وداعا . ها هم قادمون ... يجب أن أخفى رسالتى ...
« أنت لاتحب مارى ، اليس كذلك ؟ ولن تتزوجها ؟ اليس كذلك ؟
اسمع ، قم بهذه التضحية من أجلى ، أنا التى فقدت من أجلك
كل شيء فى هذه الحياة ... »

طاش صوابى ، وأصبحت كالمجنون . فاندفعت كالسهم الى
الخارج ، ووثبت على حصانى الذى جىء به الى صحن البيت منذ
لحظة ، وقذفت به فى طريق بياتيجورسك على أقصى سرعة من
العدو . كنت استحث دابتنى المتعبة بلا رحمة ، فكانت تنخف
وتزبد ، وهى تنهب بى الارض نهبا على الطريق المتحجرة .

كانت الشمس قد اختبأت وراء سحابة سوداء على قمة الجبال.
وكان الفج مظلما رطبا . وكان بودكوموك يتوائب على الصخور فى
هدير بهيم رتيب . وكنت أعدو سريعا ، وأنا أختنق من نفاد
الصبر . كنت كما تصورت اننى لن أجدها فى بياتيجورسك ، يدق
قلبى كأنه مطرقة ! آه ، أريد أن أراها لحظة ، لحظة واحدة ،
أن أودعها ، أن أشد على يدها ! ... كنت أصلى ، والهن ،
وإبكى وأضحك ... لا ، لا شيء يمكن أن يعبر عما كنت أكابده من
غم وخوف وبأس ! ... تصورت اننى ضيعتها الى الأبد ، فقدت
فيرا أعز عندى من أى شيء فى العالم ! ... غدت أعز من الحياة ،
من الشرف ، من السعادة ! الله يعلم ما هى النوايا الجهنمية ،
وما هى الأفكار الجنونية التى كانت تدور عندئذ فى رأسى ! ...
وفيما أنا أضرب حصانى بلا رحمة ولا شفقة ، اذا بى لاحظ انه
يتنفس بصعوبة . وكان قد كبا مرتين ، مع أن الأرض التى كبا
عليها كانت مستوية ! ... بقى أن أقطع خمسة فرسات حتى أصل
الى استوكى ، وهى قرية قوزاقية يمكننى فيها أن أبدل حصانى.

كان يمكن أن يتم كل شيء على ما أحب ، لو استطاع حصانى
أن يعدو مدة عشر دقائق أيضا . ولكنه ما لبث أن سقط فجأة
على الأرض ، بينما كان يصعد من واد صغير عند مخرج الجبال
فى منعطف حاد ، فافلت منه بسرعة ، وأردت أن أساعده على
النهوض بشد الأعنة ، فلم يقو على النهوض . وخرجت من بين
أسنانه المشدودة زفرة ضعيفة ، وبعد بضع لحظات كان يلفظ أنفاسه

الأخيرة . كنت وحيدا ، وسط السهوب ، قد فقدت آخر آمالي .
وأردت أن أمشي فترنحت ساقاي تحتي ، فهويت على العشب
الرطب ، وقد هدتنى انفعالات النهار وحطمتنى الارق ، وأخذت
أجهش بالبكاء كطفل .

وبقيت على هذه الحال ، ساكنا بأكيا ، مدة طويلة ، حتى اننى
لم أحاول أن أسيطر على دموى وأن أحبس نحيبى ، وخيل الى
أن صدرى سينفجر... لقد تبددت صلابتى ورباطة جأشى كالدخان
.. كانت نفسى خائرة لا قوة لها ، وكان عقلى منطفئا ، فلو رأنى
أحد فى تلك اللحظة لأشاح بوجهه عنى فى كثير من الاحتمار .

ولكن ندى الليل وريح الجبال ما لبثا أن رطبا راسى المحترق ،
فعدت أفكارى الى مجراها الطبيعي ، ففهمت أن من العيب والطيش
ورقة العقل أن أركض وراء سعادة زاهية . ما عساي أشتى أيضا ؟
أن أراها مرة ثانية ؟ ما جدوى ذلك ؟ ألم ينته بيننا كل شيء ؟
أن قبلة صغيرة فى الوداع لن تغنى ذكرىائى ، ولن تجعل فراقنا أقل مرارة .
كان يلد لى مع ذلك أن أرى اننى أستطيع البكاء . ولكن لعل
هياج أعصابى ، وأرقى طوال الليلة البارحة ، وهاتين الدقيقتين
اللتين وقفت خلالهما أمام مسدس مصبوب الى راسى ، وفراغ
معدتى ، لعل هذا كله هو السبب .

هيا ! ... أن كل شيء يحدث لابد أن يؤدى الى الأفضل .
كان هذا الألم الجديد ، تلهية سعيدة ، على لغة المسكرين ، أن
البكاء يفيد . ثم ، أكان يمكن أن يعرف النوم الى جفنى سبيلا ،
لولا هذه الجولة على صهوة الحصان ، ولولا اننى قطعت فى العودة
مسافة خمسة عشر فرسا سرا على الأقدام .

وصلت الى كيسلوفودسك فى الساعة الخامسة من الصباح ،
فارتفيت على سربرى ونمت كما نام نابوليون بعد معركة واترلو .

حين استيقظت كان الظلام قد هبط ، فجلست بالقرب من النافذة
المفتوحة ، وحللت أضرار الأرخالوك الذى ارتديه . فطرب هواه
الجبل صدرى الذى لم يهدئه النوم العميق بعد فرط الإعياء .
ورأيت فى الأفق البعيد ، وراء النهر ، من خلال ذرى أشجار
الزيزفون الكثيفة التى تظله ، رأيت التماع أنوار القرية والقلعة .
كان كل شيء فى فئائنا ساكنا هادئا . وكان الظلام فى بيت الأميرة تاما .
ودخل على الدكتور . انه متجهم الوجه ، وعلى غير عادته ، لم
يعد الى يده .

— في بيت الأميرة ليجوفسكايا . ان ابنتها مريضة : نوبة عصبية . ولكنني لم آت اليك لأبلغك هذا النبا . اليك الموضوع : لقد أخذت السلطات تشتهه في الأمر ، ورغم أنه يستحيل توافر الأدلة عليك ، فانا انصحك بأن تكون على حذر . قالت لى الأميرة اليوم انها تعلم انكما تبارزتما من أجل ابنتها . ان ذلك العجوز — ما اسمه ؟ — قص عليها كل شيء . لقد شهد مجادلتك مع جروشنيتسكى بالمطم . جئت أنذك بالأمر . وداعا ! قد لا نلتقى بعد الآن أبدا . من ذا الذى يعلم أين يرسلونك ؟

ووقف على عتبة الباب ... كان يود أن يشد على يدي ... ولو اننى اظهرت أى رغبة في ذلك ، لوئب على يعاقبنى ... ولكنني ظلت باردا ككتلة من المرمز ... فانصرف .

كذلك هم البشر ! انهم جميعا من طينة واحدة : يعرفون مقدما كل الجوانب السيئة في عمل من الأعمال . يساعدونك ، وينصحنوك ، وقد يشجعونك ، اذا راوا أنه يستحيل أن يفعلوا غير ذلك . ولكنهم بعدئذ يفسلون أيديهم من الأمر ، وينصرفون ، مستائين ، من الشخص الذى تجرأ أن يحمل كل تبعته . نعم . انهم جميعا من طينة واحدة ، لا يشد عن ذلك أحسنهم ، اذكاهم !

وفي صباح الغد تلقيت من رؤسائى أمرا بأن اذهب الى قلعة ن ... فذهبت أودع الأميرة الأم . سألتنى هل هناك أمر هام جدا أريد أن أفضي إليها به ، ودهشت اشد الدهشة حين أجبتها بأننى أتمنى لها السعادة ، الى آخر ما هنالك . قالت :

— اما انا فيجب أن اتحدث اليك في كثير من الجد . فجلست صامتا .

كان واضحا أنها لا تعرف من أين تبدأ ... وقد احمر وجهها ، وأخذت تنقر المنضدة بأصابعها السمينة ، واخيرا حزمت أمرها ، وقالت بصوت متردد :

— اسمع ياسيد بنشورين . انا اعتقد أنك رجل شريف . فانحنيت . وقابعت هى تقول :

— بل اننى لعلى يقين من ذلك ، رغم ان سلوكك يمكن أن يثير شكوكا . ولكن قد يكون لهذا السلوك دوافع أجعلها ، ويجب أن تفضى الى الآن بهذه الدوافع . لقد ذبيت عن ابنتى الافتراء ، واقتلت من أجلها ، وعرضت اذن حياتك للخطر في سبيلها ... لا تجبنى ... أعرف أنك لا تستطيع الاعتراف ، لان جروشنيتسكى

قتل (وهنا رسمت إشارة الصليب) ... غفر الله له ، ولك أيضا .
هذا لا يخصنى . ولست أجزؤ على أن الويك ، لأن ابنتى كانت
هى السبب ، ولو ببراءة ... لقد قصت على كل شيء ، نعم كل
شيء ، أو هذا ما أرجوه على الأقل . أعرف أنك صارحتها بحبك ،
وانها صارحتك بحبها (وهنا زفرت الأميرة زفرة كبيرة) . ولكنها
مريضة ، وأنا على يقين من أن الأمر ليس مرضا فحسب . أن
حزنا خفيا يقتلها . واعتقد أنك أنت السبب ، رغم أنها لم تعترف
لى بذلك . اسمع . ربما تعتقد أننى أبحث عن الرتب والثروة .
أنت مخطيء . أننى لا أريد لابنتى غير السعادة . ليس مركزك ،
الآن ، بالمركز الذى يحسد عليه الإنسان كثيرا . ولكن كل شيء يمكن
أن يدبر . أنت صاحب ثروة ، وابنتى تحبك ، ولقد نشئت تنشئة
تجعلها أهلا لاسعاد زوجها . وأنا غنية ، وليس لى غيرها... تكلم
أفض الى بما يجعلك تحجم . ما كان ينبغي أن أقول لك كل هذا .
ولكننى أعتمد على قلبك ، على شرفك . تذكر أنه ليس لى غير
ابنتى ، ليس لى غيرها ...
واخذت تبكى . قلت لها :

- ابنتها الأميرة ، لا أستطيع أن أجيبك ، واسمعى لى بأن
أحدث الى ابنتك على انفراد ...

فصاحت وهى تنهض مضطربة أشد الاضطراب :

- مستحيل !

فأجبتها وأنا أنهض أيضا :

- كما تريدن .

ففكرت لحظة ، ثم أشارت الى بيدها أن انتظر قليلا ، وخرجت .
انقضى على خروجها خمس دقائق . كان قلبى يخفق خفقانا
شديدا ، ولكن فكرى كان هادئا ، وكان رأسى باردا . عينا حاولت
أن أعثر فى أعماق نفسى على ومضة من حب لمارى الناعمة .

وفتح الباب فجأة ، فإذا هى تدخل ! رباها ! لشد ما تفرقت منذ
التقينا آخر مرة .. ولفترة وجيزة جدا .

فلما وصلت الى وسط الغرفة ، ترنحت ، فسارعت أسندها
بلدراى ، وقدمتها الى المقعد .

كنت واقفا أمامها . وساد الصمت برهة طويلة . كانت عيناها
تفيضان بحزن لا يوصف وكأنهما تحاولان أن تبحثا فى عيني عن بارقة
من أمل . وكانت شفتاهما الشاحبتان تحاولان عينا أن تبسما .

وكانت يداها الدقيقتان المتشابكتان على ركبتيها قد بلفتا من النحول والهزال أن قلبي انقبض حين رأيتهما أشد الانقباض . قلت لها :
- أيتها الأميرة ، هل تعرفين أنني كنت أعبت بك ؟ عليك إذن أن تحترقيني .

فتصاعدت إلى خديها حمرة من مرض . واستمرت أقول :
- ولا يمكنك أن تحبيني ...

فأشاحت بوجهها ، وتوكت على المنضدة ، ووضعت يدها على عينيها اللتين تراءى لى أن فيهما دموعا ، وقالت بصوت يكاد يكون منطفئا :
- يارب !

لا يكاد يستطيع الإنسان أن يقاوم هذا المنظر ، أوشكت أن أرمى على قدميها ، ولكنني تجللت ، واستأنفت أقول ، بصوت أردت أن يكون ثابتا ، مع ابتسامة حملت نفسى عليها حملا :

- وهكذا ترين أنت نفسك أنني لا أستطيع أن أتزوجك . وإذا أنت رغبت في ذلك الآن ، فلن تلبثي أن تندمى عليه أشد الندامة .
إن الحديث الذي دار بيني وبين أمك ، يضطرنى إلى أن أخاطبك هكذا بصراحة وقسوة . آمل أن تكون أمك على خطأ ، وسيسهل عليك أن تبددى وهمها . أنني أمثل في نظرك دورا حقيرا ، دورا سافلا ، وأنى لأعترف بذلك . وهذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك . سأسلم بكل ما قد تريه في من رأى . هانت ذى ترين كم كان سلوكى معك بشعا كريها ... وهبك أحببتنى ، فلا بد أن تحترقيني الآن .

فالتفتت إلى ، صفراء قطعة من المرمر ، وكانت عيناها وحدهما تلتعنان ، وقالت :
- أكرهك ...

فشكرت لها قولها ، واستأذنتها بالانصراف ، بعد أن حبيتها في كثير من الاحترام .

وبعد ساعة من الزمن كانت عربة البريد تمضى بى بعيدا عن كيسلوفودسك . وعلى مسافة بضعة فرسات من اسنتوكى ، رأيت جثة حصانى الكريم . كان سرجه قد أخذ عن صهوته ، أخذه قوزاقي من غير ريب ، وعلى ظهره ، في مكان السرج ، حط غرابان . فأشحت بوجهي ، وأنا أزفر زفرة حرى ...

والآن ، في هذه القلعة التى أشعر فيها بالضجر والسامة ، واستعرض صور الماضى وأتساءل في كثير من الأحيان لماذا رفضت

ان ادخل في الطريق التي فتحتها لى القدر والتي كان يمكن ان اعرف
فيها افراحا عذبة ، وان اجد فيها طمانينة الروح ؟ ... لا ، لا ،
اننى لم اخلق لتلك الحياة ! انى كملاح ولد وتزعزع على ظهر مركب
من مراكب القرصان ... ألف العواصف والمعارك . فاذا ألقى الى
الشاطئ ، شعر بالضجر والسامة ، لا تغريه الواحات الظليلة ولا
الشمس الساطعة . انه يظل طوال النهار يضرب هنا وهناك على
رمل الشاطئ . يصيح بسمعه الى خريف الأمواج الرتيب ، ويفرق
بصره في الآفاق البعيدة ذات الضباب الكثيف : ترى ان يلمح
أخيرا ، على الخط الشاحب الذى يفصل الهوة اللازوردية من
السحب الشهباء ، الشراع الذى طالما اشتهاه ، شبيها بجناح الزمج
في أول الأمر ، متخلصا من الزبد شيئا فشيئا بعد ذلك ، مقتربا
من المرفأ المقفر ثابت السير ؟ ..

الجبرى

اتفق لى مرة ان قضيت اسبوعين فى قرية قوزاقية فى الجناح الايسر . كانت ترابط هناك كتيبة من المشاة ، وكان الضباط يجتمعون يوما عند هذا ويوما عند ذلك ، ويقضون السهرة فى لعب الورق . وضقنا ذات يوم ذرعا بالبوستون . فرمينا بالورق تحت المنضدة ، وبقينا نتحدث مدة طويلة جدا فى بيت الضباط المقدم س . . . كان الحديث ، على خلاف العادة من أمتع الأحاديث . كانوا يقولون ان العقيدة الإسلامية التى ترى أن قدر الانسان قد كتب عليه فى اللوح المحفوظ ، تجد بيننا نحن المسيحيين كثيرا من الانصار . وأخذ كل واحد يقص حالات عجيبة ، فى تأييد هذه العقيدة أو فى انكارها . قال المقدم العجوز :

— كل هذا ، أيها السادة ، لا يبرهن على شيء . . . اذ ما من واحد منكم شهد الحالات الغريبة التى يسوقها فى تأييد رايه . . . اليس كذلك ؟

فقال معظمهم :

— نعم لم نشهداها ، ولكن الذين قصوها علينا ثقات بطمان الى صدقهم .

فقال أحدهم :

— هذا كلام فارغ . أين هم أولئك الثقات الذين رأوا اللوح المحفوظ الذى كتبت عليه ساعة موتنا ؟ . . . واذا صح أن الانسان مسير لا مخير ، فلماذا أوتينا ارادة وعقلا ؟ ولماذا نسال عن أفعالنا ؟ عندئذ نهض ضابط كان جالسا فى ركن من الغرفة ، وتقدم ببطء نحو المنضدة ، وألقى حوله نظرة هادئة فخمة فى آن واحد . أنه صرعى ، كما يدل على ذلك اسمه .

كان مظهر الملازم الأول ، فولتش منسجما مع طبعه . ان قامته الفارعة ، ووجهه الأسمر ، وشعره الأسود ، وعينييه النافذتين ، والسوداوين ايضا . وانفه الكبير فى استقامة ، كأَنُوف سائر أبناء قومه ، وأبتسامته الحزينة الباردة التى تطوف على شفثيه دائما ، ان ذلك كله كان يسهم فى أن يسبغ عليه طابع انسان غريب

فريد ، عاجز من تقبل أفكاره وأهوائه الى هؤلاء الذين جعلهم
القدر رفاقه .

كان شهما ، يتكلم قليلا ، ولكنه اذا تكلم فبلهجة قاطعة جازمة .
وكان لا يفضى الى أحد بأسرار أسرته ، ولا بأسرار نفسه . وكان
لا يكاد يشرب خمرًا ، وكان لا يتودد الى الفتيات القوزاقيات
(التي يصعب على المرء أن يتصور ما لهن من فتنة ما لم يرهن)
ولا يغازلهن . ومع ذلك فكان يقال أن زوجة الكولونيل لم تكن غير
مبالية الا بعينيه اللتين تفيضان بالتعبير ، ولكنه كان يستاء اذا اوما
أحد الى ذلك ، بل كان يستاء من هذا استياء شديدا .

والهوى الوحيد الذي كان لا يخفيه ، هو ميله الى اللعب .
كان ينسى امام المائدة الخضراء كل شيء . وكان في معظم الأحوال
يخسر ولا يربح . ولكن خسارته المستمرة كانت لا تزيده الا عنادا .
وبروى انه ذات ليلة ، ابان حملة من الحملات ، كان هو الخازن ،
وكان يوائيه الحظ مواتاة عجيبة ، وهو متكئ على مخدته ، فاذا
بصوت رصاص يلعلع على حين غرة ، فاطلقت اشارة الخطر . وهب
جميع اللاعبين ، يتناولون أسلحتهم . ولكن فولتش صاح بواحد
من أشدهم حماسة يقول : « كم ؟ » فأجابه هذا وهو يخرج مسرعا :
« سبعة » . فأخذ فولتش ، بينما الناس في هذا الاضطراب الشامل ،
يكمل اللعب .

حتى اذا ظهر أخيرا في الجبهة ، كانت قد احتدمت المعركة ،
ولكن فولتش لم يحفل لا برصاص التشتشينيين ولا بأسياهم ،
بل كان يبحث عن خصمه المحظوظ ، حتى اذا لمح به بين الرماة
الذين أخذوا يجلون العدو عن غاية من الغابات ، صاح به يقول :
- السبعة ربحت !

ثم اقترب منه ، وأخرج المال ، ومدته الى الراح السعيد ، وعشا
احتج هذا بأن المكان ليس مكان سداد الديون . فلما فرغ من القيام
بهذا الواجب الذي لا يسر كثيرا اندفع الى أمام ، فاقبضى به
الجنود ، وظل الى نهاية المعركة يحارب التشتشينيين في رباطة
جاش عظيمة .

حين اقترب الملازم الأول فولتش من المنضدة ، صمت جميع
الناس ، وتوقعوا أن يسمعوا شيئا عجيبا . قال (وكان صوته
هادئا وأخفص نبرة مما عهد فيه) :
- ايها السادة ، هذه مناقشات عقيمة ، هل أدلكم على حجج

تقنع ؟ اذن جربوا على انفسكم ، لتعرفوا هل يصرف الانسان حياته على ما يشاء ، أو انه اذا جاء أجله لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؟ من يريد أن يجرب ؟

فتعالى الصباح من كل صوب يقول :

— لست أنا ، لست أنا ، على كل حال ! ماهذه الفكرة الغريبة ! ؟

فقلت على سبيل الضحك :

— اقترح أن نتراهن !

— على ماذا ؟

— على أنه لا قدر !

قلت ذلك ، والقيت على المنضدة بعشرين دينارا وهى كل ما املك .

فأجاب فولتش بصوت أصم يقول :

— قبلت . سيدى المقدم ، أنت الحكم . هذه خمسة عشر دينارا

اسمح لى أن أضم إليها الدنانير الخمسة التى تدين بها لى .

فقال المقدم :

— هذا حسن . ولكننى لم أفهم ما هو الموضوع ، ولا كيف

ستحسمون المشكلة .

وهنا ذهب فولتش الى مخدع المقدم ، دون أن يقول كلمة

واحدة . فتبعناه ، وتقدم من الجدار الذى علق عليه السلاح ،

فانتزع منه أحد المسدسات على غير اختيار . لم نفهم ماذا يريد

أن يعمل ، ولكنه أراح الزناد ، وسكب فى المسدس بارودا . صاح

به كثير منا ، وأمسكوا بلراعيه ، يقولون :

— ماذا تريد أن تعمل ؟ هذا جنون ! ...

فأجاب يقول ببطء ، وهو يسحب ذراعيه :

— أيها السادة ، من منكم يدفع عنى عشرين دينارا ؟

فصمتوا جميعا ، وتراجعوا .

فعاد الى الغرفة الأولى ، وجلس الى المنضدة . كانوا جميعا

يتبعونه . فدعانا الى الجلوس ، فأطمناه جميعا صامتين : لقد

سيطر علينا فى هذه اللحظة سيطرة خفية . كنت أحقق فى عينيه .

ولكنه قابل نظرتى المتفرسة بهدوء وسكون ، وابتسمت شفتاه

الشاحبتان . على اننى ، رغم رباطة جأشه ، لاح لى فى وجهه

الاصفر كالشمع ، طيف الموت . لقد لاحظت أن الانسان كثيرا ما يرى

طابع الموت فى وجه شخص سيموت بعد بضع ساعات ، وقد أكد لى

ذلك أكثر من واحد من العسكريين الشيوخ ... ان الوجه يكتسى

عندئذ خاتم قدر لا مفر منه ، ولعلما تخطيء العيون البصيرة في تقدير هذا .
قلت له :

— ستموت اليوم .
فالتفت الى بسرعة ، ولكنه اجابنى بهدوء وبطء :
— ربما أموت ، وربما لا أموت .
ثم سال المقدم :
— هل هذا المسدس مشحون ؟
ولكن المقدم من فرط اضطرابه ، لم يتذكر ...
وصاح احدهم :

— كفى يا فولتس ، كفى . لا بد انه مشحون ما دام حلق فوق السرير . يا لهذه الطريقة العجيبة في الزواج !
وأضاف آخر :

— مزاح غبي .
وصاح ثالث :

— اراهن على خمسين روبلا مقابل خمسة ، ان هذا المسدس ليس مشحونا .

وتكاثرت الرهانات . واضجرتنى هذا الاحتفال كله ، فقلت لفولتس :

— اسمع ، اما ان تحطم رأسك ، واما ان تضع المسدس جانبا ، فنمضى ننام .

فصاحت أصوات كثيرة تقول :

— نعم ، هو ذلك ، سنمضى الى النوم .

— أيها السادة ، ارجوكم أن لا تتحركوا .

قال فولتس هذا ، ووضع فوهة المسدس على صدغه .
فجمدوا جميعا . وأضاف يقول :

— سيد بتشورين : خذ ورقة من أوراق اللعب ، وارمها في الهواء فتناولت من على المنضدة — ما ازال اذكر هذا كانه يقع الآن — ورقة آس كوبة ، وقدلفت بها في الهواء . تقطعت أنفاس الجميع ، كانت نظراتهم التي تعبر عن الخوف والاستطلاع في آن واحد ، تنتقل سريعة بين المسدس والورقة . وكانت تهبط ببطء وهي ترتعش . حتى اذا لامست المنضدة شد فولتس زناد المسدس ... لم تخرج الطلقة ! ..

فصاحوا يقولون :

— الحمد لله — على ان المسدس لم يكن مشحونا !

فقال فولتش :

— لننظر .

حرك الزناد ، ثم صوب الى قبعة كانت متدلية فوق النافذة ،
فاذا بصوت الطلقة يدوى ، واذا بالدخان يملأ الغرفة ، حتى اذا
تبدد الدخان نظرنا الى القبعة فاذا بالرصاصة قد ثقيبتا في وسطها
تماما ، ثم خرجت منها فنفلت في الحائط نفاذا عميقا .

وانقضت ثلاث دقائق ، دون ان ينبس بكلمة . وتناول فولتش
دنانيرى العشرين قدسها في محفظته بهدوء .

واحتدمت المناقشة بعد ذلك : لماذا لم تخرج الطلقة في المرة
الاولى ؟ قال بعضهم ان الحويض كان مسدودا ، وقال آخرون بصوت
خافت بل لقد كان البارود في أول الامر رطبا ، ثم وضع فولتش
بارودا جديدا . فأكدت ان هذا الافتراض الأخير باطل ، لأننى لم
أحول بصرى عن المسدس لحظة واحدة . وقلت لفولتش :

— انت محظوظ في اللعب .

قال وهو يبتسم ابتسامة الرضا :

— لأول مرة في حياتى ... هذا خير من لعب جميع انواع البكارا

وغيرها ...

قلت :

— ولكنه أخطر منها قليلا .

قال :

— هل بدأت تؤمن بالقدر ؟

— نعم ، ولكننى أتساءل : لماذا لاح لى انك ميت اليوم لا محالة .

وفى هذه اللحظة رايت هذا الرجل الذى كان منذ قليل يضع فوهة
المسدس على صدغه هادئا ، يحمر فجأة ويضطرب .

قال وهو ينهض :

— كفى . لقد انتهى الرهان . وملاحظاتكم تبدو لى الآن في غير

محلها ...

وتناول قبعته ، وخرج ، لقد بدا لى ذلك غريبا ، ولا عجب !
وسرعان ما افترقنا ، فذهب كل منا الى بيته ، وهو يؤول نزوات
فولتش على طريقته ، ولعلمهم انهمونى جميعا بالانانية ، لأننى راهنت
شخصا هم أن يقتل نفسه ... كأنه لا يستطيع أن يجد ، بدونى ،

فرصة مناسبة .

كنت عائدا الى بيتى امر بطرقات القرية الخالية من الناس ، وكان القمر بدرا متوقدا قد اخذ يطلع في الأفق بنور كأنه نور حريق ، وكانت النجوم تتألق هادئة في القبة الزرقاء الضاربة الى سواد . لم استطع أن أحبس نفسى عن الابتسام حين تذكرت أن قدماء الحكماء كانوا يتصورون أن الكواكب تهتم بخصوصيات البشر التافهة على قطعة من الأرض أو على حقوق موهومة . ان هذه المصاييح التى كانوا يظنون انها انما تشتعل لتنير ما يدور بينهم من خصومات ، وما يحققونه من الوان النصر ما تزال مع ذلك تضيء ببريق لم يتغير ، مع ان آمالهم ، وأهواءهم قد انطفأت معهم ، كنار أوقدها عند طرف الغابة مسافر من المسافرين عابر لا يبالي ! ولكن ما كان أقوى تلك العزيمة التى يمدهم بها ذلك الاعتقاد بأن السماء كلها ومن فيها من سكان لا يحصى عددهم تنظر اليهم فى اهتمام أحرص ولكنه لا يحول ولا يزول . فى حين أننا نحن ، نحن أعقابهم الذين نستحق الشفقة والرثاء ، الذين نضرب فى الأرض بلا عقيدة ولا كبرياء ، بلا لذة ولا خوف ، الا اللعز الذى يقبض صدورنا ولا نستطيع له دفعا ، حين نتصور أننا صائرون الى الموت لا محالة ، أما نحن هؤلاء فقد أصبحنا عاجزين عن أن نقدم أية تضحية كبيرة ، لا فى سبيل خير الانسانية ، ولا فى سبيل سعادتنا ذاتها ، لأننا نعرف أن السعادة مستحيلة ، وما ننفك ننتقل من شك الى شك لا نلوى على شيء ، كما كان أسلافنا ينتقلون من وهم الى وهم ، اننا لا نملك ما كانوا يملكون من رجاء ، ولا ما كانوا يحسونه من فرح لا يمكن تعريفه ، ولكنه فرح قوى تشعر به النفس حين تناضل ضد البشر أو ضد القدر ...

ورادتنى أفكار أخرى من هذا القبيل . ولكننى لم اثلث عليها ، لأننى لا أحب أن أثقل على نفسى بفكرة مجردة ، وما عسى أن ينتج هذا كله ؟ كنت فى حدائتى فتى حالما ، أحب ان أداعب الصور الجهمة أو الضاحكة التى يرسمها خيالى القلق الشره ، كنت أداعب هذه الصور واحدة بعد أخرى ، ولكن ماذا بقى لى من هذا كله ؟ لا شيء الا تعب يشبه التعب الذى يعقب معركة مع شبح والا ذكرى مشوشة تفيض بالحسرات . لقد أفنيت فى ذلك الصراع العقيم ، حرارة الروح وثبات الإرادة ، وكلاهما ضرورى جدا لحياة الفعل والنشاط . وحين دخلت هذه الحياة التى سبق أن عشتها

بالفكر ، شعرت بالضجر ، وشعرت بما يشعر به من اشمئزاز شخص يقرأ تقليدا سيئا لكتاب يعرفه منذ مدة طويلة .

لقد تركت في نفسي حادثة هذه الليلة أثرا قويا ، وإهاجت أعصابي . لست أدري . هل أومن اليوم بالقدر . ولكنني آمنت به في ذلك المساء إيمانا قويا ، إذ كان البرهان عليه برهانا دامعا . كنت وأنا أسخر من أسلافنا ومن تنجيهم المضحك ، أسير على غير إرادة مني في أثرهم . ولكنني توقفت في هذا الطريق الخطر في اللحظة المناسبة ، إذ لما كان من مبدئي أن لا أجحد شيئا من الأشياء جحودا مطلقا ولا أن أومن بشيء من الأشياء إيمانا أعمى ، فقد تركت الميതافيزيقا جانبا ، ونظرت بين قدمي . وجاء هذا الاحتراس في حينه تماما ، إذ أنني أوشكت أن أقع على الأرض مصطدما بشيء ضخم رخو ، ولكن لا حياة فيه . فأنحنيت أنظر ما هذا ، وكان القمر يضيء الطريق ، فاذا أنا أرى خنزيرا قد شطر شطرين بضربة من سيف ... وما كدت أمرف هذا حتى سمعت وقع خطوات ، ورأيت قوزاقيين يخرجان من زقاق آخر ، فيقبل أحدهما نحوي ويسألني : هل رأيت قوزاقيا سكران يلاحق خنزيرا ، فقلت أنني لم أصادف قوزاقيا ، ولكنني أشرت إلى الضحيرة الشقية التي ذهبت بها شجاعته .

قال الآخر :

— هذا اللص! انه متى شرب خمرا ، ضرب بسيفه كل ما يصادف . هيا بنا سريعا يا يرميئتش ، يجب أن نقبض عليه ، يجب أن نقيده ، والا ...

وابتعدا ، فتابعت سري بمزيد من الحذر . ووصلت أخيرا الى منزلي دون أن يقع لي حادث آخر . كنت أسكن في بيت عجوز برتبة وكيل ضابط ، وكنت أحب العجوز لرقه حاشيته ، ولجمال أبنته الحسناء ناستيا ، بوجه خاص .

وجسدتها ، على عادتها ، تنتظرني على باب الحديقة ، متدثرة بردائها المبطن بالفرو . وكان القمر يضيء شفثيها الصغيرتين العريزتين اللتين ازرقتا قليلا من البرد . فلما رأتني ابتسمت ، ولكنني لم أحفل بها كثيرا في تلك اللحظة . فقلت لها ، وأنا أمر بالقرب منها : — ليلتك سعيدة يا ناستيا .

وارادت أن تجيب ، ولكنها لم تزد على أن تنهدت .

وأغلقت باب غرفتي ورائي : وأشعلت شمعة ، ثم ارتيمت على سريري ... وانتظرت النوم في هذه المرة أكثر مما كنت أنتظره في كل مرة . وحين غفوت كان المشرق قد أخذ يبيض ، ولكن لاشك أنه كتب على أن لا أنام في تلك الليلة ، ففي الساعة الرابعة من الصباح طرقت نافدتي ضربات قوية من قبضتين ، فنهضت فوراً أتساءل ماذا هنالك ؟

— انهض ، البس ثيابك !

فدسست ثيابي بسرعة وخرجت .

فبادرنى ثلاثة من الضباط يسألونني بصوت واحد : وقد امتعقت وجوههم حتى لكانهم موتى :

— هل تدري ماذا وقع ؟

— ماذا ؟ ..

— قتل فولتش .

فلم أكد أصدق ما أسمع . واردفوا يقولون :

— نعم ، قتل ! تعال ، أسرع !

— ولكن الى أين نذهب ؟

ومضينا . فقصوا على كل شيء ، ولم ينسوا أن يسيروا الى ذلك القدر الذي أنقذه من موت محقق ، قبل موته بنصف ساعة . كان فولتش يسير وحده في الشوارع المظلمة . فالتقى بالقوزاقي السكران الذي شطر الخنزير شطرين ، والذي كان يمكن أن يمر دون أن ينتبه الى فولتش ، لولا أن فولتش توقف فجأة وسأله :

— « ممن تبحث يا صاحبي ؟ » فأجابه القوزاقي ، وهو يضربه بسيفه ويشطره شطرين من الكتف الى ناحية القلب ، قائلاً :

« عنك ! »

وفي غضون ذلك وصل القوزاقيان اللذان صادفاني وكانا يلاحقان القتال ، فحملا الجريح ، ولكنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ولم يستطع أن يقول إلا هذه الكلمات : « كان على حق ! » لقد فهمت وحدي هذا المعنى الغامض الذي تشتمل عليه هذه الكلمات : كانت تعني أنا . فلقد تنبأت للمسكين بمصيره ، من غير أن أريد ذلك . لم تخلعني غريزتي . أن ما قرأته في وجهه كان حقاً نذير موت قريب .

كان القتال قد اعتصم ببيت خال عند طرف القرية . والى هناك ذهبنا . رأينا نساء كثيرات يسرعن الخطا الى تلك الجهة ، وهن

يتأوهن ويصدرن انات . ومن حين الى آخر ، يندفع في الشارع قوزاقى متخلف يضع خنجره في حزامه بسرعة ، ويتقدمنا واكفا . لقد بلغ الاضطراب اقصاه .

ووصلنا اخيرا . كان حول البيت جمهور كبير ، وكانت الابواب والنوافذ موصدة من الداخل . وكان الضباط والقوزاق يتناقشون ويتجادلون بعنف ، وكانت النساء يصدرن انات ، وتأوهن ، وينتجن . ورأيت بينهن وجها خطف بصرى خاصة ، هو وجه امرأة مجوز تعبر عن أشد اليأس وأعمقه . كانت جالسة على خشبة كبيرة ، وقد وضعت كوعها على ركبتيها ، وأسندت رأسها الى يديها . انها أم القاتل . وكانت شفتاها تتحركان من حين الى حين ... ترى اهى ترفع الدعوات أم تستنزل اللعنات ؟

كان لابد من أن تقرر الشروع في عمل للقبض على القاتل . ولكن لم يجسر أحد أن يندفع اول المندفعين .

فاقتربت من النافذة ، ونظرت من شق مصراعها . كان الرجل متمددا على الأرض ، شديد الشحوب . وكان يمسك بيده اليمنى مسدسا . وكان سيفه الدامي يرقد على مقربة منه . كان يدبر حينه على نحو مرعب . وكان في بعض اللحظات يرتعش ، ويمسك رأسه بيديه ، كأنه يتذكر ما وقع تذكر غامضا . ولم أقرا في هذه النظرة القلقة معنى من معاني العزم القوى ، فقلت للمقدم : انه من الخطأ أن لا يلقى أوامر الى القوزاق باقتحام الباب والاسراع الى الداخل ، فلئن يفعل ذلك الآن خير من أن يفعله حين يعود الى الرجل كامل وعيه .

وفي هذه اللحظة ، تقدم من الباب « ايصاول » * عجوز ، ونادى الرجل باسمه ، فأجابه الآخر ، فاستمر يقول :

— يا ييفيميتش ، يا صديقى ، لقد أخطأت ، ولا مهرب الآن ، سلم نفسك ! ..

فأجابه القوزاقى :

— لن امتسلم ! ..

— أخشى ربك ! لست تمشثنيها ، لست كافرا ... أنت مسيحي . لقد أئمت . ماذا تريد ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يتحاشى ما كتب عليه ! ..

* هو في الجيش الروسى القديم شابط قوزاقى يبادل برتبته الرئيس في المشاة.

فكرر القوزاقى يقول بلهجة متوعدة :

— لن أسلم ! ..

وسمعت قرقة زناد المسدس يفتح .

فقال الإصاول ، متجها الى المرأة العجوز :

— انت يا امه . كلميه قليلا ، فلعله يطيعك ... ان لم يسلم

فسيغضب الله . فكرى قليلا . ان هؤلاء السادة ينتظرون هنا منذ ساعتين .

فحدقت اليه طويلا ، وهزت راسها .

فاقترب الإصاول من المقدم ، وقال له :

— يا فاسيلى بتروفيتش ، لن يسلم نفسه . اننى امره . هيا

بنا . ولكن اذا اقتحمنا الباب ، فسيقت قسلى . اليس من

الأفضل ان نقتله بطلقة بندقية ؟ ان فى النافذة شقا واسعا .

عندئذ خطرت ببالى فكرة غريبة : أردت ، كفولتس ، ان أجرب

قدرى . فقلت للمقدم :

— انتظروا ، سأتيكم به حيا .

ثم أمرت الإصاول ان يشغله بالحديث ، وأمرت ثلاثة من القوزاق

ان يستعدوا لأن يقتحموا الباب وأن يهبوا الى مساعدتى عند الإشارة

المتفق عليها ، ودرت حول البيت ، حتى وصلت الى النافذة

المعينة . ان قلبى ليخفق خفقانا شديدا .

كان الإصاول يصيح به :

— انتظر قليلا أيها الكافر ! انعبت بنا ؟ أم تظن أننا لا نستطيع

ان نتغلب عليك ؟

وأخذ يضرب الباب بكل ما أوتى من قوة .

وضعت عيني على شق النافذة ، وأخذت أرقب حركات القائل

الذى كان لا يتوقع أن يهاجم من هذه الجهة . ثم خلعت المصراع

على حين فجأة ووثبت من النافذة ، ورأسى الى الأمام . فانفجرت

طلقة تحت أذنى ، فاقتلعت الرصاصة الشارة التى على كفى .

ولكن الدخان ملا الغرفة ، حال بين خصمى وبين العثور على سيفه

الذى كان يرقد على مقربة منه . فأمسكت بيديه ، ودخل القوزاق ،

وبعد دقائق ثلاث ، كان مكبلا يقاد تحت حراسة قوية . وتفرق

الجمهور ، وهنأتى الضباط ، حقا لقد كنت أستحق التهنة .

كيف لا أصبح بعد هذا جبريا أو من بالقدر ؟ ولكن هل يمكن أن

يكون المرء على يقين من أنه مؤمن بأى شيء من الأشياء ؟ ... كم

مرة آمننا بأمور هي خطأ من أخطاء الحواس ، أو ضلال من ضلالات العقل ؟ ! ... أحب أن أشك في كل شيء . وهذا لا يمنع المرء من أن يكون ذا طبع حازم . بالعكس . اننى حين أجهل ماينتظرنى ، أكون من الأقدام على الفعل أجسر . اذ لايمكن أن يقع لى ما هو شر من الموت ، والموت لأبد منه في يوم من الايام ، قرب هذا اليوم أو بعد !

حين عدت الى القلعة قصصت على مكسيم مكسيميتش كل ما وقع لى ، وكل ما شهدته ، وكنت أريد أن أعرف رأيه في المقدر ، فلم يفهم هذه الكلمة . فترحت له معناها ما وسعنى الشرح ، فقال لى وهو يهز رأسه في كثير من الجد والوقار :

- هم ... هذا أمر معقد كثيرا !.. على ان هذه الأسلحة التى يستعملها الآسيويون كثيرا ما لا تخرج طلقاتها ، اذا لم تشحم تشحيماً كافياً ، أو اذا لم يشد المرء الزناد بقوة كافية . وأعترف اننى لا أحب البندقيات الشركسية ، فهذه الأسلحة لم تخلق لنا . ان قنذاقها صغير جدا ، حتى ان احداً يكون معرضاً دائماً لأن يحرق أنفه حين استعمالها ... أما سيوفهم ، فحدث عنها ولا حرج ! ..

ثم أضاف بعد بضع لحظات من التفكير :
- نعم ، اننى أرى لذلك المسكين ... ولكن لماذا التحدث مع مسكران في ظلام الليل البهيم ؟ لأبد من الاعتقاد أن هذا كله قد كتب له ...

ذلكم كل ما استطعت أن أستخرجه من الرئيس : أنه لا يحب المناقشات الميتافيزيقية .

١٨٣٨ - ١٨٣٩.

التمهيد

تعليق

في شهر مايو (ايار) من عام ١٨٤٠ ظهرت في المكاتب ببطرسبورج رواية « بطل من زماننا » بقلم شاب في الخامسة والعشرين من عمره ، هو ميخائيل ليرمونتوف ، الذي كان قبل ذلك الحين شاعرا شهيرا .

وظفرت الرواية بنجاح عظيم فتفدت جميع نسخها . وكان كل قارئ يجب أن يعرف . من هذا الشخص الذي يسميه الكاتب « بطل من زماننا ؟ » ان الصورة تحاكي بطلا ، وتأخذ منه مثالا ... والعنوان نفسه يبلبل ...

ان الرواية تجرى على صورة أصيلة كل الاصاله : هي خمس افايص ، سبق أن نشرت ثلاث منها في المجلة التقديمية « اوبتشيستفينيه زايسكي » ، ولكن أحدا ممن قرأوا تلك الأفايص منفصلة ، لم يلاحظ أنها تؤلف كلا واحدا . انها ترتبط بعضها ببعض بالشخصية الرئيسية بتشورين ، الضابط المنفى الى جيش القفقاس .

والفصول المختلفة من هذه الرواية : « بيلا » ، « مكسيم مكسيمتش » ، « تامان » ، « الأميرة ماري » ، « الجبري » ، ليست متعاقبة في الزمان : فالأحداث التي يروها القسم الثاني سابقة في الزمان على أحداث القسم الأول . والترتيب الزمني هو التالي : (١) يتوقف بتشورين في تامان ، وهو ذاهب الى القفقاس ، حيث يقوم بالخدمة العسكرية (« تامان ») . (٢) بعد أن اشترك بتشورين في إحدى الحملات العسكرية ذهب الى بياتيجورسك وكيسلوفودسك ، حيث المياه المعدنية ، وتبارز هناك مع جروشنيتسكي فقتله (« الأميرة ماري ») . (٣) نقل بتشورين بعد تلك المبارزة الى قلعة في الجانب الأيسر من « الخط القفقاسي » تحت أمرة الرئيس مكسيم مكسيمتش (« بيلا ») . (٤) يغيب بتشورين عن القلعة مدة أسبوعين ويذهب الى قرية قوزاقية ، ويراهن هناك قولتش (« الجبري ») . (٥) بعد ذلك بخمس سنين ، يلتقى بتشورين ، الذي استقال وكان في طريقه الى بلاد

فارس ، بمكسيم مكسيميتش في فلاديفوقاس («مكسيم مكسيميتش»).
(٦) يموت بتشورين أثناء عودته من بلاد فارس (مقدمة « يوميات
بتشورين ») .

يصور لنا ليرمونتوف بطله بتشورين : في أول الأمر ، كما يراه
رئيس في الجيش متواضع بسيط ، ينتمى الى بيئة اجتماعية مختلفة
عن بيئته . وفي الأقصوصة الثانية يلاحظ المؤلف نفسه بتشورين ،
ويعلم القارئ بعد ذلك بموت بتشورين ، ويطلع أخيرا على يومياته .
هكذا تنكشف ، شيئا فشيئا ، الجوانب المختلفة من الطبع المتناقض
في هذه الشخصية .

بتشورين شاب جميل غنى ، يتمتع بملاحظة قوية ، وذكاء حاد ،
وينعم بثقافة لامعة . ولكن ليس له أى هدف ، ليس له أى رغبة
... ولا يجد السعادة لا في الحب ولا في الصداقة . وانصر سني
حياته تنقضى بدون عمل . والقوى الكبيرة التي يحسها في نفسه
مهذرة لا تستعمل . وما أحلامه في البطولة إلا أحلام . انه وحيد ،
شقي . وهو يحمل الموت والعذاب الى من تضعهم الصدفة في
طريقه .

فما هي الآفة التي جعلته يشيخ قبل الاوان ؟ لماذا لم يحقق الأعمال
العظيمة التي كان يحلم بها ؟ لماذا ظلت مواهبه الفذة عقيمة ؟ لماذا
ذبل في فراغ ، وشاخ بلا نضال ؟ ..

ذلك لأنه ، في امبراطورية نيقولاى الأول ، في ذلك العهد الذي
طففت فيه رجعية مجنونة ، لم يبصر أى هدف ، لم ير أى امكان
لنضال ، ذلك ، على حد تعبير الثورى الروسى الكبير الكسندر
هيرسن ، لان الناقوس الذي أذن لروسيا باعدام بيستل وصحبه
الديسمبريين وبتتويج نيقولاى الأول ، هو الذي أذن له ببلوقه سن
الرشد . ففي شهر كانون الأول من عام ١٨٢٥ ، سحقت في ميدان
مجلس الشيوخ ببطرسبرج ثورة يقودها مواطنون كرماء ، ثوريون
من أبناء طبقة النبلاء . وقد حطم ذلك اليوم آمال جيل بأكمله من
الشباب المفتونين بالحرية . وكان جيل بتشورين يومئذ أصغر من
أن يشترك في الثورة . ولم يتسع الوقت ، خلال السنين العشر
التي أعقبت ذلك ، « لان يشيخ هذا الجيل ، ولكنه كان محطما ،
يعيش حياة ذابلة ضاوية في مجتمع غريب عن كل صبوة حية ،
مجتمع ذليل ، وجل ، دنى » على حد تعبير هيرسن أيضا .
جاء وقت كان فيه بتشورين يتالم أيضا ، حين يفكر في هذا العار ،

عار استعباد ملايين البشر . ولكن انقضت السنين ، ودفن بتشورين في أعماق نفسه عواطفه ، على أن يرى الألم باردا لايبالي . وفي بادئ الأمر دب اليه اليأس ، من شعوره بعجزه . ثم تصود ألا يؤمن بنبي ، وألا يأمل في شيء . وهكذا أصبح ، على حد تصيره هو نفسه ، مشلول النفس . ومن هذا المشلول في روحه خلق ليرمونتوف بطل زمانه .

وكان ينسأل القارئ دهشا : « أهذا بطل ؟ دعنا اذن ! » وعلى هذا أجاب ليرمونتوف في مقدمة روايته بقوله : « أن بطل من زماننا ... هو حقا صورة ، ولكنه ليس صورة شخص واحد ، بل صورة مؤلفة من عيوب جيلنا بأسره ... »

ولعل القارئ يفهم انه ليس ذنب بتشورين ، وهو بطل جيل شب في عهد نيقولاى الأول ، انه كان ما كان . ان الآفة ليست في بتشورين ، ليست في خصائص طبعه ، بل في ظروف نظام العبودية ، في الطفيان القيصرى ، ان ليرمونتوف في « قصة نفس » - قصة بتشورين - يحلل ظاهرة خاصة بعصره : ان رواية « بطل من زماننا » هى رواية سيكولوجية ، ولكنها رواية اجتماعية أيضا .

وقد صادف ظهورها نقمة جديدة : نفى الشاعر مرة ثانية الى القفقاس التى كانت منذ عدة سنين مسرحا لحرب دامية (حيث ارسل مرة اولى عام ١٨٣٧ ، بسبب قصيدته « موت الشاعر » ، المخصصة لبوشكين) . ان ما اتصف به ليرمونتوف من طبع مستقل حر ، ومن احتقار للاستقراطية ، وكذلك روح مؤلفاته التى تندد بعيوب المجتمع تنديدا جريئا وتشيع فيها حرارة النضال ومحبة الحرية ، كل ذلك قد سبب له كره نيقولاى الأول ومن يحيطون به . وفي عام ١٨٤٠ استطاع أعداء ليرمونتوف أن يشيروا مبارزة جرم بها الشاعر . ولم يعد ليرمونتوف من المنفى ، اذ قتل في مبارزة يوم ٢٧ تموز ١٨٤١ ولما يكمل السابعة والعشرين من عمره .

كتب الناقد الديموقراطى العظيم فيساريون بيلينسكى ، في الرد على المحاولات التى أرادت أن تفض من قيمة ليرمونتوف ومن قيمة روايته ، كتب يقول : « قد يصيح الأخلاقيون التزمتون في جوقه واحدة معا : هذا رجل انانى ، حقير ، شيطان ، لا أخلاق له ... فاقول لهم : انكم على حق أيها السادة ! ولكن لماذا تتحسمون هكذا ؟ انكم لا تلعنونه لآفاته ورذائله (لأن بكم آفات أكثر منها ، وآفاتكم شر منها وأدعى الى الخزي والعار) ، ولكنكم تلعنونه لهذه

الحرية الجريئة ، لهذه الصراحة المرة ، في كلامه عنها ... » لقد كان النقد الديمقراطي الثوري الروسى يرى في رواية ليرمونتوف مظهرا هاما من مظاهر الفكر الحر ، وكان يرى في شخصية بتشورين تمثيلا لواقع اجتماعى منتشر جدا ، وتجسيدا لآفات وعيوب كان يتصف بها جيل بكامله .

لقد دخل بتشورين الحياة بعد ثورة الديسمبريين ، ومات قبل ان يظهر الى حقل التاريخ الجيل التالى من الثوريين الروس : جيل الديمقراطيين الثوريين . لقد فهم بيلينسكى حق الفهم ان بتشورين هو بطل فترة انتقال ، تتميز بحالة نفسية « تهدم فيها كل ما هو قديم ، ولم يحل محله شئ جديد بعد ، حالة ليس فيها الانسان الا امكانية شئ واقعى فى المستقبل ، ومجرد شبح فى الحاضر » .

ان الحرية الفردية التى صبا اليها بتشورين هى - كما كان يفهم - أن ينفصل عن المجتمع الرافى الذى يحتقره بتشورين ، وأن يعيش بعيدا عن أولئك الذين هم دونه كثيرا من الناحية النفسية والعقلية . فأنكفأ على نفسه ، وضوى في وحدته التراجيدية . انه لا يملك وسائل الكفاح ضد بيئة معادية .

أما ليرمونتوف ، فقد كان يملك سلاحا هو : الشعر . وانه ، اذ فضح في روايته مساوئ النظام ، فقد أسهم في تقدم الفكر الاجتماعى . وهنا ، تكمن القيمة التاريخية العظيمة لرواية « بطل من زماننا » .

ايراكلى آندرونكوف

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

Mr. Miguel Maccoul Cury.

R. 25 do Marco. 994

Caixa Postal 7406,

Sao Paulo, BRAZIL

البرازيل :

The Arabic Publications Distribution
Bureau,

7, Bishopthorpe Road

London S. E. 26,

ENGLAND.

انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



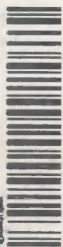
هذه الرواية

«... من تشني على هذا الكتاب : فلا المدح يفيد ، ولا القدح يؤثر
... لا شيء ، ولا أحد ، يمكنه ان يمنع هذا الكتاب من أن ينتشر ،
ومن أن يباع حتى آخر نسخة منه ...»
(فيساريون بيلينسكي من مقالة عن « بطل من زماننا »)

« في كتاب : « بطل من زماننا » ، في اقصيصه الخمس :
« بيلا » ، « مكسيم مكسيميتش » ، « تامان » ، « الاميرة ماري » ،
« الجبري » ، التي يربط بعضها ببعض شخص بشورين ، بطل
ذلك الزمان ، الذي هو ثمرة عصر رهيب ، مجرد من الاخلاق ،
قاس ، والذي يطوف بعقمه وضجره بين روائع
الذين يملكون قلبا بسيطا ، كريما ، نقيًا ، يعبر
كمال فنه الواقعي الناضج ، صاحب الاسلوب
والعذب » .

(الكي تولستوى . « في ذكرى

Bibliotheca Alexandrina



0411383



٢٥٥ فتنروش